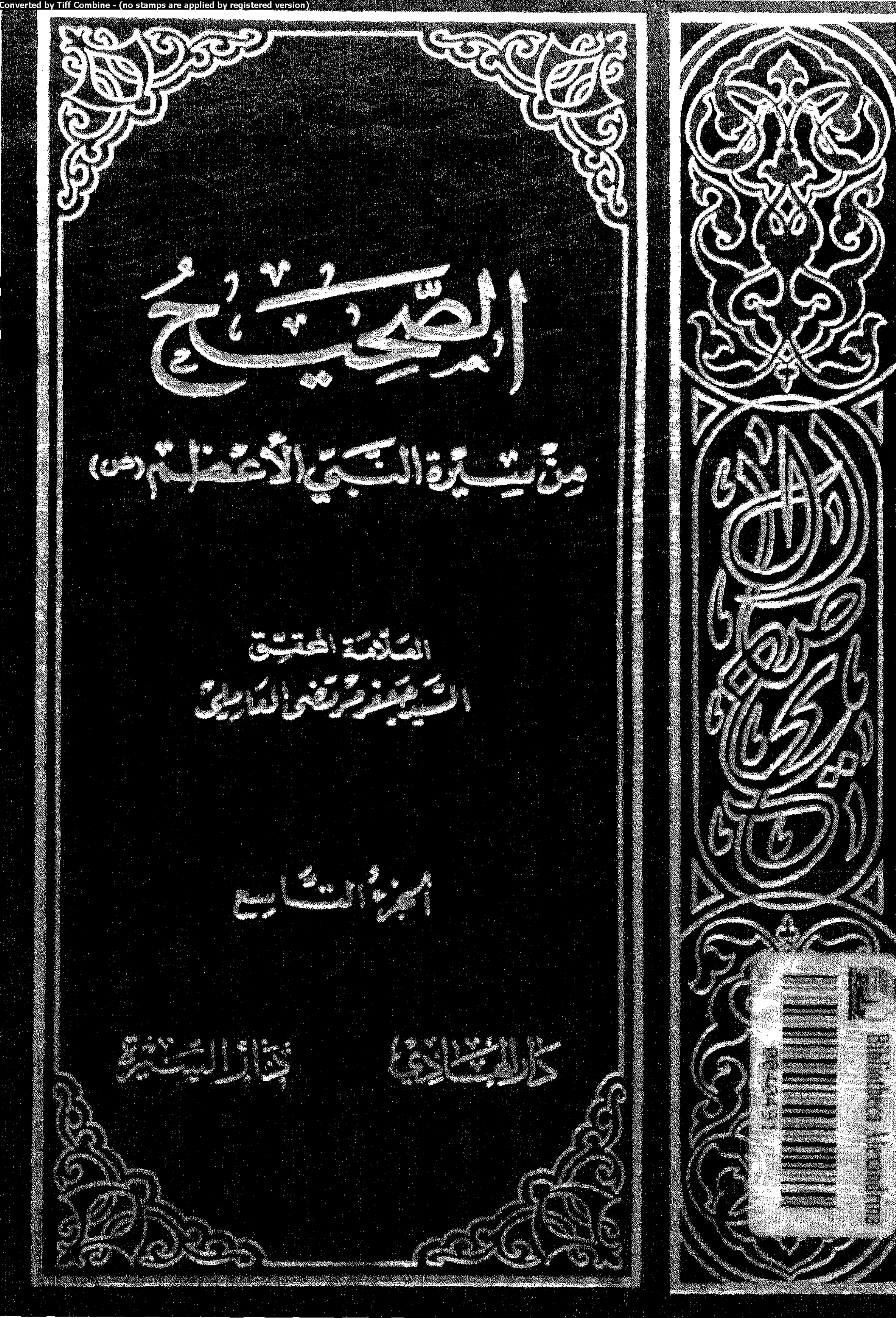

الصحيح
من سيرة النبي الأعظم (ص)
العلامة المحقق
السيد جعفر مرتضى العاملي
الجزء التاسع
دار الهادي
دار السيرة







الصحيح

من سيرة النبي الأعظم (ص)



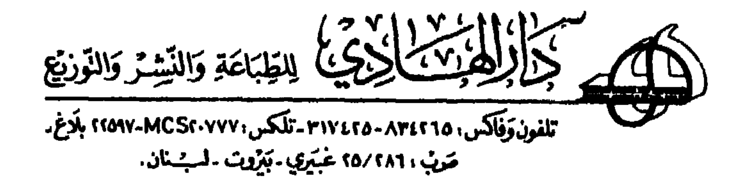
الصحيح

من سيرة النبي الأعظم (ص)

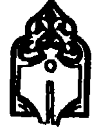
العلامة المحقق
السيد جعفر مرتضى العاملي

الجزء التاسع

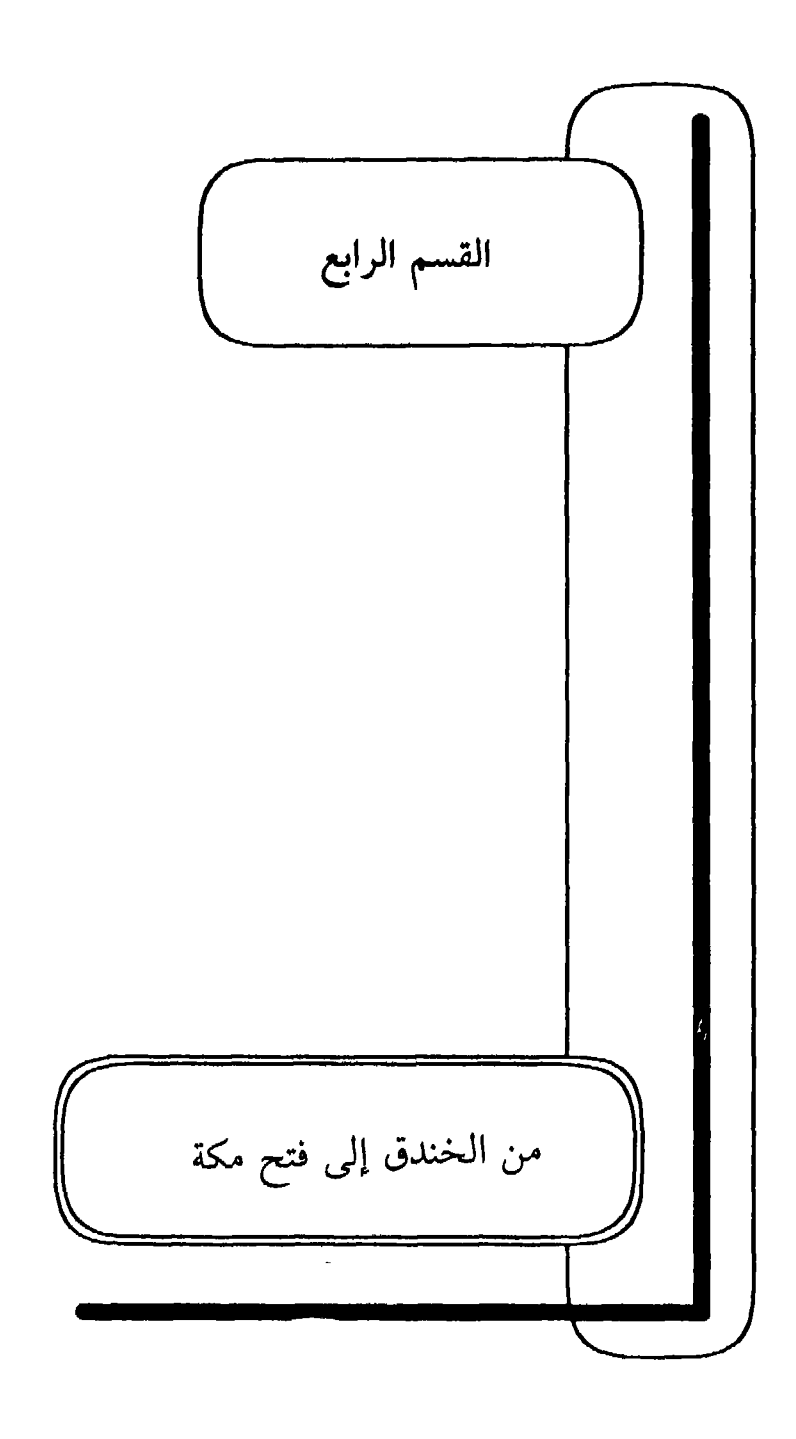
الطبعة الرابعة
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م



تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥ - ٣١٧٤٢٥ - تلكس: MCS٢٠٧٧٧ - ٢٢٥٩٧ بلاغ.
ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان.



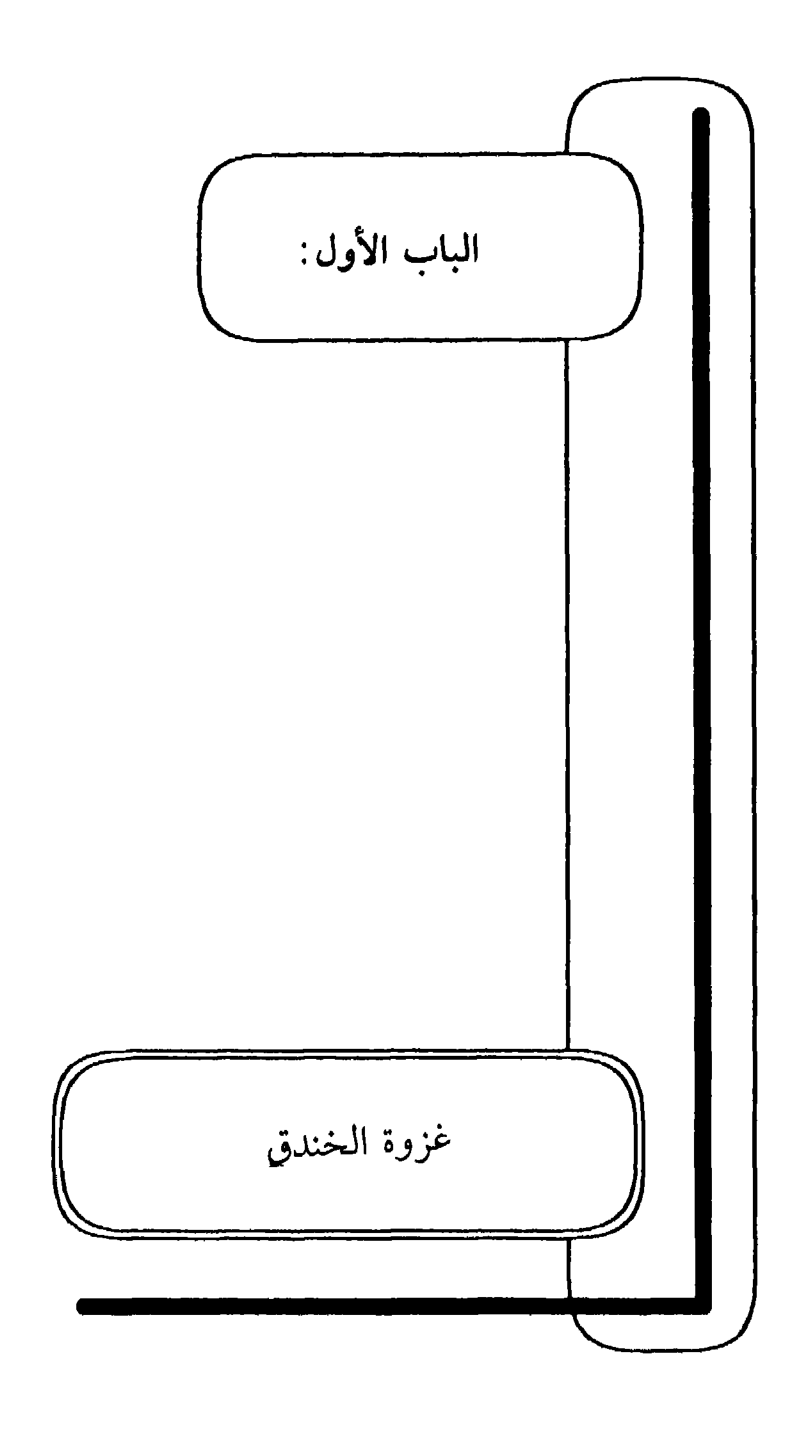
دار السيرة - بيروت لبنان - ص.ب: ٢٥/٤٩



القسم الرابع

من الخندق إلى فتح مكة





الباب الأول:

غزوة الخندق



آيات حول غزوة الخندق

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، مستهم البأساء والضراء، وزلزلوا، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب﴾[1]

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم، إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا. إذ جاؤوكم من فوقكم، ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون، وزلزلوا زلزالاً شديداً. وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾.

﴿وإذ قالت طائفة منهم: يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي، يقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، إن يريدون إلا فرارا. ولو دخلت عليهم من اقطارها، ثم سئلوا الفتنة

---

(١) سورة البقرة/ ٢١٤.

لأتوها، وما تلبثوا بها إلا يسيرا.

ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار، وكان عهد الله مسؤولا. قل: لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل، وإذاً لا تمتعون إلا قليلا. قل: من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم رحمة، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا.

قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم: هلم إلينا. ولا يأتون الباس إلا قليلا. أشحّةً عليكم، فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم، كالذي يغشى عليه من الموت، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حدادٍ، أشحّة على الخير، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اعمالهم، وكان ذلك على الله يسيرا. يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، وإن يأت الأحزاب يودّوا لو أنهم بادون في الأعراب، يسألون عن أنبائكم، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا.

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً.

ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً. ليجزي الله الصادقين بصدقهم، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم، إن الله كان غفوراً رحيماً.

وردّ الله الذين كفروا بغيظهم، لم ينالوا خيرا. وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزا.

وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضهم وديارهم، وأموالهم، وأرضاً لم تطؤوها. وكان الله على كل شيء قديراً»[١]. ﴾

(١) سورة الاحزاب / ٩ ـ ٢٧.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين. إهدنا الصراط المستقيم.

والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، وبعد.

فان حديثنا في هذا الجزء سيكون ـ إن شاء الله ـ عن غزوة الأحزاب: «الخندق». وهي الغزوة التي سميت سورة قرآنية باسمها، بسبب أهميتها البالغة.

وحيث إن الحديث عن هذه الغزوة سوف يتخذ منحى تحقيقياً وتتبعياً، بالإضافة إلى وقفات تحليلية سريعة ومقتضبة، ومتناثرة هنا وهناك، فسيكون من الصعب على القارىء لملمة أطراف الحديث، وجمع شتات المطالب، وربط بعضها ببعض ولو في حدود الخطوط العامة للحدث. ولأجل ذلك رأينا أن نذكر نصاً مختصراً لهذه الغزوة، يكاد يقتصر على عناوينها العامة.

فنقول:

موجز عن غزوة الخندق:

إنه في السنة الرابعة ـ كما هو الأقوى ـ أو في الخامسة ـ سار

عدد من اليهود إلى مكة واستنفروا أهلها لقتال النبي (ص)، واستئصال المسلمين. واتصلوا أيضاً بقبيلة غطفان، وقبائل عربية أخرى، وحرضوهم على حرب محمد، ووعدوهم بالأموال. فساروا وهم ألوف كثيرة إلى المدينة لانجاز هذا المهم.

فبلغ النبي (ص) خبرهم، فحفر خندقاً حول المدينة من الجهة المكشوفة منها. وجعل للخندق أبواباً، وجعل على الابواب حرساً.

وقد شارك النبي (ص) بنفسه في حفر الخندق، وظهرت له صلى الله عليه وآله حينئذٍ كرامات ومعجزات، سنذكرها في الموضع المناسب إن شاء الله تعالى.

وقد عسكر صلى الله عليه وآله إلى جنب جبل سلع، وجعل الخندق بينه وبين الأحزاب. وجعل النساء والصبيان في بعض حصون المدينة، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم. وكان لواء النبي (ص) مع علي عليه السلام.

ولما وافى الأحزاب فوجئوا بالخندق. ونزلوا في الجهة الأخرى منه. وحاصروا المسلمين.

وذهب حيي بن اخطب اليهودي إلى بني قريظة، ولم يزل بهم حتى نقضوا العهد مع المسلمين.

فلما بلغ النبي (ص) ذلك أرسل إليهم من يتثبت له الأمر، فرجعوا إليه وأخبروه بأن ما بلغه صحيح. فاشتد الأمر على المسلمين وضاقت عليهم الارض بما رحبت. وعظم البلاء، ونجم النفاق، وكثر الخوض. وبلغت القلوب الحناجر. وقال المنافقون والذين في قلوبهم

مرض: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام على العسكر كله بالليل يحرسهم، فان تحرك أحد من قريش نابذهم. وكان النبي (ص) يحرس بنفسه بعض مواضع الخندق.

ولم يكن بين المسلمين والمشركين قتال إلا الرمي بالنبل والحصا. وكان المشركون يتناوبون على الخندق، فلا يمكنهم عبوره، والمسلمون يمنعونهم بالنبل والحجارة.

وأصيب يومئذ سعد بن معاذ رحمه الله بسهم، رماه به حبان بن العرقة. وقيل: رماه به أبو أسامة الجشمي، أو خفاجة بن عاصم.

فجعل سعد رحمه الله في خيمة رفيدة، التي كانت تداوي فيها الجرحى. ويبدو أن جماعات من المسلمين قد تركوا النبي (ص) وفروا، واختبأوا في حديقة هناك وفيهم عمر بن الخطاب وطلحة، وقد كشفت عائشة أمرهم، وذلك بعد اصابة سعد بن معاذ.

كما أن النصوص تؤكد على أن النبي (ص) قد بقي في ثلاث مئة من المسلمين، بل في نص آخر: أنه لم يبق مع النبي (ص) سوى اثني عشر رجلاً فقط.

وقد تحدثت الآيات القرآنية عن هؤلاء الفارين، فراجع سورة الأحزاب.

ومهما يكن من أمر، فقد انتدب فوارس من المشركين فأتوا مكاناً ضيقاً من الخندق، وأكرهوا خيلهم على عبوره، فعبره عكرمة بن ابي جهل، وعمرو بن عبد ود، وضرار بن الخطاب الفهري، وهبيرة بن أبي وهب، وحسل بن عمرو بن عبد ود، ونوفل بن عبد الله المخزومي.

فخرج أمير المؤمنين في نفر من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموها وطلب عمرو بن عبد ود البراز فلم يبرز إليه أحد من المسلمين، وخافوا منه خوفاً شديداً، لما يعرفون من شجاعته وفروسيته، وكان يعد بالف فارس. وطلب علي من النبي أن يأذن له بمبارزته فلم يأذن له.

فكرر النداء، وأنشد الشعر، وعيّر المسلمين المحجمين عنه، فطلب علي الإذن مرة أخرى فلم يأذن له الرسول.

فلما كان في المرة الثالثة، ولم يبادر إلى ذلك سوى علي عليه السلام أذن له النبي (ص) وعممه ودعا له، وقال: برز الإيمان كله الى الشرك كله. فبارزه علي عليه السلام فقتله. وقتل ولده حسلا، ونوفل بن عبد الله، وفر الباقون. فقال صلى الله عليه وآله: ضربة علي يوم الخندق تعدل (أو أفضل من) عبادة الثقلين إلى يوم القيامة.

وزعمت بعض الروايات: أن الذي قتل نوفلا هو الزبير، وسيأتي الاشكال في ذلك.

وتزعم بعض الروايات أن نعيم بن مسعود قد ساهم في احداث الفتنة بين بني قريظة وبين المشركين. ولكن الظاهر هو ان النبي (ص) هو الذي القى فيما بينهم بذور الخلاف والشك كما سنوضحه.

ثم أرسل الله سبحانه الريح على المشركين فكانت تكفأ قدورهم، وتطرح خيامهم، وتعبث بكل ما يحيط بهم، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فعادوا بالخزي والخيبة، والرعب يلاحقهم، وكفى الله المؤمنين القتال.

وقال النبي (ص) حينئذٍ الآن نغزوهم ولا يغزوننا، فكان كما قال.. وفي هذا الجزء تجد التفصيل لكل ذلك، مع بعض التحقيق، والتكذيب والتصديق، والتعديل والتحليل، حسبما يقتضيه المقام فإلى ما يلي من مطالب وفصول.



الفصل الأول:

الأحزاب إلى المدينة



تمهيد وبيان

لقد كان لتوالي الحروب في المنطقة فيما بين المسلمين من جهة، وبين أعدائهم من اليهود والمشركين ومن تبعهم من جهة أخرى، وانشغال المسلمين الدائم بهذه الحروب تأثير قوي على حالة المسلمين الاقتصادية، حيث اختلت الحياة التجارية، والحرفية، وظهرت عوارض خطيرة فيما يختص بالشأن الزراعي، حيث كانت الزراعة بمثابة العمود الفقري للاقتصاد بالنسبة لأهل المدينة على الخصوص.

وقد بدأت بوادر الحاجة الملحَّة في النواحي المعيشية، وشحَّة المواد الغذائية تظهر بصورة وبأخرى في هذا المجتمع الإسلامي الصغير الناشيء، والمحاط بالاعداء، والمستهدف بالشر والسوء من كل ناحية ومكان.

وبعد أن خاض المسلمون عدة حروب، ومرّوا بأزمات كثيرة في أكثر من اتجاه، وبعد كسر شوكة بني النضير، وكشف خياناتهم، وافشال مؤامراتهم. وبعد غزوة ذات الرقاع وغيرها.. جاء تأجيل المشركين للحرب في بدر الموعد بسبب رعبهم وخوفهم، ثم استفادة المسلمين تجارياً من سوق بدر بهذه المناسبة أمراً يبعث على الارتياح، ويثير البهجة والأمل، والشعور لديهم بإمكانية تحسن

الأوضاع المعيشية، حيث يتوفر الوقت الكافي لاعادة تنظيم مواسمهم الزراعية، والانتعاش اقتصادياً في مجالات أخرى من حرفية، وتجارية وغيرها في أجواء يهيمن عليها السلام والأمن، والطمأنينة النسبية.

هذا بالاضافة إلى توفر الوقت لمواجهة المشكلات التي خلفتها الحروب السابقة، فردية كانت أو اجتماعية، ومحاولة وضع الحلول المناسبة لها، أو التخفيف من وطأتها وعسى ولعل يمكنهم أيضاً ترتيب العلاقات بمن يحيطون بهم في المنطقة بصورة أكثر حميمية وصفاءً، وصياغتها بصورة اكثر قوة وثباتاً عنها من ذي قبل.

ثم انهم بعد وفوق كل ذلك يصبحون أقدر على ممارسة دور الإعلام المركّز والهادىء للدعوة الالهية التي يحملونها، ويقومون بواجبهم في نشرها، لتقوم على اسس متينة ورصينة من القناعات العقلية والوجدانية، ولتثمر من ثم حياة في الفكر، ويقظة في الضمير، ومسؤولية وطهراً في الوجدان.

فجاءت حرب الأحزاب المفاجئة لتبدد كل هذه الآمال، ولتزيد من قسوة الظروف، ومرارة المعاناة، ولتكون الكابوس المخيف، والمخيف جداً. خصوصاً بما تميزت به من حشد بشري هائل، واعداد واستعداد لم تعرفه المنطقة من قبل. مع هذا الإجماع المستقطب تقريباً على العداء لهم من مختلف القبائل والديانات والشعوب التي تعيش في المنطقة. يصاحبه إطمينان إلى التعاطف والتأييد من كل الآخرين، من أي الديانات، أو الفئات كانوا، في جزيرة العرب، أو في خارجها.

ثم ان حركة الأحزاب قد جاءت محرجة للمسلمين إلى درجة كبيرة وخطيرة من الناحية العسكرية والاستراتيجية الحربية، لأنها

اتخذت صفة هجوم شامل عليهم، من مختلف المواضع والمواقع؛ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم.

يقابل ذلك ضعف ظاهر لدى المسلمين، في العدّة وفي العدد واختراق خطير من قبل الاعداء لصفوف أهل الإيمان، من خلال قوى النفاق التي كانت تتغلغل داخل جسم هذا المجتمع الاسلامي الصغير والناشيء.

هذا كله بالاضافة إلى المشاكل المعيشية، والحياتية على مستوى الفرد والجماعة. سواء تلك المشاكل الناشئة عن الحروب والمواجهات مع الاعداء، أو المشاكل التي تنشأ عادة من صياغة حياة إجتماعية لفئات تعاني أصلاً من تناقضات كثيرة فيما بينها، بسبب اختلافها في مستوياتها وفي حالاتها الطبيعية والعارضة، وبسبب وجود الكثير مما هو من مخلفات الجاهلية الرعناء.

ولا ننسى هنا الاشارة إلى ضعف تأثير العامل القبلي لدى الفريق الاسلامي، لأن المسلمين كانوا لا يشكلون تياراً قبلياً زاخراً وهادراً ذا لونٍ واحد، لأنهم عبارة عن مجموعات صغيرة من قبائل شتى، فيبقى الشعور والعصبية للقبيلة هو العامل الاضعف تأثيراً على صعيد رصّ الصف، وتقوية البنية، وتأكيد اللُّحمة الداخلية. وإنما الحالة الايمانية والدينية وحدها هي التي توحدهم، وتشدّ من أزرهم، وتشحذ فيهم الهمم، وتبعث فيهم روح الاباء والشمم. وقد كانت هذه الروح في بدايات تكوينها لدى الكثيرين منهم فلم تكن مؤهلة للصمود كثيراً وطويلاً في المواضع الصعبة والخطيرة.

وأخيراً.. نشير إلى أن تحزيب الأحزاب قد انطلق من خلال قناعة تامة، ومن شعور اكيد بأن قوة المسلمين قد بلغت حداً لم يعد

يمكن القضاء عليها إلا بحشد كامل وشامل لكل القدرات والقوى المادية والمعنوية على مستوى المنطقة بأسرها. وهذا ما حصل بالفعل، كما سنرى. ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

تحزيب الأحزاب في روايات المؤرخين

لقد ذكر المؤرخون ـ والنص في اكثره للواقدي ـ أنه لما أجلى النبي (ص) يهود بني النضير، ساروا إلى خيبر. وكان بها من اليهود قوم أهل عدد وجلد (وليست لهم من البيوت والأحساب ما لبني النضير). فخرج عدد من اليهود، بعضهم من بني وائل. والباقون من بني النضير، وهم بضعة عشر رجلاً، أو حوالي عشرين، خرجوا إلى مكة يدعون قريشاً واتباعها إلى حرب محمد (ص). وكان ذلك في السنة الرابعة، أو الخامسة أو السادسة للهجرة.

وهؤلاء هم: ـ كما ورد في النصوص المختلفة ـ حيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهوذة بن الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي (أو الوالبي كما في الارشاد) وهو أوسي من بني خطمة، وأبو عامر الراهب أو أبو عمار، ـ الوائلي ـ أو أبو عمارة الوالبي، كما عند المفيد في نفر من بني والبة.

وزاد البعض: سلام بن مسلم. (وأضاف آخر: حوج بن عامر، وأبا رافع، والربيع بن أبي الحقيق[1]).

---

(١) راجع: جامع البيان ج ٥ ص ٨٦ وتفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٥١٣، وراجع: دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠٨ فقد ذكر أبا عمار وحوج بن عمرو.

(وأضاف غيره سلام بن أبي الحقيق، لكن عند ابن الأثير: عبد الله بن سلام بن أبي الحقيق).

قال المفيد: «فصاروا إلى أبي سفيان لعلمهم بعداوته لرسول الله، وتسرعه لقتاله. فذكروا له ما نالهم منه. وسألوه المعونة على قتاله. فقال: إنا لكم حيث تحبون، فاخرجوا إلى قريش، فادعوهم إلى حربه، واضمنوا النصرة لهم، والثبوت معهم حتى تستأصلوه. فطافوا على وجوه قريش، ودعوهم إلى حرب النبي».

ويستمر الواقدي وغيره فيقولون: فقالوا لقريش: نحن معكم حتى نستأصل محمداً.

أو قالوا: سنكون معكم عليه، حتى نستأصله ومن معه.

قال أبو سفيان: هذا الذي أقدمكم ونزعكم؟.

قالوا: نعم. جئنا لنحالفكم على عداوة محمد وقتاله.

قال أبو سفيان: مرحباً وأهلاً، أحب الناس الينا من أعاننا على عداوة محمد. زاد في نص آخر قوله: «ولكن لا نأمنكم إلا إن سجدتم لآلهتنا، حتى نطمئن إليكم. ففعلوا[١]».

قال النفر: فأخرج خمسين رجلاً من بطون قريش كلها، أنت فيهم، وندخل نحن وأنت بين أستار الكعبة، حتى نلصق اكبادنا بها، ثم نحلف بالله جميعاً: لا يخذل بعضنا بعضاً، ولتكونن كلمتنا واحدة على هذا الرجل، ما بقي منا رجل.

---

(١) ويقال: إن ذلك أيضاً قد كان في مرة سابقة، وذلك حين جاء كعب بن الاشرف ومن معه، يطلبون منهم المسير إلى حرب محمد (ص) والمسلمين. وربما يكون ذلك قد حصل مرة واحدة، لكن الأمر قد اشتبه على الرواة. والله هو العالم بحقيقة الحال.

ففعلوا، فتحالفوا على ذلك، وتعاقدوا.

ثم قالت قريش بعضها لبعض: قد جاءكم رؤساء أهل يثرب، وأهل العلم والكتاب الأول؛ فسلوهم عما نحن عليه ومحمد: أينا أهدى؟!

قالت قريش: نعم.

فقال أبو سفيان: يا معشر اليهود، أنتم أهل الكتاب الأول والعلم، أخبرونا عما أصبحنا فيه نحن ومحمد، ديننا خير أم دين محمد؟! فنحن عمار البيت، وننحر الكوم، (أي الناقة عالية السّنام). ونسقي الحجيج، ونعبد الاصنام.

قالوا: اللهم أنتم أولى بالحق، انكم لتعظمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتنحرون البدن، وتعبدون ما كان عليه آباؤكم، فأنتم أولى بالحق منه. فانزل الله في ذلك:

﴿الم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، يؤمنون بالجبت، والطاغوت، ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾[1].

فاتّعدوا لوقت وقّتوه.

وفي نص آخر: «فلما قالوا ذلك لقريش نشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله (ص) واجمعوا لذلك واتّعدوا له».

فقال صفوان بن أمية: يا معشر قريش، إنكم قد وعدتم هؤلاء القوم لهذا الوقت وفارقوكم عليه، ففوا لهم به! لا يكون هذا كما كان، وعدنا محمداً بدر الصفراء، فلم نف بموعده، واجترأ علينا

---

(١) سورة النساء / ٥١.

بذلك. وقد كنت كارها لميعاد أبي سفيان يومئذٍ.

فخرجت اليهود حتى أتت غطفان [وقيس عيلان]، وأخذت قريش في الجهاز، وسيرت في العرب تدعوهم الى نصرها. وألبوا أحابيشهم ومن تبعهم.

ثم خرجت اليهود حتى جاؤا بني سليم، فوعدوهم يخرجون معهم اذا سارت قريش. ثم ساروا في غطفان، فجعلوا لهم تمر خيبر سنة. وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد، إذا ساروا.

فأنعمت بذلك غطفان، ولم يكن أحد اسرع الى ذلك من عيينة بن حصن.

قال ابن خلدون: وخرج بهم عيينة بن حصن على أشجع[1].

---

(١) المغازي للواقدي ج ١ ص ٤٤١ ـ ٤٤٣. وذُكِرَت هذه النصوص باختصار، أو بتفصيل في المصادر التالية: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٢ و ٥١٣ وعيون الأثرج ٢ ص ٥٥ وحبيب السير ج ١ ص ٣٥٩ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧٨ والثقات ج ١ ص ٢٦٤ و ٢٦٥ والدر المنثور ج ٢ ص ١٧٢ عن ابن اسحاق، وابن جرير. وجامع البيان ج ٥ ص ٨٦ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٥٨ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ واعلام الورى ص ٩٠ وتفسير القرآن الكريم ج ٢ ص ٥١٣، والوفا ص ٦٩٢ وأنساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٣. وراجع: دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٩ و٣٩٨ ففيه نصوص تختلف عن الذي ذكرناه وراجع ص ٤٠٨ و ٤٠٩ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٣ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٣ فما بعدها والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٤ و ٩٥ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨١ و ١٨٢ والبدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٦ و ٢١٧ وتجارب الأمم ج ١ ص ١٤٩ ونهاية الإرب ج ١٧ ص ١٦٦ و ١٦٧ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٧ والعبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٢٩ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٠٩ =

وذكر البعض: أن كنانة بن أبي الحقيق جعل نصف تمر خيبر لغطفان في كل عام[١].

وذكروا أيضاً: أن قريشاً كتبت إلى رجال من بني سليم، بينهم وبينهم أرحام، استمداداً لهم، فأقبل أبو الأعور بمن تبعه من بني سليم مدداً لقريش ثم كتب اليهود الى حلفائهم من بني سعد أن يأتوا الى امدادهم[٢].

وحسب نص البلاذري: «وكان عيينة بن حصن الفزاري أسرع القوم إلى اجابتهم. ثم أتوا بني سليم بن منصور فسألوهم مثل ذلك، فأنجدوهم.

وساروا في جميع العرب ممن حولهم، فنهضوا معهم.

= و٣١٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٨٨ و ١٨٩ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٧٦ ـ ١٨٨ والبحار ج ٢٠ ص ٢١٦ ـ ٢٣٣ و ١٩٧ و٢٥٠ و٢٥١ وشرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٢ و ٢٦٣ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٠ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢١٦ ـ ٢١٨ وحدائق الانوار ج ٢ ص ٥٨٤ باختصار والارشاد للمفيد ص ٥٠ و٥١ وكشف الغمة للأربلي ج ١ ص ٢٠١ و ٢٠٢ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٠.

(١) الاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٥٨. لكن ذكرت مصادر أخرى: أنهم جعلوا لهم ثمر خيبر سنة، فراجع: امتاع الاسماع ج ١ ص ٢١٧ وانساب الأشراف ج ١ ص ٣٤٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٠. وراجع أيضاً: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٣ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠١ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ وراجع: الاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٥٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٨ / ٣٩٩.

فخرجت قريش في من ضوى إليها ولافّها من كنانة وثقيف وغيرهم ولحقتهم أفناء العرب عليها قادتها وكبراؤها»[١].

تجمع القوى:

ويستمر الواقدي فيقول:

وخرجت قريش ومن تبعها من أحابيشها أربعة آلاف.

وعقدوا اللواء في دار الندوة (زاد في بعض المصادر قوله: وحمله عثمان بن أبي طلحة، وقائد القوم أبو سفيان).

وقادوا معهم ثلاث مئة فرس، وكان معهم من الظهر ألف بعير، وخمس مئة بعير.

وأقبلت سليم فلاقوهم بمر الظهران. وبنو سليم يومئذ سبع مئة، يقودهم سفيان بن عبد شمس، حليف حرب بن أمية، وهو أبو أبى الأعور، الذي كان مع معاوية بن أبي سفيان بصفين. لكن عند القمي: أن قائدهم هو عباس بن مرداس. وخرج ايضاً الاقرع بن حابس في قومه.

وخرجت قريش يقودها أبو سفيان بن حرب.

وخرجت بنو أسد، وقائدها طلحة (طليحة ظ) بن خويلد الاسدي.

وخرجت بنو فزارة وأوعبت، وهم الف يقوهم عيينة بن حصن (ونص آخر يقول: خرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن).

---

(١) انساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٣.

وخرجت اشجع وقائدها مسعود بن رخيلة (أو مسعر بن زحيلة أو جبلة) وهم أربع مئة، ولم توعب اشجع [وعند المفيد: ووبرة بن طريف في قومه من اشجع].

وخرج الحارث بن عوف يقود قومه بني مرة، وهم أربع مئة(١).

الأحزاب إلى المدينة:

ووافى الأحزاب المدينة بعد أن فرغ رسول الله (ص) من حفر الخندق(٢) وكان الذين وافوا من قريش، وسليم، وغطفان، واسد

---

(١) المغازي للواقدي ج ١ ص ٤٤٤ وذكر ذلك باختصار أو بتفصيل في المصادر التالية: الاكتفاء ج ٢ ص ١٥٩ اعلام الورى ص ٩٠ وفاء الوفا ج ١ ص ٣٠١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠/ ٤٨١ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٣ و٢٣٤ و٢٣٦ والوفا ص ٦٩٢/٦٩٣ والثقات ج ١ ص ٢٦٥، وعيون الاثر ج ٢ ص ٥٥ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٠ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧٨ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٠/٢٣١ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٧ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٨٩ وراجع: جوامع السيرة النبوية ص ١٤٨. وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٣ و ٢٣٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٢ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٥ وراجع ص ١٠٢ وراجع: المواهب اللدنية ج ١ ص ١١٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١١ والامتاع ج ١ ص ٢١٨ و٢١٩ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٣ و٥١٤ والارشاد للمفيد ص ٥١ وكشف الغمة للاربلي ج ١ ص ٢٠٢ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٧٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢١٧ عنه وص ١٩٧ و ٢٥١ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٠ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٦٧ وعيون الأثر ج٢، ص ٥٦ ومحمد في المدينة ص ٥٤ وراجع: فتح الباري ج ٧ ص ٣٠١ وشرح الأخبار ج ١ ص ٢٩١.

(٢) تاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٦ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣

عشرة آلاف بقيادة أبي سفيان. فنزلت قريش برومة، ووادي العقيق في أحابيشها، ومن ضوى إليها من العرب. ونزلت غطفان بالزغابة إلى جانب أحد.

وجعلت قريش تسرح ركابها في وادي العقيق، في عضاهه. وليس هناك شيء للخيل إلا ما حملوه معهم من علف. وكان علفهم الذرة. وسرحت غطفان ابلها إلى الغابة، في أثلها وطرفائها.

وقدموا في زمان حصد الناس زرعهم قبله بشهر. وأدخلوا حصادهم، واتبانهم. وكانت غطفان ترسل خيلها في أثر الحصاد ـ وكانت خيل غطفان ثلاث مئة ـ فيمسك ذلك من خيلهم لكن ابلهم كادت تهلك من الهزال. وكانت المدينة ليالي قدموا جديبة[1].

ويقول نص آخر: نزلت كنانة برومة، وغطفان بالزغابة إلى نقمى[2].

=ص ٢٦٢ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٣ وحدائق الانوار ج ٢ ص ٥٨٧ وكشف الغمة للاربلي ج ١ ص ١٩٧ وغير ذلك.

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٤. وراجع اجمال او تفصيل ذلك في: الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٠ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠١ والثقات ج ١ ص ٢٦٦ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٢ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٠ و ٢٣١ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٦ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٦ و٢٣٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٧ و ١٩٨ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٢ و١٠٣ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٥ و٥٢٦ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٧٩ و١٨٠ والبحار ج ٢٠ ص ٢٢١ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٨.

(٢) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٥.

وعند البعض: نزلت قريش بمجتمع السيول من رومة، بين الجرف وزغابة. ونزل عيينة ومن معهم من أهل نجد إلى جانب أحد، بباب نعمان (أو ذنب نقمى)(١).

ونص آخر يقول: نزلت قريش بمجتمع السيول من رومة، بين الجرف ورباعة(٢) ولعله تصحيف: زغابة.

أما القمي فقال: نزلت قريش وحلفاءها من كنانة بالعقيق. ونزلت فزارة بالزغابة ونزلت سليم وغيرهم حصن بني ذبيان(٣).

مناقشات وايضاحات:

ولنا فيما تقدم العديد من المناقشات والتحفظات، كما أنه يحتاج إلى بعض الإيضاحات ونحن نذكر فيما يأتي نماذج لكلا هذين الأمرين، فنقول:

تاريخ غزوة الخندق:

لقد اختلف المؤرخون في تاريخ غزوة الخندق. فقالت طائفة منهم: إنها كانت سنة خمس من الهجرة: ذهب إلى ذلك الواقدي،

(١) الاكتفاء للكلاعي ج٢ ص ١٦٢ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٦ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٧ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠١ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٣ وفيه: أنه واد بجانب أحد. وراجع: دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ١٠٩ وفيه: نزلوا بنقمين وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٩.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٣.

(٣) تفسير القمي ج ٣ ص ١٨٠ والبحار ج ٢٠ ص ٢٢١ عنه.

وابـن اسحـاق، والمقـريـزي، والطبـري، وابـن الأثيـر، والبيهقـي، والذهبي، وابن حبيب، وابن الكازروني والمقدسي، وابن القيم، وابن حجر، وابن العماد، والمسعودي. وكذا روي عن عروة، وقتادة وأحمد. وغيرهم كثيرون، كما يتضح من المصادر في الهامش[1].

---

(١) لكي تجد القول بان هذه الغزوة كانت في السنة الخامسة، إما بصورة قول تبناه المؤلف أو يذكره بلفظ قيل: راجع المصادر التالية: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٠/٤٤١ وتاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٢٤ و ٢٤١ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٥٨ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٥ والبدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٧ وصححه، وشذرات الذهب ج ١ ص ١١، ومختصر التاريخ ص ٤٢ والمختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٣٤ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٥ و ٦٤. وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧٨ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٣ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٨٨ و ١٩٥ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٧٦ والبحار ج ٢٠ ص ٢١٦ و ٢٠٨ عنه ونقله في ص ٢٧١ عن اعلام الورى لكن الموجود في اعلام الورى أنها في الرابعة. والمحبر ص ١١٣ ومروج الذهب ج ٢ ص ٢١٩ والثقات ج ١ ص ٢٦٤ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٠ وحبيب السير ج ١ ص ٣٥٩ وشرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٢ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٢ بلفظ: قيل. وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢١٦ والجامع للقيرواني ص ٢٧٩ و ٢٨١ والتنبيه والاشراف ص ١١٥ وأنساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٣ ومجمع البيان ج ٨ ص ٢٠٨ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٦٦ وراجع: فتح الباري ج ٧ ص ٣٠٢ عن ابن اسحاق والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦١ ونسبه إلى الجمهور. وراجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ٩٣ و ٩٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٠ و١٨١ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٧٩ و٤٨٠ عن ابن اسحاق. وفتوح البلدان ج ١ ص ٢٣ وصفة الصفوة ج ١ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٩ والطبقات الكبرى ج ٢ ق ٢ ص ٤٧ وج ٤ ق ١ ص ٦٠ والمصنف للصنعاني ج ٥ ص ٣٦٧ وسيرة مغلطاي ص ٥٦

أما اليعقوبي فيقع في الغلط حيث يقول: إن الخندق كانت «في السنة السادسة، بعد مقدم رسول الله بالمدينة بخمسة وخمسين شهراً»[١].

فان عدد الاشهر المذكور يقتضي أن تكون في السنة الخامسة لا السادسة، كما هو ظاهر.

وثمة فريق آخر يقول: إن هذه الغزوة كانت في السنة الرابعة، وهو ما ذهب إليه مالك، ورواه أحمد في مسنده عنه. وذهب إليه أيضاً: ابن العربي وعياض، وابن حزم، وابن الديبع، والصاحب بن عباد، وابن حبيب، وصححه ابن خلدون، والنووي في الروضة، وقواه البخاري ورواه موسى بن عقبة عن الزهري، وبه قال الفاكهاني، في رياض الأفهام. ويعقوب بن سفيان[٢].

=والعبر لابن خلدون ج ٢ ق ٢ ص ٢٩ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٨ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٠ والرصف ج ١ ص ٦٠ بلفظ قيل وراجع: جوامع السيرة النبوية ص ١٤٨ وتاريخ الاسلام للذهبي والمغازي ص ٢٠٥ وسير اعلام النبلاء ج ١ ص ٢٨٩/ ٢٩٠.

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠ ط صادر.

(٢) راجع المصادر التالية، فانها قد ذكرت هذا القول: عنوان المعارف في ذكر الخلائف ص ١٢ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٨ وقال: الثابت انها في الرابعة بلا شك. والمحبر ص ١١٣ وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢٠ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٢ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٠ واعلام الورى ص ٩٠ وتاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦٠ وشرح صحيح مسلم للنووي بهامش ارشاد الساري ج ٨ ص ٦٤ والعبر لابن خلدون ج ٢ ق ٢ ص ٢٩ و٣٣ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٠ وتاريخ مختصر الدول ص ٩٥ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٠ وتاريخ الاسلام (المغازي) للذهبي ص ٢٠٥ وص =

بل قال ولي الدين العراقي: «المشهور أنها في السنة الرابعة»[١].

ومقتضى هذا القول: أن أبا سفيان قد خرج لبدر الموعد في شعبان ثم عاد وخرج إلى الخندق في شوال السنة الرابعة، كما ذهب إليه البعض[٢] وعند الواقدي أنها كانت في ذي القعدة.

وقد حاول البيهقي الجمع بين هذين القولين، فقال: «قلت: لا اختلاف بينهم في الحقيقة، وذلك لأن رسول الله (ص) قاتل يوم بدر لسنتين ونصف من مقدمة المدينة في شهر رمضان، ثم قاتل يوم أحد من السنة القابلة لسنتين ونصف من مقدمة المدينة في شوال، ثم قاتل يوم الخندق بعد أحد بسنتين على رأس أربع سنين ونصف من مقدمة المدينة.

فمن قال سنة أربع أراد بعد أربع سنين، وقبل بلوغ الخمس، ومن قال: سنة خمس، أراد بعد الدخول في السنة الخامسة،

= ٢٤٤ عن ابن عقبة عن ابن شهاب وعروة عن ابن عقبة والنووي، وشذرات الذهب ج ١ ص ١١ عن النووي، والجامع للقيرواني ص ٢٧٩ و٢٨١ عن مالك، وسيرة مغلطاي ص ٥٦ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٢ وعيون الأثر ج ٢ هامش ص ٥٥ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٣ و ٣٩٥ و٤٠٠ و ٣٩٤ ومجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٤٥ وتهذيب الكمال ج ١٠ ص ٣١ ومناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٧٦ ومرآة الجنان ج ١ ص ٩ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٨ وراجع: امتاع الاسماع ج ١ ص ٢١٦ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦١ وحدائق الأنوار ج ١ ص ٥٢ متناً وهامشاً عن الدرر في اختصار المغازي والسير للقرطبي ص ١٧٩ وذهب إليه العاقولي في الرصف ج ١ ص ٦٠.

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٠.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٦.

وقبل انقضائها[١].

ونقول:

إن الظاهر هو صحة قولهم: إن غزوة الخندق كانت في السنة الرابعة، وفقاً لما اعتادوه من التاريخ، ولا حاجة إلى وجه الجمع الذي ذكره البيهقي ولا لغيره. وذلك لما يلي:

١ ـ لقد قوى البخاري القول بأنها كانت في السنة الرابعة بقول ابن عمر: ان النبي (ص) قد عرضه يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة سنة، فلم يجزه. ثم عرضه يوم الخندق، وهو ابن خمس عشرة سنة، فأجازه.. ومن المعلوم: أن أحداً كانت في سنة ثلاث.

وقد استدل بهذا أيضاً النووي، وابن حزم، وابن خلدون، وغيرهم[٢].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٥.

(٢) راجع: صحيح البخاري ج ٣ ص ٢٠ وج ٢ ص ٦٩ والعبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٢٩ و٣٣ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٨ وراجع: تاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٠٥ و ٢٤٤ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٢ وشرح صحيح مسلم للنووي (مطبوع بهامش إرشاد الساري) ج ٨ ص ٦٤. وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨١ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٤ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ و ٤٨١ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٠ والطبقات الكبير لابن سعد ج ٤ ص ١٠٥ وأنساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٣/ ٣٤٤ باضافة كلمة: «وأشف منها» والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٣.
والمصنف للصنعاني ج ٥ ص ٣١٠ و ٣١١ ومسند احمد بن حنبل ج ٢ ص ١٧ وصحيح مسلم ج ٦ ص ٣٠ وسنن ابن ماجة ج ٢ ص ٨٥٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٩ و ٣١٥ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦١ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٦. والجامع الصحيح للترمذي، كتاب الاحكام، باب ما جاء في حد بلوغ الرجل والمرأة ج ٣ =

وقد احتمل البعض: أن يكون إبن عمر في غزوة أحد أول ما طعن في الرابعة عشرة. وفي الأحزاب كان قد استكمل الخامسة عشرة. وبهذا أجاب البيهقي[١]

ثم أيد البعض هذا الإحتمال بأن أبا سفيان قال للمسلمين، حين انتهت حرب أحد: موعدكم العام المقبل ببدر.

ثم لم يأت إلى بدر في ذلك الموعد؛ بسبب الجدب. وخرج إليها النبي (ص) في شعبان سنة أربع، ورجع، ولم يلق كيدا. وهي الغزوة المسماة ببدر الموعد.

فلم يكونوا ليأتوا إلى المدينة بعد ذلك بشهرين لأجل غزوة الخندق[٢].

ويؤيد ذلك أيضاً: قول البعض: «كانت وقعة الأحزاب بعد أحد بسنتين»[٣].

ص ٦٣٢ و٦٣٣ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٤١ و ٢٤٢ والغدير ج ١٠ ص ٤ عن البخاري، وفتح الباري، وعن عيون الأثر ج ٢ ص ٦ و ٧ وعن تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٩٦.

(١) راجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٩ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٠ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨١ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٩ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦١ وراجع دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ هامش ص ٣٩٥.

(٢) .راجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ٩٣ و ٩٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٠ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٢ والطبقات الكبير لابن سعد ج ٢ ق ١ ص ٤٣ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦١.

(٣) المصنف للصنعاني ج ٥ ص ٣٦٢ و ٣٦٧ انساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٥ والمغازي للذهبي (تاريخ الاسلام) ص ٢٤٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص ١٤٨.

ونقول:

لو صح ما ذكروه لكان الفرق بين احد التي هي في شوال السنة الثالثة، والخندق التي هي في ذي القعدة السنة الخامسة سنتين وشهراً. وهذا يعني: أن ابن عمر كان عمره في الخندق ست عشرة سنة.

فاذا جاز أن يقول: إنه ابن أربع عشرة سنة؛ لأنه كان أول ما طعن فيها، كان عليه أن يقول: إنه كان في الخندق ابن ست عشرة سنة، لأنه كان طعن فيها أيضاً بصورة أوفى. وذلك ليجري الكلام في صدره وذيله على نسق واحد.

ولكان على عمر بن عبد العزيز وعمر بن الخطاب أن يجعلا العطاء لمن بلغ ست عشرة سنة، استناداً إلى قضية ابن عمر المذكورة، فكيف فرضا إلى ابن خمس عشرة سنة استناداً الى ذلك؟![1] وقد صرح ابن حزم بأنه قد صح أنه لم يكن بين أحد والخندق إلا سنة واحدة فقط وأنها قبل دومة الجندل بلا شك[2].

أما قولهم: إنه لا يعقل أن يأتوا المدينة بعد شهرين من بدر الموعد. فجوابه: أن ذلك معقول، إذا كان التعلل من قبل المشركين بالجدب كان جبناً منهم، وهروباً من المواجهة، ثم لما وجدوا الرجال والأموال، وجمعوا عشرة آلاف مقاتل أو أكثر بكثير، فلا شيء يمنعهم

---

(١) المصنف للصنعاني ج ٥ ص ٣١١ وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨١ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٤.
(٢) جوامع السيرة النبوية ص ١٤٨.

عن انتهاز الفرصة، في أي من الظروف والأحوال.

٢ ـ ومما يدل على أن غزوة الخندق كانت سنة أربع: قولهم: إن ابا زيد بن ثابت قد قتل يوم بعاث، وكان عمر زيد حينئذ ست سنين، وكانت بعاث قبل الهجرة بخمس سنين(١)، وكان عمر زيد حين قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة احدى عشرة سنة(٢).

ثم يقولون: إن أول مشاهد زيد الخندق(٣) لأنه (ص) قد أجازه يوم الخندق(٤) وهو ابن خمس عشرة سنة(٥).

ويروى عن زيد قوله: أجازني رسول الله (ص) يوم الخندق،

---

(١) تهذيب الكمال ج ١٠ ص ٢٧ و ٣٠ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٤٢١ وراجع: شذرات الذهب ج ١ ص ٥٤ وتهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٩.

(٢) مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٤٥ عن زيد نفسه، وتهذيب التهذيب ج ٣ ص ٣٩٩ والثقات ج ٣ ص ١٣٦ وصفة الصفوة ج ١ ص ٧٠٤ وسير اعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٢٧/٤٢٨ وتهذيب الكمال ج ١٠ ص ٢٥ و ٢٧ وتهذيب الاسماء ج ١ ص ٢٠٠/٢٠١ والاستيعاب (مطبوع بهامش الاصابة) ج ١ ص ٥٥١ وشذرات الذهب ج ١ ص ٥٤ وتهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٩.

(٣) تهذيب الكمال ج ١٠ ص ٣٠ و ٣١ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٤٢١ وتذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٠ وشذرات الذهب ج ١ ص ٥٤ وتهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٩ وراجع: تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٣٩٩ عن الواقدي.

(٤) تهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٦ ومجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٤٥ وتهذيب الكمال ج ١٠ ص ٣١ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨١ عن الطبراني وص ٢٨٤ عن ابن عساكر.

(٥) تهذيب الكمال ج ١٠ ص ٣٠ و ٣١ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٤٢١ ومجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٤٥.

وكساني قبطية[١].

وعنه: أجزت يوم الخندق. وكانت وقعة بعاث وانا ابن ست سنين[٢].

وعنه: لم أجز في بدر، ولا في أحد، وأجزت في الخندق[٣].

وتوفي زيد سنة ثمان وأربعين، وسنّه تسع وخمسون سنة[٤].

وقال الواقدي: مات سنة خمس وأربعين، وهو ابن ست وخمسين سنة[٥] وكل ذلك يؤيد ما قلناه ويدل عليه.

وأورد بعضهم على كون الخندق في السنة الرابعة بأن من المعلوم: أن غزوة بني قريظة قد كانت في السنة الخامسة، ومعلوم أنها كانت عقيب الخندق[٦].

وأجيب عن ذلك بأن الخندق يمكن أن تكون قد استمرت إلى أواخر الرابعة[٧] لا سيما إذا صح قولهم: إنهم استمروا في حفر الخندق شهراً[٨]، وأن الحصار قد استمر شهراً أيضاً[٩]، مع ملاحظة: أن ابن سعد يقول: إن الخندق قد كانت في شهر ذي القعدة[١٠]. هذا

---

(١) سير اعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٣٢ وفي هامشه عن الطبراني وتهذيب الكمال ج ١٠ ص ٢٩ وتهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٩.

(٢) سير اعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٣٣ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٤٢١ وتهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٩ وتهذيب الكمال ج ١٠ ص ٣٠.

(٣) الاصابة ج ١ ص ٥٦١.

(٤) مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٤٥ وتهذيب الكمال ج ١٠ ص ٣١.

(٥) صفة الصفوة ج ١ ص ٧٠٤ / ٧٠٥.

(٦) راجع: مرآة الجنان ج ١ ص ٩ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٨ و ٢٢٩.

(٧) راجع: مرآة الجنان ج ١ ص ٩ وراجع السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٩.

(٨) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٤ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٤.

(٩) ستأتي الاقوال في ذلك، حينما نتكلم عن مدة حفر الخندق في هذه الغزوة.

(١٠) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٨. وراجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٠.

بالإضافة إلى حصاره (ص) الطويل لبني قريظة حسبما سيأتي.

وبعد ما تقدم نقول: إنه لا حاجة إلى الافاضة في بيان خطأ قول البعض: إن الخندق كانت سنة خمس باتفاق المؤرخين باستثناء ابن خلدون[١].

غزوة الخندق في زمن الحصاد:

وذكرت النصوص الآنفة الذكر: أن الاحزاب قدموا المدينة في زمانٍ حصد الناس زرعهم قبله بشهر. وأدخلوا حصادهم وأتبانهم.

وكانت غطفان ترسل خيلها في أثر الحصاد ـ وكان خيل غطفان ثلاث مئة ـ فيمسك ذلك من خيلهم. لكن إبلهم كادت تهلك من الهزال. وكانت المدينة ليالي قدموا جديبة[٢].

ومن جهةٍ ثانية، فان غزوة بني قريظة كانت بعد الخندق مباشرة، ويذكر الزهري ان ابا لبابة الذي خان الله ورسوله فيها، قد ارتبط في المسجد في حر شديد،[٣] وكان يوماً صائفاً[٤].

ومعنى ذلك هو أن الأحزاب قد قدموا المدينة في اواسط فصل الصيف؛ أو أواخره، لأن الحصاد يكون عادة في أوائل فصل الصيف، لا سيما في بلاد الحجاز المتميزة بشدة الحرّ فيها.

وهـذا يلقي ظلالاً من الشك على ما يزعمونه من أن غزوة الخندق كانت «في أيام شاتية»[٥]. أو «في برد

---

(١) محمد رسول الله (ص)، تأليف محمد رضا ص ٢٢٧.

(٢) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٠ والامتاع ج ١ ص ٢١٩ وسبل الهدى والرشاد وغير ذلك من مصادر تقدمت.

(٣) المغازي للواقدي ج٢ ص ٥٠٧.

(٤) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٥١٤.

(٥) تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦٢.

شديد»[١]. و «في زمن شات، وليال باردة كثيرة الرياح»[٢]. وسيأتي أن عائشة كانت تدفيء رسول الله (ص) وهم يحفرون الخندق، كما يزعمون.

وستأتي سائر النصوص والمصادر لذلك حينما نتكلم أسباب هزيمة الأحزاب وعن حفر الخندق.

إلا أن يقال: إن الحصاد قد يستمر إلى الخريف، فلا مانع من البرد والشتاء حينئذٍ.

هل أخطأ التقويم التطبيقي؟!

وبالمناسبة فان كتاب «التقويم التطبيقي لالف وخمس مئة سنة هجرية قمرية وميلادية»[٣]. قد ذكر أن أول شهر شوال للسنة الرابعة الهجرية يوازي ٦ شهر آذار سنة ٦٢٦ م وأول شهر ذي القعدة يوازي ٤ شهر نيسان وأول ذي الحجة يوازي ٤ أيار.

أما في سنة خمس فان شوال وذا القعدة وذا الحجة توازي ٢٣ شباط حتى ٢٣ أيار.

وهذا التطبيق يخالف ما ذكره المؤرخون في تاريخ غزوة الخندق.

أما بناء على ما ذكره الواقدي فواضح؛ لأننا قدمنا أن مقتضى كلام الواقدي هو أن غزوة الخندق قد حصلت في أواخر الصيف، وأن

---

(١) الجامع للقيرواني ص ٢٨١ وراجع: السيرة النبوية لإبن كثير ج ٣ ص ١٨٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٥ و٩٦ عن البخاري.

(٢) تجارب الأمم ج ٢ ص ١٥٢.

(٣) راجع كتاب: تقويم تطبيقي هزار وبانصدساله هجري قمري وميلادي قسم الجداول ص ١. تأليف: فردينا ندوو ستنفلد، وادوارد ماهلر.

انصراف الاحزاب من الخندق كان في الخريف.

وأما بناء على ما ذكره الآخرون، فان من الواضح: أنهم يذكرون: أن الاحزاب قد انصرفوا في ليلة باردة شاتية، وان انصرافهم كان في اواخر ذي الحجة، أي في أواخر شهر أيار، ومن الواضح: أن الجو في الحجاز، وفي المدينة لا يكون في هذا الوقت بارداً ولا شاتياً فضلاً عما يذكرونه من برد كان يقاسيه رسول الله (ص) وهم يحفرون الخندق ـ كما سيأتي ـ في شوال أو في ذي القعدة. فان الجو في المدينة يكون في هذه الايام في اعدل أحواله. كما هو معلوم، من حال منطقة الحجاز لكل أحد.

مشاركة الحارث بن عوف في الخندق:

قد ذكرت النصوص المتقدمة: أن الحارث بن عوف قد شارك في حرب الخندق. ولكن قد روى الزهري وكذلك بنو مرة خلاف ذلك، فذكروا: أنه لما أجمعت غطفان السير أبى الحارث بن عوف المسير، وقال لقومه:

«تفرقوا في بلادكم، ولا تسيروا إلى محمد؛ فاني أرى أن محمداً أمره ظاهر. لو ناوأه من بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة» فتفرقوا في بلادهم، ولم يحضر واحد منهم[1].

وفي نص آخر: أنه قال لعيينة بن حصن، ولقومه من غطفان: «يا قوم أطيعوني، ودعوا قتال هذا الرجل، وخلوا بينه وبين عدوه من العرب» فغلب عليهم الشيطان، وقطع اعناقهم الطمع، ونفذوا لأمر

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٣ وراجع: الاكتفاء ج ٢ ص ١٥٩.

عيينة على قتال رسول الله (ص)، وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد؛ فأقبل طلحة في من اتبعه من بني أسد الخ[١]. وقال المقريزي والحلبي الشافعي: «وقيل لم تحضر بنو مرة[٢]».

لكن الواقدي يصرّ على أن بني مرة قد شهدوا الخندق، بقيادة الحارث بن عوف، وهجاه حسان شعراً. وذكروا: انه كان بينه وبين النبي جوار. وقال الواقدي: «فكان هذا أثبت عندنا: أنه شهد الخندق في قومه. ولكنه كان أمثل تقية من عيينة[٣]».

وقال الواقدي أيضاً: «لم يحضر الخندق الحارث بن عوف ولا قومه. ويقال: حضرها الحارث بن عوف. قال ابن واقد: وهو اثبت القولين عندنا»[٤].

أبو رافع قتل بعد أحد:

وقد ذكرت بعض النصوص أيضاً أبا رافع اليهودي في جملة من حرض المشركين وحزب الاحزاب في غزوة الخندق[٥].

ونقول:

إن أبا رافع قد قتل كما يقولون في السنة الثالثة في جمادى

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ والاكتفاء ج ٢ ص ١٥٩.
(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١١ والامتاع ج ١ ص ٢١٩.
(٣) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٤.
(٤) المغازي ج ٤ ص ٤٧٧ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٧.
(٥) راجع: جامع البيان ج ٥ ص ٨٦ والدر المنثور ج ٢ وتفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٥١٣.

الآخرة منها[١]، وذلك بعد قتل ابن الأشرف، وقيل بعد أحد، وقيل في السنة الرابعة[٢]. ولكن من الواضح أن ذلك كان قبل وقعة الخندق، التي كانت في أواخر الرابعة، واستمرت حتى الخامسة، هي وغزوة بني قريظة، كما رجحناه، أو كانت في السنة الخامسة.

ولو كان أبو رافع حياً في غزوة الخندق، لكان المناسب أن يذكر مقتله، بعد الخندق، لا بعد أحد، فراجع ولاحظ كلماتهم.

هل كان أبو الأعور في الخندق؟!:

وقد ذكرت بعض النصوص المتقدمة: أن أبا الأعور السلمي كان قائد بني سليم في غزوة الأحزاب ضد المسلمين[٣].

ولكن الظاهر هو صحة ما ذكره الواقدي وغيره، من أن أبا أبي الأعور السلمي هو الذي حضر مع الأحزاب في حرب الخندق[٤]. ويدل على ذلك: قول قيس بن سعد للنعمان بن بشير: انه لم يكن مع معاوية غيره وغير صويحبه مسلمة بن مخلد[٥] كما سيأتي، فلو كان أبو

---

(١) راجع: تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٨٢ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٤٦.

(٢) راجع: الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٤٨ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٨٣.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٧ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٠ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٨٠ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ١٩٧ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٩ والبدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٧ والاكتفاء ج ٢ ص ١٥٩.

(٤) راجع المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٤ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢١٨.

(٥) صفين للمنقري ص ٤٤٩.

الأعور صحابياً لم يصح قول قيس هذا. فيظهر أن الراوي أو الناسخ قد اسقط كلمة (أبا) الأولى، إما اشتباها أو سهواً، او لحاجة في نفسه قضاها.

والذي نخشاه هو أن يكون هذا الإسقاط قد جاء لخدمة هدف سياسي من نوع ما، كأن يكون هو دعوى أن أبا الأعور قد لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورآه، وذلك بهدف الايحاء بصحة دعوى كون أبي الأعور من الصحابة، وذلك تدعيماً لموقف معاوية بتكثير عدد الصحابة معه، وايجاد شبهات حول بغيه على امام زمانه.

ولكن مراجعة كتب الرجال والتراجم توجب المزيد من الشك والريب في هذا الأمر، فقد قال العسقلاني:

« قال ابن أبي حاتم، عن أبيه: أدرك الجاهلية، ولا صحبة له. وحديثه مرسل. وتبعه أبو أحمد العسكري. وذكره البخاري في من اسمه عمر. ولكن لم يذكره في الصحابة.. إلى أن قال: وقال ابن حبان: في ثقات التابعين، يقال له صحبة»(١).

ونقل ابن منظور عن ابن عساكر قوله: «يقال: له صحبة. ويقال: لا صحبة له»(٢).

---

(١) الاصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص ٥٤٠ وج ٤ ص ٩ وراجع: أسد الغابة ج ٤ ص ١٠٩ وج ٥ ص ١٣٨ والاستيعاب (مطبوع بهامش الاصابة ج ٤ ص ١٤).

(٢) مختصر تاريخ دمشق ج ١٩ ص ٢١٨.

توثيق أبي الأعور!!:

والذي يلفت نظرنا هنا هو توثيقهم لأبي الأعور[١]، رغم تصريحهم بأنه كان أشد من عند معاوية على علي عليه السلام. وكان علي عليه السلام يدعو عليه في القنوت في آخرين[٢].

بل لقد قال ابن الأثير: «كان من أعيان أصحاب معاوية، وعليه كان مدار الحرب بصفين»[٣].

فمقام أبي الاعور لدى معاوية وخدماته لعرش الشام وضديته مع علي عليه السلام قد جعل الكثيرين ممن يسيرون في هذا الاتجاه يهتمون بصياغة الفضائل له، لأنها ستكون في نهاية الأمر فضائل لمعاوية نفسه. ولعلهم أرادوا ان يلبسوه ثوب الصحبة لرسول الله (ص) من أجل تكثير الصحابة عند معاوية؛ بهدف ايجاد شبهات حول بغيه على إمام زمانه، كما قلنا.

وقد تعودنا من هذا النوع من الناس محاولات من هذا القبيل، تهدف إلى تقليل عدد الصحابة مع علي عليه السلام، وزيادتهم مع خصومه، حتى ليروون عن الشعبي أنه قال: «من زعم أنه شهد الجمل من أهل بدر إلا أربعة فكذبه. كان علي وعمار في ناحية، وطلحة والزبير في ناحية»[٤].

---

(١) الاصابة ج ٢ ص ٥٤٠ و ٥٤١، ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٦٧.
(٢) راجع: أسد الغابة ج ٥ ص ١٣٨ والاستيعاب (مطبوع بهامش الاصابة) ج ٤ ص ١٤.
(٣) اسد الغابة ج ٤ ص ١٠٩.
(٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٢٨.

ويظهر أن أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه قد التفتوا إلى هذا الأمر ولذلك نجدهم يتحدثون عن حضور الصحابة معهم، ويعطون أرقاماً دقيقة في هذا المجال.

فقد رووا: أن ناساً من قراء أهل الشام لحقوا بعلي عليه السلام، فقال عمرو بن العاص لمعاوية عن علي عليه السلام في جملة كلام له: «وإنه قد سار إليك بأصحاب محمد صلى الله عليه المعدودين، وفرسانهم، وقرائهم، وأشرافهم، وقدمائهم في الاسلام، ولهم في النفوس مهابة الخ..». فجمع معاوية أجناد أهل الشام وخطبهم، فبلغ علياً عليه السلام ذلك، فامر الناس فجمعوا. قال ابو سنان الاسلمي: «وكأني أنظر الى علي متوكئاً على قوسه، وقد جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه عنده، فهم يلونه و[كأنه] أحب أن يعلم الناس: أن أصحاب رسول الله متوافرين عليه، فحمد الله ثم قال الخ[١]».

وقال سعيد بن قيس في خطبة له: «وقد اختصنا الله منه بنعمة فلا نستطيع أداء شكرها، ولا نقدر قدرها: أن أصحاب محمد المصطفين الأخيار معنا، وفي حيزنا. فوالله الذي هو بالعباد بصير: أن لو كان قائدنا حبشياً مجدعاً إلا أن معنا من البدريين سبعين رجلاً لكان ينبغي لنا أن تحسن بصائرنا الخ»[٢]

ويقول الاشتر في صفين: «وانتم مع البدريين، قريب من مائة بدري، ومن سوى ذلك من أصحاب محمد صلى الله عليه»[٣].

---

(١) صفين للمنقري ص ٢٢٢ و٢٢٣.
(٢) صفين ص ٢٣٦.
(٣) صفين ص ٢٣٨.

وقد كان لهم أثر عظيم في الحرب ولا سيما الانصار منهم كما اعترف به معاوية فراجع[١].

وقد قالوا: كان مع علي عليه السلام ثمان مئة رجل ممن بايع النبي (ص) تحت الشجرة.

وعن سعيد بن جبير: كان مع علي رضي الله عنه يومئذٍ ثمان مئة رجل من الأنصار، وتسعمائة ممن بايع تحت الشجرة.

وعن الاعمش: كان معه ثمانون بدريا. وثمان ماءة من أصحاب محمد (ص)[٢].

وقال الزبير بن بكار: شهد صفين مع أمير المؤمنين عليه السلام من أهل بدر سبعة وثمانون رجلاً، منهم سبعة عشر رجلاً من المهاجرين وسبعون من الأنصار. وأما من باقي الصحابة فكان معه الف وثمان مئة، منهم تسعون رجلاً بايعوا رسول الله (ص) تحت الشجرة»[٣].

ويعترف معاوية بأن المهاجرين والأنصار كانوا مع علي عليه السلام، فهو يقول لابن عباس: «فاذكروا علي بن ابي طالب ومحاربته إياي، ومعه المهاجرون والأنصار، الخ..»[٤].

---

(١) صفين ص ٤٤٥ ـ ٤٤٩.
(٢) الفتوح لابن أعثم ج ٢ ص ٤٥٠.
(٣) تذكرة الخواص ص ٨١/٨٢ وراجع: المعيار والموازنة ص ٢٢ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٠٤ والغدير ج ١٠ ص ١٦٣ عن بعض المصادر الأخرى.
(٤) الفتوح لابن أعثم ج ٤ ص ٢٣٩.

وقال قيس بن سعد للنعمان بن بشير: «انظر اين المهاجرون والأنصار والتابعون باحسان، الذين رضي الله عنهم، ثم انظر، هل ترى مع معاوية غيرك وصويحبك الخ[1]». والمراد بصويحبه: مسلمة بن مخلد.

آية سورة النساء متى وفيمن نزلت:

لقد تحدثت النصوص التاريخية المتقدمة عن قوله تعالى: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. أولئك الذين لعنهم الله، ومن يلعن الله؛ فلن تجد له نصيراً. أم لهم نصيب من الملك فاذاً لا يؤتون الناس نقيراً. أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله الخ»[2].

فذكرت أن هذه الآيات قد نزلت في هؤلاء اليهود الذين ذهبوا إلى مكة، وإلى سائر القبائل ليحرضوهم على قتال النبي (ص)؛ فجمعوا الجموع، وحزبوا الأحزاب، فكانت غزوة الخندق.

ونقول:

إننا نشك في أن تكون هذه الآية قد نزلت في هذه المناسبة، وذلك لما يلي:

١ ـ هناك روايات تقول: إن هذه الآية قد نزلت في مناسبة أخرى سبقت غزوة الخندق. وذلك لما ذهب كعب بن الاشرف إلى

---

(١) صفين ص ٤٤٩ وراجع ابتداء من ص ٤٤٥.
(٢) سورة النساء / ٥١ ـ ٥٤.

قريش، يحرضهم على غزو المسلمين، فسألوه عن أن أي الفريقين أهدى، فأجابهم بما يقرب مما سبق، وذكروا أيضاً أنهم طلبوا منه أن يسجد لأصنامهم، ليطمئنوا إلى أنه لا يمكر بهم. ففعل؛ مجاراة لهم.

وظاهر بعض النصوص الأخرى أن هذه الآيات قد نزلت في مكة قبل الهجرة حيث ذكرت نزول سورة الكوثر في هذه المناسبة أيضاً، وهي انما نزلت قبل الهجرة(١) إلا أن يقال: إنها مما تكرر نزوله.

٢ ـ قيل: كان أبو برزة كاهناً في الجاهلية، فتنافس إليه ناس ممن اسلم، فنزلت الآية. عن عكرمة(٢).

---

(١) الدر المنثور ج ٢ ص ١٧١ ـ ١٧٣ عن الطبراني، والبيهقي في الدلائل، عن عكرمة عن ابن عباس. وعن سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن ابي حاتم، عن عكرمة مرسلا. وعن أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس. وعن عبد الرزاق، وابن جرير عن عكرمة. وعن ابن جرير عن مجاهد. وعن عبد بن حميد، وابن جرير عن السدي، عن ابي مالك. وعن البيهقي في الدلائل، وابن عساكر في تاريخه عن جابر عن عبد الله. وعن عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن ابي حاتم عن قتادة والجامع لاحكام القرآن ج ٥ ص ٢٤٩ ومجمع البيان ج ٣ ص ٥٩ والتفسير الكبير ج ١٠ ص ١٢٨ والتبيان ج ٣ ص ٢٢٣ و٢٢٤ و٢٢٥ والبحر المحيط ص ٢٧١ والنهر الماد من البحر (مطبوع بهامش البحر المحيط) ج ٣ ص ٢٧١ والكشاف ط دار الفكر ج ١ ص ٥٣٢ وجامع البيان ج ٥ ص ٨٥ و٨٦ وتفسير القرآن العظيم ج١ ص ٥١٣ وفتح القدير ج ١ ص ٤٧٨ و٤٧٩ وتفسير الخازن ج ١ ص ٣٦٨ ومدارك التنزيل للنسفي (مطبوع بهامش تفسير الخازن) ج ١ ص ٣٦٩.

(٢) مجمع البيان ج ٣ ص ٥٩.

توضيح وتصحيح:

ان القصة التي يحكيها المؤرخون قد فرضت وجود فريقين هما: جماعة اليهود، والمشركون. وقد سأل المشركون اليهود عن الاهدى، هم؟ أم المسلمون؟ فأجابهم اليهود: انتم اولى بالحق. مع ان الآية تفرض الفريقين يتحدثان عن فريق ثالث اشير إليه بقولهم: هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا. أي ان اليهود قالوا للمشركين: هؤلاء أهدى، ولم يقولوا لهم: انتم اهدى. فلا ينطبق مدلول الآية على روايات المؤرخين، سواء راوية كعب بن الاشرف، أو حيي بن اخطب، أو رواية ابي برزة الآنفة الذكر.

إلا أن يقال: في الآية التفات من الخطاب بالضمير إلى الاشارة بكلمة. هؤلاء. والإلتفات موجود في القرآن.

والنكتة المسوّغة لهذا الالتفات هي: أن الله سبحانه قد قال: «ويقولون للذين كفروا» فجاء بصيغة المضارع ليفيد أن هذا النهج في التعامل مستمر في هذا النوع من الناس. وليست القضية قضية مضت وذهبت، قد يكون لها ظروفها ومبرراتها؛ فلا تمثل خطأً مستمراً لهؤلاء الناس.

فلما عبر تعالى عما حدث بصيغة المضارع، فانه لم يعد بالإمكان أن يقول: «أنتم أهدى»؛ لأن الخطاب لما صار فعلياً، فيحتمل فيه أن يكون موجهاً لهؤلاء الناس الذين يسمعون الآية من النبي (ص)، ويخاطبهم (ص) بها، ويحتمل أن يكون خطاباً للكافرين أيضاً.

فهو من قبيل ما لو قلت لرجل: زيد قال لعمرو: أنت رجل فاسق، فكلمة أنت رجل فاسق يحتمل فيها أن تكون موجهة لمخاطبك أنت، ويحتمل أن تكون موجهة لعمرو.

إذن، فلا بد في الآية من التصرف في خطاب أولئك الناس، والاتيان بالمضمون بطريقة تدفع هذا الالتباس. وهكذا كان، فانه تعالى استخرج مضمون كلامهم وهو أن هؤلاء أي الكفار المشركون الذين خاطبهم أهل الكتاب، (وهم غير من يخاطبهم النبي بالقرآن فعلاً)، أهدى من المؤمنين.

فاتضح أن الآية لا تنافي سياق الحدث التاريخي الذي هو مورد البحث.

تحريض اليهود:

لقد رأى اليهود عن كثب كيف أن المسلمين يزدادون قوة، ويزداد الاسلام انتشاراً باستمرار.

ويرون أن نفوذهم كمصدر وحيد للمعارف بدأ ينحسر ويتلاشى وها هو الاسلام ينتقد ما يدعيه اليهود من ذلك ويفنده، ويبين الصحيح من المزيف منه. وهو بذلك يزلزل مكانتهم، ويفقدهم الشيء الذي كانوا ولا يزالون يعتزون ويفتخرون ويتسامون به على الناس.

ويبطل مزعمتهم بأنهم شعب الله المختار، ويرفع شعار: «ان اكرمكم عند الله اتقاكم» ولا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى.

فاحترقت قلوبهم بالغيظ وطفحت بالحقد. وتآمروا على هذا الدين ونقضوا عهودهم التي قطعوها على أنفسهم؛ وجروا على أنفسهم

البلاء والعناء. وكانت واقعة بني قينقاع، ثم واقعة بني النضير.

وهم يريدون أن يأخذوا بثأرهم حسب زعمهم. ولكنهم يدركون عجزهم عن ذلك بأنفسهم؛ فالتجأوا إلى تأليب قريش والعرب الموتورين من الاسلام، والطامعين بتحقيق مكاسب مالية وغيرها من حرب كهذه.

ويقول القاضي النعمان ما ملخصه: إن يهود المنطقة، وهم أهل نعم وأموال، وأصحاب رياسة، قد ازعجهم انتشار الإسلام، لأنهم رأوا أنهم يفقدون هيمنتهم على المنطقة وعلى أهل الشرك الذين يكذبون بالبعث، فجحدوا رسول الله وشككوا الآخرين ما أمكنهم بنبوته. فلما كان من أمر احد ما كان ندموا على عدم المساعدة على حرب محمد، لأنهم رأوا أنها كانت فرصة. ولو أقام المشركون على الحرب لظفروا بالمسلمين فأرسلوا إلى أبي سفيان ووعدوه النصر، فوجد انها فرصة. وطلب منهم أن يعلنوا للناس بتكذيب محمد، لأن الناس يركنون إليهم، لأنهم اهل كتاب.

فمضى وجوههم وساداتهم إلى مكة، وشهدوا للمشركين بأنهم أهدى من محمد سبيلاً، فوثقوا بهم، ومشوا معهم إلى قبائل العرب ليقنعوهم بحرب محمد (ص) واستئصاله، وتعاقدوا على ذلك الخ[1].

الداء الدوي:

قد اتضح مما تقدم: أن اليهود كانوا هم الذين خططوا لحرب الخندق، واتصلوا بقريش وبغطفان، وسائر القبائل، وحرضوهم،

(١) شرح الاخبار ج ١ ص ٢٨٨ ـ ٢٩١.

وشجعوهم، وساعدوهم على التفاهم والإتفاق ثم المبادرة الى غزو النبي محمد، والمسلمين في المدينة وبذلوا لهم من أموالهم ثلث ثمار خيبر أو أكثر من ذلك.

وقد بدا واضحاً من سير الأحداث أن اليهود كانوا أشد حقداً وحنقاً على الاسلام والمسلمين. وأنهم رغم كل الآيات والحقائق التي كانوا يعرفونها ويشاهدونها لم يستطيعوا أن يتفاعلوا مع هذا الدين، ولا تذوقوا طعم الإيمان به. إلا أفراد قليلون منهم وفقهم الله لنيل هذه الكرامة والفوز بهذا الشرف العظيم من أمثال مخيريق الشهيد السعيد رحمة الله تعالى عليه ورضوانه.

ثم إنهم منذ دخل الاسلام إلى المدينة لم تجتمع لهم هم كلمة على حربه، لأنه دخل قوياً عزيزاً بتحالفه مع القبائل ذات النفوذ في المنطقة، ولا سيما الاوس والخزرج. ثم من عقد النبي (ص) تحالفات معهم بين الحين والآخر.

ولم يزل اليهود في موقع الضعف والهوان في قبال عز الاسلام ومنعته، ونفوذه وشوكته. فالتجأوا منذ اللحظة الأولى الى مناوأته بأساليب التآمر والغدر والخيانة، واذكاء الفتن، وإثارة النعرات العرقية وغيرها، وكان هذا هو السبيل الذي اختاروه لأنفسهم، بعد أن صدوا عن سبيل الله، واتخذوا آيات الله هزوا.

أما المشركون فانهم حين يستجيبون لليهود، فانما يستجيبون لانقاذ سمعتهم، واستعادة هيبتهم التي اهتزت وأصيبت بنكسة قوية بسبب تخلفهم عن بدر الموعد. لدواعي حقد دفين يعتمل في نفوس الكثيرين منهم. أو إلى نوازع الطمع والجشع وحب الحصول على شيء من حطام الدنيا كتمر خيبر، لدى كثيرين آخرين، كما ويستجيب

فريق آخر لنداء الشيطان، الذي يزين لهم أعمالهم ويعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، فيصرون على الجحود وعلى الإستكبار والعتو والعلو. وإن ربك لبالمرصاد.

ولكن حين يفرض الايمان والاسلام نفسه عليهم، فانك تجد الأمر لا يصل في صعوبته وتعقيده إلى الدرجة التي نجدها عند اليهود رغم وضوح الأمر لدى اليهود، حتى إنهم ليعرفون هذا النبي كما يعرفون ابناءهم، ويجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وليس الأمر بالنسبة للمشركين كذلك، إلا أنهم يرون المعجزات والكرامات، ويقيم صلى الله عليه وآله وسلم عليهم الحجة، حتى لا يبقى عذر لمعتذر، ولا حيلة لمتطلب حيلة.

هذا، ومن المضحك المبكي هنا: أننا نجد اليهود يريدون أن ينتصروا على محمد والمسلمين بواسطة قريش والقبائل العربية، وقريش تريد أن تحقق هذا الهدف بالذات بالافادة من خيانة اليهود، ومساعدة قبائل غطفان وغيرها.

أما غطفان وغيرها من القبائل العربية فتريد الحصول على المال ولكن بالإعتماد على الجهد القرشي والكيد اليهودي. ولم يكن اهتمامها باستئصال شأفة الاسلام والمسلمين يصل إلى درجة اهتمام قريش واليهود بذلك ـ كما ربما يظهر من بعض المؤلفين.

أهداف الحرب:

أما اهداف الحرب فهي كما يظهر من كلامهم السابق استئصال محمد ومن معه، ولكننا إذا أردنا تحديد ذلك بدقة، فاننا نقول: لقد حدد علي عليه السلام هدف الاحزاب والعرب من الحرب فقال: «إن

قريشاً والعرب تجمعت، وعقدت بينها عقداً وميثاقاً، لا ترجع من وجهها حتى تقتل رسول الله، وتقتلنا معه معاشر بني عبد المطلب»[١].

ونعتقد: أن هذا الكلام هو الأقرب والأنسب فيما يرتبط بتحديد الهدف الأقصى للحرب، فان كلامهم المتقدم في النصوص التي أوردناها، وإن كان ينص على استئصال محمد ومن معه، إلا أن استئصال جميع من مع النبي من الأوس والخزرج، وسائر قبائل العرب لن يكون سهلاً ولا ميسوراً لهم. ولا يمكن لهم أن يقدموا على إذكاء نارٍ قد لا يمكنهم اطفاء لهيبها على مدى أجيال، ولسوف ينالهم منها الشيء الكثير والخطير كما هو معلوم..

أما قتل محمد وبني عبد المطلب، فهو الاسهل والأيسر، وبه يتحقق المطلوب، ولماذا يذهبون إلى أبعد من ذلك؟!

غير أن من الواضح: أن هذا لن يقنع اليهود، لأن هدفهم هو استئصال محمد وجميع من معه. ولعل ذلك يفيدهم في اعادة بسط هيمنتهم ونفوذهم على يثرب وعلى المنطقة.

أما غطفان وسائر القبائل فيهمّها تمر خيبر بالدرجة الأولى، أما استئصال محمد والمسلمين فلا ترى فيه أية سلبية، بل هو أمر محبوب بالنسبة إليه ومطلوب.

الأحقاد هي المحرك:

قد قرأنا فيما سبق: أن اليهود يقولون للمشركين: «جئنا

(١) الخصال ـ باب السبعة ـ ج ٢ ص ٣٦٨ والبحار ج ٢٠ ص ٢٤٤ وشرح الأخبار ج ١ ص ٢٨٧ والاختصاص ص ١٦٦/١٦٧.

لنحالفكم على عداوة محمد وقتاله». فأجابهم أبو سفيان: «مرحباً واهلاً، أحب الناس الينا من أعاننا على عداوة محمد».

والذي نريد أن نلفت النظر إليه هنا، هو أن هؤلاء الناس لم يكلفوا أنفسهم حتى تلطيف عباراتهم، وعقلنة تصريحاتهم. بل أظهروا كل ما يضمرونه من سوء دونما رادع من خلق، أو وازع من عقل أو شرف أو منطق.

فلم يقولوا لأهل مكة مثلاً: إننا جئنا لأجل ان نتدارس الأمور، بموضوعية وانصاف، ثم بحكمة وبمسؤولية، واضعين في حسابنا الحفاظ على المصالح الاجتماعية العامة، وتوفير الأمن والاستقرار للناس، وتجنيبهم مآسي الحروب وسلبياتها على جميع الأصعدة، وفي مختلف الاتجاهات، واعطاء الناس الفرصة لبناء حياتهم بناءً سليماً، ثم الاعداد لمستقبلهم، في ظلال من السلام والأمن، وفراغ البال واطمئنان الخاطر.

كما أنهم قد أخفوا ما يضمرونه من الطموح الى تحقيق مكاسب سياسية، وامتيازات على صعيد النفوذ والهيمنة على المنطقة، أو فيما هو أوسع منها.

ولم يعترفوا أيضاً: أن مصالحهم الدنيوية، وما فيها من اموال وتجارات ومواقع ومناصب، ولذائذ لها دور في اندفاعهم إلى حرب محمد ومن معه، لظنهم أنهم سوف يخسرون الكثير مما يستأثرون به لأنفسهم على حساب غيرهم من الناس المستضعفين والمحرومين.

بل غاية ما صرحوا به هو أن دافعهم ليس إلا الأحقاد والضغائن، والعداوات الباطلة، والبغي والحسد، بلا مبرر ظاهر سوى انهم لا يريدون لهؤلاء الناس أن يقولوا: ربنا الله، وليس الحجارة.

ولا يريدون ان يتخذوا الطواغيت ارباباً من دون الله.

وصدق الله تعالى حيث يقول: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا»[١].

يريدون ليطفئوا نور الله سبحانه:

قد عرفنا: أن اليهود انما قدموا مكة ليتحالفوا ويتعاقدوا مع المشركين على استئصال محمد (ص) ومن معه حسب زعمهم، حيث قالوا لقريش: «نحن معكم حتى نستأصل محمداً» أو «سنكون معكم حتى نستأصله ومن معه».

كما أنهم وهم يقررون ما يتعاقدون عليه، قالوا: «ولتكون كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقي منا رجل».

وذلك يعني:

أ ـ أن هدفهم المعلن هو استئصال شأفة الاسلام والمسلمين.

٢ ـ إنهم مصممون على تحقيق هذا الهدف بأسلوب الحرب حتى آخر رجل منهم.

٣ ـ إن هذه المبادرة منهم قد جاءت عن طريق خيانتهم لعهودهم ومواثيقهم التي كانوا قد ابرموها مع نفس الذي يريدون استئصالهم. مع العلم بأن ذلك الطرف لم يزل وفياً بعهده حافظاً لمواثيقه معهم، ولم يحدث أن خان أو تردد في عهد مع أي فريق منهم. ولم يسيء إليهم ولا إلى غيرهم بشيء إلا ما يجرونه هم على أنفسهم بخياناتهم المتتالية.

---

(١) سورة المائدة الآية ٨٢.

وهم يرتكبون هذه الخيانة رغم أنهم قد رأوا بأم اعينهم عواقب خيانة بني قينقاع، ثم خيانة بني النضير، واكثرهم نضيريون ـ كما تقدم.

٤ ـ إن مبرر هذا الاجرام العظيم والبشع هو مجرد الحسد والحقد منهم. بالاضافة إلى مكاسب سياسية، واجتماعية وغيرها يحلمون بتحقيقها على المدى البعيد من خلال فرض هيمنتهم على المدينة وعلى غيرها بصورة وبأخرى.

فلم يكن الهدف عقيدياً ولا انسانياً ولا اخلاقياً. بل هم قد داسوا بأقدامهم الانسانية والأخلاق وحتى مبادئهم وعقيدتهم التي يدعون أنهم ينتسبون إليها وهذا هو منتهى الاسفاف، وغاية التردي في حمأة الجريمة والبغي.

الايمان والمواثيق لا تجدي:

وبعد، فإن الملفت للنظر هنا: أننا نجد اليهود يفقدون صفة الاخلاقية والمبدئية في مواقفهم، وفي مجمل تحركهم في مواجهة الاسلام والمسلمين. وكذلك نجد المشركين خصوصاً أبا سفيان لا يختلف عن اليهود في ذلك..

فأبو سفيان يحاول أن يخدع قومه في حركته الهادفة إلى دفعهم إلى مواجهة الاسلام، حيث ان اليهود يتصلون به أولاً، ثم يتفق معهم على دعوة الناس إلى استئصال النبي، وحين يطلبون ذلك من الناس علناً يظهر أبو سفيان بمظهر من يسمع هذا الكلام لأول مرة!!

ثم إنهم يصرحون بأنهم جاؤا للتحالف على العداء لمحمد، فلم

يكن هذا المجيء. لمحاولة فهم دعوة هذا الرجل، والتعامل معه ومعها بانصاف وبموضوعية، وتعقل وتدبر كما أسلفنا.

كما أنهم يفضلون الاتصال أولاً بابي سفيان، ولم يكن المبرر لذلك إلا أنهم يعلمون بعداوته لرسول الله، وتسرعه لقتاله، فهم يريدون إذن توظيف حالة الحقد غير المسؤول لدى أبي سفيان، وحالة التسرع اللاواعي عنده لصالح تحقيق الأهداف التي يرمون إلى تحقيقها.

أضف إلى ما تقدم: أنهم لا يتورعون عن ارتكاب جريمة التضليل الإعلامي والتعليمي، ومخالفة قناعاتهم، وحتى أصول دينهم في هذا السبيل، فهم يقررون للمشركين أن الشرك أهدى من التوحيد، وأن دعوى الجاهلية خير من الهدي الإلهي.

هذا كله عدا عن استخدامهم المال أيضاً كوسيلة لتحريك بعض الفئات لحرب محمد (ص) ومن معه.

وإذا صحت الرواية التي تقول: إن أبا سفيان قد طلب من اليهود أن يسجدوا للاصنام لأن قريشاً خافت من مكرهم، فاستجاب اليهود، وسجدوا للأوثان. وكذلك فعل كعب بن الأشرف ومن معه، حين جاؤا في مرة سبقت حرب الخندق لتحريض المشركين على حرب محمد ـ إذا صح ذلك ـ فان الأمر يصبح في غاية الوضوح؛ حيث يكون اليهود قد أسقطوا عن وجوههم جميع الاقنعة، وتجاوزوا كل حد، وكل الارقام القياسية في سحق المثل والقيم، والمبادىء الأخلاقية والانسانية وأثبتوا أنهم وصوليون بكل ما لهذه الكلمة من معنى..

والغريب في الأمر: أننا نجدهم يعتمدون على الايمان والمواثيق

لاحكام أمرهم مع المشركين، وللحصول على الحد الادنى من الاطمئنان والوثوق ببعضهم البعض. رغم أنهم قد مارسوا ـ عملياً ـ أساليب من شأنها أن تنسف كل عوامل الثقة ولو بمستواها الأضعف والأدنى..

وإلا، فهل يمكن أن يكون المشركون قد وثقوا باليهود لمجرد أنهم قد رأوهم يسجدون للأوثان؟!

وهل اعتقد المشركون: أن اليهود قد تركوا يهوديتهم، ودخلوا في الشرك؟!

وإذا كانت الاجابة بالنفي، فما معنى وثوقهم بأيمانهم ومواثيقهم؟! وما معنى اطمينانهم إلى عدم مكرهم بهم، وخديعتهم لهم؟!

أليست نفس استجابتهم لطلب المشركين بالسجود للأوثان دليلاً على أنهم لا عهد، ولا ميثاق. ولا أيمان لهم؟ بل هي دليل على أنهم يخادعونهم ويمكرون بهم، ويريدون استخدامهم فيما يريدون بأية صورة كانت، وبأي ثمن كان؟!

ألم يدرك المشركون: أن وثوقهم باليهود استناداً إلى ذلك معناه أنهم يخدعون أنفسهم؟! ويظهرون للملأ: أنهم على درجة كبيرة من الرعونة والسذاجة؟!

٢ ـ ومما يزيد في ضراوة هذه الشكوك: أننا نجد اليهود، حين سألهم المشركون عن ذلك؛ قد طلبوا من المشركين أن يعرضوا عليهم دينهم ودين محمد، ليحكموا لهم أو عليهم.

فلما عرضوا ذلك عليهم أصدروا حكمهم لصالح دين

المشركين، وأنهم أولى بالحق كما تقدم. والسؤال هنا هو هل صحيح ان اليهود كانوا لا يعرفون دين المشركين. الذين يعيشون بينهم، ويتعاملون معهم منذ عشرات السنين؟!

وهل كان المشركون أعرف بأمر محمد (ص) وبدعوته، من اليهود، وهو يعيش بين ظهرانيهم، وقد عقدوا معه التحالفات، وخاضوا معه الحروب، ولم يزل يدعوهم إلى دينه ويحتج عليهم، وقد جاؤا ليحرضوا الناس على حربه واستئصاله؟!

٣ ـ والاغرب من ذلك أن يخطر ببال أحد من المشركين وغيرهم: أن يجيب اليهود، الذي جاؤا للتحريض على استئصال محمد، بغير ما أجابوا به!!

٤ ـ والأعجب من ذلك: أن يعتبر الشرك ديناً يصلح للمقارنة مع ما جاء به النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله تعالى.

تمر خيبر:

بقي أن نشير أخيراً إلى هذا السخاء الذي تجلى في اليهود حتى جعلوا تمر خيبر سنة، أو نصفه كل سنة لغطفان لتوافق على المشاركة في الحرب ضد الاسلام.

ولا ندري ما هو الدافع لهم للاقدام على هذه الخطوة فهل كان هذا يستبطن غدراً ونقضاً كما هو معروف عن اليهود أي انهم بعد ان يتخلصوا من عدوهم الاقوى والأخطر بنظرهم يرفضون الوفاء بما تعهدوا به لغطفان.

وهل فكرت غطفان في هذا الأمر بصورة جدية وواقعية؟!

وما هو المبرر لهذه العداوة الراسخة من اليهود للاسلام ولنبي الاسلام؟!

وكيف نفسر هذا السخاء الذي لا نظير له من قوم لم نعرف عنهم إلا المزيد من الحرص على المال وعلى الدنيا، وإلا الشح المزري، والبخل المشين؟!

هذا السخاء قد جاء من أجل استئصال أناس لم يروا منهم إلا الوفاء والصدق، والنبل، والالتزام بالقيم الانسانية والمثل العليا!!

إن التفسير الوحيد المعقول لذلك هو أنهم يشعرون أن الاسلام يمثل خطراً يتهدد دنياهم وامتيازاتهم، وهو يتناقض بصورة عميقة وأساسية مع ما يفكرون به، ويخططون له من استغلالٍ لثروات البلاد، واذلال واستعباد للعباد.

فلماذا إذن، لا يضحون ببعض المال من أجل إزاحة هذا الكابوس الجاثم على صدورهم، فاذا تمكنوا من ذلك، فانهم سوف يستقبلون الدنيا العريضة بكل ما لديهم من خطط ماكرة، وأساليب شيطانية، تجعلهم يتحكمون بكل مقدرات الأمم، ويهيمنون على كل نبضات الحياة فيها.

تأثير المال في تحزيب الأحزاب:

وإن من الواضح: أنه لم يكن لقوى الكفر قيادة موحدة، ترسم الخطة، ثم تتخذ القرار، ثم تعمل على تنفيذه. بل كانت لهم قيادات متعددة ومختلفة، وذلك من شأنه أن يضعف أمرهم، ويوهن وحدتهم، مع وجود فرص تساعد على القاء الخلاف فيما بينهم،

وإذكاء روح التنافس، واشاعة روح التشكيك ببعضهم البعض كما حصل لبني قريظة.

كما أن من البديهي: أنه لم يكن بامكان كل قبيلة أن تستقل بعداوة محمد وقتاله. وكانت كل قبيلة تخشى من مواجهة المؤمنين وحدها. فكان لا بد من تفاهم القبائل فيما بينها لتحصيل اجماع على الاجتماع على قتال محمد وصحبه. فبادر اليهود إلى العمل لتحصيل هذا الإجماع، على أمل أن يحسموا الأمر لصالحهم، ويكونون بذلك قد ثأروا لانفسهم، وتصبح ـ من ثم ـ لهم هم الكلمة الأولى والأخيرة في المدينة على الأقل، ويكون لهم النفوذ والتأثير القوي في المنطقة بأسرها. . ثم إنه قد كان من جملة العوامل التي ساعدت على تجييش الجيوش وتحزيب الأحزاب، هو الوعود المالية السخية للناس، إذا نفروا لحرب المسلمين. حتى لقد رفض بنو مرة نصيحة الحارث بن عوف، إذ قد «غلب عليهم الشيطان، وقطع اعناقهم الطمع»[1].

الإرهاب الفكري والخداع للسذج

وقد اظهر النص المتقدم أن قريشاً ـ والظاهر أن المقصود هو الزعماء منها ـ أرادت خداع السذج والبسطاء من الناس بالاستفادة من حالة الانبهار بأهل الكتاب، التي كانت لدى عامة الناس في المنطقة العربية، التي كانت حين ظهور الاسلام تعاني من الجهل الذريع، الذي مكن لشياطين أهل الكتاب أن يصوروا لهم: أنهم هم مصدر العلوم والمعارف، وهم المرجع والموئل والمفزع للناس فيما يهمهم من أمور الدين، والمعارف الدينية.

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠.

واستطاع أهل الكتاب أن يمسكوا بعواطف الناس، البسطاء والسذج والجهلة باستخدام طريقة التهويل والاحالة على الغيب الذي يضعف أقوى الناس أمامه اذا كان يلامس مصيره ومستقبله بصورة أو بأخرى.

والملفت هنا: أن يستغل زعماء قريش هذه الفرصة للاستفادة من هذا الانبهار من أجل سوق الناس بالاتجاه الذي يريدون، ويرون أنه يحقق لهم مآربهم، ويوصلهم إلى أهدافهم الشريرة.

فيطلبون من الناس: أن يسألوا اليهود عن الأهدى من الفريقين: أهم بشركهم وضلالاتهم؟ أم محمد (ص) وما جاء به من عند ربه من الهدى؟ ويأخذ أبو سفيان هنا زمام المبادرة ليلقي سؤاله بطريقة فنية وذكية، حينما ضمّن كلامه خليطاً من الأمور التي ترضي آنئذ غرور الانسان العربي والقرشي على وجه الخصوص ، بملاحظة طبيعة حياته، وعاداته وموقعه، ككونهم ينحرون الجزور الكوماء، ويسقون الحجيج، وكونهم عمار البيت، ثم هم يعبدون الاوثان.

فيفهم اليهود ما يرمي إليه ويناغمونه الكيد والتزوير. ويحكمون لهم بأنهم اولى بالحق من محمد بالاستناد إلى نفس ما أراد ابو سفيان ان يستندوا إليه والقى إليهم به.

الحارث بن عوف ينصح قومه:

ويستوقفنا هنا ما قاله الحارث بن عوف لقومه، وهو ينهاهم عن المسير إلى حرب محمد (ص)، فانها نصيحة مهمة تعبر عن إدراك حقيقي لما يجري، ثم هو يقيّم الواقع بصورة متوازنة، وعاقلة؛ حيث

عبر لهم عن اعتقاده أن أمر الاسلام ظاهر وغالب، ولو ناوأه ما بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة.

ونعتقد: أنه قد ادرك هذا الأمر بحسن تقديره للأمور، وهو يراقب ما يطرحه هذا الدين للناس من مفاهيم وتشريعات، وما يمارسه من تدابير وسياسات تنسجم مع أحكام العقل والفطرة السليمة، ومع الخلق السامي والنبيل. ثم هو يرى الواقع السياسي، وكل التحولات التي تستجد على المنطقة بصورة مطردة ومستمرة، ويرى أن هذا الدين لا يزال ينتشر، ويتجذر، ويترسخ، وتتنامى هيبته وتتأكد هيمنته، رغم كل الكيد الذي يواجهه به أعداؤه، وكل الحقد الذي يعامله به مناوؤوه.

عقدة بدر الموعد:

وإن الماح صفوان بن أمية إلى ما جرى في بدر الموعد، ليدل دلالة واضحة على أن المسلمين قد سجلوا فيها نصراً مؤزراً للاسلام وهزيمة روحية وسياسية ساحقة لكبرياء الكفر والشرك ليس في مكة وحسب، وإنما في المنطقة بأسرها. ولكن من دون أن يكلف ذلك المسلمين أية تضحيات، بل هم قد ربحوا في تجاراتهم في سوق بدر، حسبما تقدم بيانه.

عيينة بن حصن والمعاني الانسانية:

ربما يفهم من كلام البعض: أن الحارث بن عوف كان يرتبط مع النبي (ص) بجوار، لكنه اعتبره أحسن تقية من عيينة بن حصن.

ولعل السر في ذلك هو: أن الحارث، وإن كان قد نقض الجوار، الذي قد يقال: إنه يعني الالتزام بعدم الإعتداء، حفظاً للجوار، مع أن البعض كالزهري، وبني مرة ينكرون أن يكون الحارث قد فعل ذلك، ويصرون على أنه لم يحضر حرب الخندق.

إلا أن عيينة قد زاد على ما فعله الحارث: أنه لم يحفظ الجميل، بل جازى الإحسان إليه بالإساءة، ولكنها اساءة جاءت على درجة كبيرة من القبح، لأنها تضمنت خروجاً على كل الأعراف، والقيم، وحتى اعراف الجاهلية. فقد تقدم ان النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان قد سمح لعيينة، حينما أجدبت أرضه: أن يرعى في منطقة نفوذ وسيطرة وحاكمية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لينقذهم من الخطر الذي يتهددهم، ويساعدهم على التغلب على المشكلة الحياتية التي يعانون منها، رغم أنهم كانوا يختلفون معه (ص)، من جهة أنهم كانوا على شركهم وضلالهم. ففعل (ص) ذلك من دون أي مقابل، ودون أن يسجل لنفسه أي امتياز.

وقد عرف عن العرب أنهم يعتزون ببعض المعاني التي يرون فيها شيئاً من القيمة، مثل: حسن الجوار، وحفظ الجوار، والوفاء بالعهد، ومقابلة الاحسان بمثله. ويعتبرون ذلك هو الرصيد الذي يؤهلهم لاحتلال مواقع اجتماعية متميزة، حتى إذا ما تبين لهم أن أحداً لا يملك شيئاً من هذا الرصيد، فانه يبوء بذل العمر، وعار الدهر، وهو عندهم ساقط ومرذول، أو هكذا زعموا.

ولكن الامور عند هؤلاء الناس قد انعكست الآن، حيث أصبح العداء للاسلام ولنبي الاسلام هو العمل الصالح عندهم الذي يبيح لهم كل محرم، وتتهاوى وتسقط معه كل قيمهم ومثلهم، التي يعتزون بها،

ويعطون الاوسمة والامتيازات من خلالها وعلى أساسها.

فنقض العهود، وخفر الجوار، والاساءة لمن أحسن، وكل خزي وعار لم يعد مهماً عندهم إذا كان ذلك في قبال محمد (ص) وضد الاسلام والمسلمين. بل إن هذه المخازي قد أصبحت أوسمة لهم، ومن دواعي تأكيد شخصيتهم، وبسط هيمنتهم بزعمهم.

وإلا، فكيف نفسر احتفاظ عيينة بن حصن، وكثيرين من امثاله بمواقعهم الإجتماعية، وهم قد اثبتوا أكثر من مرة أنهم لا يملكون شيئاً من هذه المعاني التي قبلها العرب، وتبنوها، وتغنوا وافتخروا بها.

وقبل أن نخلص إلى نهاية القول: نقول: إن من الطبيعي للإنسان الذي يحتفظ بميزاته وخصائصه الانسانية ان يشعر بالامتنان تجاه من يحسن إليه، ويشعر بالاحترام والتقدير تجاه من يحسن جواره وكذلك تجاه من يتعامل معه بطريقة أخلاقية وانسانية، حتى ولو كان يختلف معه في الرأي، وفي العقيدة والدين.

فإذا أراد أن يكون له موقف يختلف عن هذا، فلا بد أن يتناقض أولاً مع نفسه، ويقوم صراع حادّ مع تلك الخصائص النبيلة، ولن يكون قادراً على اتخاذ ذلك الموقف إلا بعد أن يتم التغلب عليها وقهرها.

وتختلف صعوبة اتخاذ القرار، والموقف هذا باختلاف درجات البشاعة والشّين فيه، إلا إذا فرض: أن تلك المعاني الانسانية قد تناهى بها الضعف، بسبب ممارسات سابقة، حتى بلغت درجةً فقدت معها تأثيرها وفاعليتها. وأصبح الانسان بذلك على درجة كبيرة من الصلف واللامبالات، والوقاحة، وتحول إلى مجرم محترف، لا يبالي أي شيء يرتكب ويقترف، كما كان الحال بالنسبة لعيينة بن حصن، الذي

هو موضع البحث.

وأخيراً، فان عيينة بن حصن هذا هو الذي يروى أن النبي وصفه بالاحمق المطاع، وكان من المؤلفة قلوبهم، وقد ارتد عن الاسلام بعد ذلك، وقاتل تحت قيادة طليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة. فلتراجع ترجمته في كتب الرجال والتراجم.

شك المشركين:

والملفت للنظر هنا: أننا نجد المشركين يشكون في صحة ما هم عليه، كما أن طلب أبي سفيان من اليهود تصديق ما هم عليه يشير الى طغيان هذه الشكوك إلى درجة كبيرة حتى احتاجوا الى تسكينها وطمأنة الناس وتثبيتهم.

الفصل الثاني:

الخندق في خطة الحرب والدفاع



المفاجأة

١ ـ إن معرفة الانسان بعدوه تجعله أقدر على التعاطي معه من موقع القوة والحزم، من خلال ما تهيء له تلك المعرفة من قدرة على رسم الخطة السليمة، ثم التنفيذ الدقيق والواعي.

ولا تقتصر هذه المعرفة المؤثرة على معرفة عناصر الضعف والقوة في العدة وفي العدد، وسائر النواحي العسكرية، والامتيازات الحربية. بل تتعداها إلى الإشراف على خصائص شخصية العدو، والمعرفة بطبائعه، واخلاقياته، ومبادئه ومفاهيمه، وعاداته وتقاليده، ومستواه الفكري والعلمي، وما إلى ذلك، مما له دور وتأثير في اتخاذ القرار العسكري، أو تسجيل الموقف على الصعيد السياسي، أو التعامل في مجال السلوك. وهكذا على كافة الصعد. ثم انعكاسات ذلك كله على التحرك باتجاه حشد الطاقات، ورسم الخطط، والاعداد والاستعداد للمواجهة والتصدي.

فإن التعامل مع العدو الذي يلتزم بالعهود والمواثيق، يختلف عنه مع من عرف أن من طبيعته الغدر، وعدم الوفاء. كما أن التعامل مع من يلتزم بعهده لدوافع دينية وعقيدية ومبدئية يختلف عن التعامل مع من يلتزم بذلك لدوافع أخرى... وهكذا الحال في سائر النواحي ومختلف المواضع والمواقع.

٢ ـ ونبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان يعرف تماماً حقيقة ما يفكر به المشركون، واليهود والمنافقون، وسائر القوى التي تحيط به. ثم هو يعرف طبيعة تركيبتهم السياسية، والاجتماعية، وواقعهم الثقافي والاقتصادي. ثم هو يعرف نهجهم، وأساليبهم، وطموحاتهم وطريقتهم في الحياة.

وقد اثبتت له التجربة الحسية في اكثر من موضع وموقع ما ينطوون عليه من غدر وخيانة، ومن روح أنانية تآمرية حاقدة وشريرة، وغير ذلك من أوضاع وحالات.

وهذا الواقع العدائي، والروح التآمرية، وتلك الاعمال الخيانية، التي كانت تهيمن على أعداء الله والانسانية، قد فرضت على النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين أن يعيشوا حالة الحذر القصوى، فكان أن بث رسول الله (ص) عيونه وارصاده في طول البلاد وعرضها في الجزيرة العربية، هذا بالإضافة إلى ما كان يلمسه (ص) من التسديد بالوحي والالطاف الالهية به (ص) وبالمسلمين في الفترات الحرجة، والخطيرة.

وهذا ما يفسر لنا ما نشهده من معرفة النبي التامة بواقع ما يجري حوله، فلم يكن ليفاجئه أمر داهم، بل كان هو الذي يفاجىء أعداءه ويباغتهم. إما بسبقه لتوجيه الضربة الأولى لهم، وإما بمواجهتهم بالخطة التي تبطل كيدهم، وتفشل مؤامراتهم، ومكرهم السيء، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

وهذا بالذات هو ما حصل في حرب الخندق، حيث فاجأ المشركين بحفر الخندق حول المدينة، وتحصين سائرها، الأمر الذي احبط خطتهم، وتسبب لهم بالفشل الذريع، والخيبة القاتلة والمريرة.

٣ ـ أما معرفة اعداء النبي بالنبي (ص) فهي تختلف في مضمونها، وفي آثارها ونتائجها عن معرفته بهم؛ فانهم وإن كانوا يعرفون نبوته وصدقه وامانته، ولا يشكون في حقانية ما جاء به.

إلا أنهم يجهلون الكثير الكثير من آثار الاسلام، والايمان، ولا يعرفون الكثير عما يحدثه الالتزام بتعاليمه وشرائعه من تغييرات عميقة في فكر وروح الانسان وفي شخصيته، وفي كل وجوده.

نعم، إنهم يعرفون صدق هذا النبي، وصحة نبوته، وحقانية ما جاء به، إلى درجة أن اليهود يعرفونه كما يعرفون ابناءهم، ويجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل.

أما المشركون، فقد عاش النبي (ص)، بينهم، وعرفوه طفلاً ويافعاً، وشاباً ومكتهلا، وهم الذين سموه بالصادق الأمين. ورأوا منه الكثير من المعجزات والكرامات والخوارق. وعاينوا وسمعوا منه من الحجج ما يقطع كل عذر، ويزيل كل شبهة وريب، حتى لم يعد أمامهم إلا البخوع والتسليم، أو الاستكبار والجحود على علم، فالزموا أنفسهم بالخيار الثاني؛ كما حكاه الله تعالى عنهم:

«وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا».

فكان من نتيجة ذلك: أن أصبح محض الحق، يواجه محض الكفر والجحود وظهر بذلك صحة قوله (ص) حين برز علي عليه السلام لعمرو بن عبد ود الذي وضع المشركون فيه كل آمالهم: «برز الايمان كله إلى الشرك كله».

ولا عجب بعد هذا إذا تعاون أهل الشرك والأوثان، مع اليهود مدعي التوحيد. بل لا عجب إذا رأينا هؤلاء اليهود، الذين يدعون

أنهم يعبدون الله يشهدون لأهل الأوثان بأنهم أهدى من أهل التوحيد، رغم أن ذلك يستبطن اعترافاً من اليهود ببطلان دينهم وعقيدتهم!!

وبعدما تقدم، فاننا نستطيع أن نتفهم بعمق السبب في أن هذه الحرب فيما بين المسلمين وأعدائهم لا بد أن تكون مريرة وقاسية، وتتميز بالشمولية والإتساع، والعمق. ثم برسوخ آثارها على كل صعيد. ما دام أن اعداء الاسلام يرون ضرورة أن تستنفد جميع الطاقات المتوفرة لديهم للهدم وللإستئصال، والابادة الشاملة، فان الهدف هو استئصال محمد ومن معه. ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

المشورة، والتخطيط:

ويقول المؤرخون: إنه لما فصلت قريش من مكة إلى المدينة خرج ركب من خزاعة إلى النبي فساروا من مكة إلى المدينة أربعاً فأخبروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالأمر. فذلك حين ندب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس، وأخبرهم الخبر. وشاورهم في أمرهم، وأمرهم بالجد والجهاد، ووعدهم النصر، إن هم صبروا واتقوا، وأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله.

وشاورهم (ص) ـ وكان يكثر من مشاورتهم في الحرب ـ فقال: أنبرز لهم من المدينة؟ أم نكون فيها ونخندقها علينا؟ أم نكون قريباً ونجعل ظهورنا إلى الجبل؟!

فاختلفوا.

[زاد المقريزي قوله: وكان سلمان الفارسي يرى رسول الله (ص)

يهم بالمقام بالمدينة[1]، ويريد أن يتركهم حتى يردوا ثم يحاربهم على المدينة وفي طرقها فاشار بالخندق].

فقال سلمان: يا رسول الله! إنا إذكنا بأرض فارس، وتخوفنا الخيل خندقنا علينا؛ فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟!

فاعجب رأي سلمان المسلمين. وأحبوا الثبات في المدينة.

فركب رسول الله (ص) فرساً له، ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين، والانصار؛ فارتاد موضعاً ينزله؛ فكان أعجب المنازل إليه: أن يجعل سلعاً ـ جبل معروف بسوق المدينة ـ خلف ظهره، ويخندق على المذاد، إلى ذباب، إلى راتج.

فعمل يومئذ الخندق.

وندب الناس، وخبرهم بدنو عدوهم، وعسكرهم الى سفح سلع[2].

واختصر ذلك المفيد وابن شهر اشوب، فقال: «فلما سمع النبي (ص) باجتماعهم استشار أصحابه، فاجتمعوا على المقام بالمدينة، وحربهم على انقابها»[3].

ولنا مع هذا الذي يذكره المؤرخون وقفات، وهي التالية:

---

(١) لا ندري من أين فهموا: أنه كان يرى ذلك، ولو كان حقاً يرى ذلك فلا ندري من أين فهموا أن رسول الله كان يهم بالمقام في المدينة.

(٢) راجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٤ و٤٤٥ والامتاع ج ١ ص ٢١٩ و٢٢١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١١ والمح الى ذلك في: الثقات ج ١ ص ٢٦٥ و٢٦٦ وراجع سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٤ و ٥١٥.

(٣) مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٧ والارشاد ص ٥١ وكشف الغمة للاربلي ج ١ ص ٢٠٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٥١.

من أخبر النبي (ص) بمسير الأحزاب:

قد تقدم أن ركباً من خزاعة قدم إلى المدينة في مدة أربعة أيام؛ فأخبروا النبي (ص) بمسير الأحزاب اليه.

ولكننا نجد نصاً آخر عن علي عليه السلام يقول: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد علم بذلك من جهة جبرئيل عليه السلام «فخندق على نفسه ومن معه»[1].

ولا نستبعد أن يكون كلا الأمرين قد حصل.

وقد ذكرنا فيما سبق أن خزاعة كانت ترتبط مع الهاشميين بحلف عقده معها عبد المطلب رحمه الله، وقد بقيت وفية لهذا الحلف، وكانت عيبة نصح لرسول الله (ص).

وقد أشرنا فيما سبق الى أنها قد دفعت ثمن هذا الوفاء غالياً فيما بعد وفاة رسول الله الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم. فجزى الله أنصار الله، وأنصار رسوله خير جزاء وأوفاه. إنه ولي قدير، وبالاجابة حري وجدير.

من المشير بحفر الخندق؟!

إن السياق المذكور آنفاً يدل على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي بادر إلى اقتراح حفر الخندق، ثم لما اختلف المسلمون تكلم سلمان الفارسي رحمه الله بطريقة بين لهم فيها وجه

(١) الخصال ـ باب السبعة ج ٢ ص ٢٦٨ والبحار ج٢٠ ص ٢٤٤ عنه.

الحكمة في اعتماد اجراءٍ كهذا، فاعجبهم ذلك حينئذٍ، فقبلوه، واجتمعت كلمتهم عليه.

ولكن كلمات كثير من المؤرخين قد أظهرت أن سلمان هو المشير بحفر الخندق(١). من دون أن تشير الى أي تحفظ في ذلك.

وهذا هو ما استنتجه بعض المشركين حين فوجئوا بالخندق(٢).

بل قال مسكويه: «فأشار سلمان على رسول الله صلى الله عليه

---

(١) راجع: وفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٠ وج ٤ ص ١٢٠٦ والثقات ج ١ ص ٢٦٦ والتنبيه والاشراف ص ٢١٦ وسيرة مغلطاي ص ٥٦ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧٨ والوفا ص ٦٩٣ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١ و ٤٧٩ والروض الأنف ج ٣ ص ٢٧٦ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٨ ص ٣٥ وانساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٣ ومناقب آل ابي طالب ج ٣ ص ١٣٤ و ج١ ص١٩٨ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٤ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠١ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢٥١ و٢١٨ و١٩٧ وج ٤١ ص ٨. ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٠ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٦٨ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٧٧ واعلام الورى ط دار المعرفة ص ٩٩ والخرايج والجرايح ج ١ ص ١٥٢ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٣ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١١ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٤ وحدائق الانوار ج ٢ ص ٥١٥ والارشاد للمفيد ص ٥١ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٧ ومختصر التاريخ ص ٤٣ وحبيب السير ج ١ ص ٣٥٩ وسعد السعود ص ١٣٨.

(٢) راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٠ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٨٢ وبحار الانوار ج ٢٠ ص ٢٢٤ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٠ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٧٣ وراجع: الإرشاد للمفيد ص ٥٢ وكشف الغمة للاربلي ج ١ ص ٢٠٢ واعلام الورى ط دار المعرفة ص ١٠٠ وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥. وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥ وراجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤.

لما رآه يهمّ بالمقام بالمدينة، ويدبر أن يتركهم حتى يردوا، ثم يحاربهم على المدينة وفي طرقها: أن يخندق. ففعل ذلك»[١].

لكن مؤرخين آخرين قد عبروا عن شكهم في هذا الأمر، فقال بعضهم: «استشار النبي (ص) سلمان ـ فيما يزعمون ـ بأمر الخندق»[٢].

وقال آخرون: «فحفر الخندق. قيل: أشار به سلمان»[٣].

وفي مقابل ذلك نجد ابن اسحاق وكذا غيره ينسب حفر الخندق الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يشير الى مشورة سلمان، ولا من قريب ولا من بعيد[٤].

بل ان النبي (ص) قد كتب في رسالته الجوابية لابي سفيان: «وأما قولك من علمنا الذي صنعنا من الخندق، فان الله الهمني ذلك[٥]».

---

(١) تجارب الأمم ج ١ ص ١٤٩.

(٢) البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٧ وراجع: اعلام الورى ص ٩٠.

(٣) راجع: تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦٠ والعبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ قسم ٢ ص ٢٩ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٥ والمختصر في أخبار البشر ج ` ص ١٣٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٢/١٨٣ وراجع قول ابن هشام في السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٣٥ وراجع: جوامع السيرة النبوية ص ١٥٠.

(٤) راجع: السيرة النبوية، لابن هشام ج ٣ ص ٢٢٦ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٨ وعيون الاثر ج ٢ ص ٥٥. وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٨٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٩ عن ابن عقبة وص ٤٠٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٢ وتاريخ الاسلام للذهبي المغازي ص ٢٣٤ وشرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٢.

(٥) الامتاع ج ١ ص ٢٤٠ وخاتم النبيين ج ٢ ص ٩٤٢.

وكل ذلك يجعلنا نميل الى أن كلام الواقدي قد جاء اكثر دقة في هذا المجال. وهو يفسر لنا السر في كلام ابن اسحاق من جهة، وكلام غيره المقابل له من جهة أخرى...

أما أولئك الذين ظهر منهم التردد في ذلك فلعلهم لم يقفوا على كلام الواقدي. ولم يتمكنوا من الجمع بين كلام ابن اسحاق وهو الحجة الثبت في السيرة، وبين كلام غيره.

وعي سلمان:

ولا نخفي هنا اعجابنا بهذا الوعي من سلمان المحمدي، حيث بادر في الوقت المناسب إلى تقديم تبرير لأولئك الناس الذين اختلفوا على رسول الله صلى الله عليه وآله، يتوافق مع طريقة تفكيرهم، حيث قرر لهم: أن الخندق المقترح من شأنه أن يحدّ من فاعلية الخيل في الحرب، ويدفع غائلتها، ويصبح الجهد الشخصي للافراد هو الذي يقرر مصير الحرب ونتائجها.

فكان أن استجاب المسلمون لاقتراح حفر الخندق، وأعلنوا موافقتهم عليه، وتحملوا مسؤولية الخيار والإختيار، وهذا بالذات هو ما أراده الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

لو كان الخندق باشارة سلمان:

وقد رأينا: أن عدداً من المؤرخين قد زعم أن الخندق قد حفر باشارة سلمان، وإن كنا نرجح: أن النبي (ص) هو الذي بادر الى اقتراحه فاختلف المسلمون، فكان دور سلمان ان بين لهم وجه

الحكمة في ذلك، حسبما تقدم بيانه عن الواقدي. .

ومهما يكن من أمر؛ فقد ظهر أن المشركين قد فوجئوا بالخندق وقالوا عنه: إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها[1] ولعل الانظار قد اتجهت الى سلمان الفارسي منذئذ. .

وسواء أكان ذلك بمشورة سلمان أم لم يكن فان ما نريد أن نؤكد عليه هو أن الإسلام لا يمنع من الاستفادة من تجارب الآخرين، ومن خبراتهم في المجالات الحياتية البناءة فقد روي:

أن «الحكمة ضالة المؤمن، فاطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحق بها وأهلها» وفي معناه غيره[2].

نعم، إن المؤمن احق بالحكمة من غيره، ما دام أن ذلك الغير قد يستفيد منها لتقوية انحرافه، وتأكيد موقعه المناوىء للحق وللاصالة والفطرة.

وقد رأينا: أن النبي (ص) قد أطلق الصناع وأصحاب الحرف في خيبر لينتفع بهم المسلمون[3].

وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم المشركين في بدر، الذين لا يجدون ما يفتدون به: أن يعلم الواحد منهم عشرة من أطفال

---

(١) راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٠.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ج ٢ ص ٢٣٨ وتحف العقول ص ١٣٨ و ٢٩٢ وغرر الحكم ج ١ ص ٣٩٤ والبحار ج ٧٥ ص ٣٤ و ٣٨ و٣٠٧ وج ٢ ص ١٧ و٩٦ و ٩٧ ومواضع أخرى منه. وراجع: دستور معالم الحكم ص ١٩ والمجروحون ج ١ ص ١٠٥ والتراتيب الادارية ج ٢ ص ٣٤٨.

(٣) راجع: التراتيب الادارية ج ٢ ص ٧٥ وستأتي إن شاء الله بقية المصادر في غزوة خيبر.

المسلمين القراءة والكتابة، ويطلق سراحهم في مقابل ذلك[١].

ولكن هذه الاستفادة مشروطة بأن لا تنشأ عنها سلبيات أخرى، كما لو كان ذلك يعطي لأولئك المنحرفين فرصة لتضليل الناس، وجرّهم الى مهالك الانحراف، أو يعطيهم بعض النفوذ والهيمنة، أو يجرؤهم على التدخل في الشؤون الخاصة بالمسلمين، وما الى ذلك.

وهكذا، فانه يصبح واضحاً: أن المرفوض اسلامياً هو التبعية للآخرين والإنبهار الغبي بهم، وتقليدهم على غير بصيرة. وأما الاستفادة الواعية من منجزاتهم الحيوية لبناء الحياة، والتغلب على مصاعبها، بصورة تنسجم مع أحكام الشرع، ومن دون أن تنشأ عنه سلبيات خطيرة فذلك أمر مطلوب، ولا غضاضة فيه.

وحتى لو كان الخندق باشارة سلمان من الاساس، وكان سلمان قد استفاد ذلك من بيئته وقومه، الذين ما كانوا على طريقة الاسلام، ولا على دين الحنيفية، فلا ضير ولا غضاضة في قبول مشورته. بل الغضاضة في ترك العمل بتلك المشورة إذا كانت موافقة للصواب، ويتسبب الاعراض عنها بوقوع المسلمين في مأزق، هم في غنى عنه، ولا مبرر للوقوع فيه. مع وجود مخرج ليس في العمل به حرج ولا تنشأ عنه أية سلبيات يرغب عنها.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ٢٤٧ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٣٩٥، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٣ والروض الأنف ج ٣ ص ٨٤، والطبقات الكبرى ج ٢ ق ١ ص ١٤، والتراتيب الادارية ج ٢ ص ٣٤٨ وج ١ ص ٤٨/٤٩ عن السهيلي، وعن المطالع النصرية في الاصول الخطية، لأبي الوفا نصر الهوريني، وعن الامتاع للمقريزي ص ١٠١.

طريقة استشارته (ص) أصحابه:

هذا، ولا نرى أننا بحاجة الى التذكير بمبررات مشاورة النبي (ص) أصحابه، في أمر الحرب، فقد تحدثنا عن ذلك، وعن أسبابه، وآثاره الإيجابية في أوائل غزوة أحد.

غير أننا نشير هنا إلى أننا نلمح في طريقة مشاورة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه خصوصيتين رائعتين تجلتا لنا في النص الذي ذكره الواقدي.

إحداهما: إنه صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي بادر الى اقتراح حفر الخندق ثم انتظر مبادرة سلمان الاقناعية، متعمداً أن تسير الأمور بهذه الطريقة، سياسة من (ص) لأصحابه، وترويضاً لعقولهم، واعداداً لهم ليبادروا الى تحمل المسؤولية، ولغير ذلك من أمور.

الثانية: إنه صلى الله عليه وآله وسلم في نفس الوقت الذي يمارس فيه أسلوب المشاورة بهدف تحسيس أصحابه بالمسؤولية، وافهامهم عملا، لا قولاً فقط ـ أنهم الجزء الحركي والفاعل والمؤثر حتى على مستوى التخطيط، والقرارات المصيرية، وأن القضية قضيتهم، بما يعنيه ذلك كله من ارتفاع ملموس في مستوى وعيهم وتفكيرهم السياسي، والعسكري، وغير ذلك من أمور كانت محط نظره صلى الله عليه وآله وسلم.

نعم، إنه في هذا الحين بالذات يطرح أمامهم خيارات من شأنها أن تخرجهم من حالة الضيق والحرج، وتفتح أمامهم نوافذ جديدة على أفاق رحبة من التدبير العسكري، الذي يحفظ لهم وجودهم، ويبعد عنهم شبح الهزيمة المرة، أو التعرض لحرب تحمل معها أخطار القتل الذريع، دون أن يجدوا في مقابل ذلك أيا من تباشير النصر، أو التفاؤل به.

الخندق في إيجابياته الظاهرة:

قد تحدثنا في غزوة أحد في الفصل الأول منها، في فقرة: ما هو رأي النبي صلى الله عليه وآله في أحد، ما يفيد الاطلاع عليه في فهم إيجابيات البقاء في المدينة، والتمنع فيها، فيرجى مراجعة ما ذكرناه هناك.

أما هنا، فنقول: انه لم يطل بالمسلمين الأمر، حيث إنهم سرعان ما أدركوا: أن حفر الخندق هو ذلك التدبير الذكي الرائع، الذي فوت على عدوهم ما كان يحلم به من منازلتهم ومكافحتهم الى درجة الحاق الهزيمة بهم ثم استئصالهم وإبادة خضرائهم، وتقويض عزهم.

وقد أعطى الخندق المسلمين القدرة على ممارسة التسويف في الوقت، وهو الأمر الذي لم يكن المشركون قادرين على تحمل التسويف فيه الى أجل غير مسمى.

وقد رأى المسلمون بأم أعينهم:

١ ـ كيف أن عدوهم لم يستطع الصبر طويلاً، بسبب بعده عن مصادر الإمداد البشري والتمويني، مع ملاحظة محدودية طاقاتهم التموينية؛ لعدم امكان توفير مدّخرات كافية لهذا العدد الهائل من الناس، ولكل ما معهم من خيل وظهر كانوا بحاجة اليه في حربهم فان منطقة الحجاز لم تكن قادرة ـ بحكم طبيعة حياة الناس فيها ـ على توفير هذا النوع من القدرات والإمكانات بهذا المستوى الكبير، والحجم الهائل ـ ولا أقل من أن المشركين لم يفكروا مسبقاً بإيجاد خطوط تموين لحرب طويلة الأمد. ولا خططوا أبداً لمثل هذه

الحرب، كما أنهم لم يعتادوا حروباً كهذه ولا ألفوها؛ فمن الطبيعي ـ والحالة هذه ـ ان يملوا حرباً كهذه، وينصرفوا عنها.

٢ ـ إن هذا الخندق قد استطاع أن يحفظ لهم وجودهم وكرامتهم، فلم يسجل عليهم عدوهم نصراً وقد كبت الله به عدوهم، وردّهم بغيظهم لم ينالوا شيئاً مما كانوا يحلمون به، دون أن يكلف ذلك المسلمين خسائر تذكر، وحرم المشركين بذلك من امكانية اشراك اعداد ضخمة في المواجهات مع المسلمين.

٣ ـ ثم وجد المسلمون أنفسهم بعد ذلك أمام فرص اكبر، وحظ أوفر من ذي قبل، واستمروا يواصلون جهدهم وجهادهم للحصول على المزيد من أسباب القوة، والمنعة، والعمل على اضعاف عدوهم. وتقويض هذا التوافق فيما بين فئاته لصالح بقاء هذا الدين، وترسيخ دعائمه وأركانه.

٤ ـ إنه صلى الله عليه وآله قد جمع بين أن خندق على المدينة، وبين جعل جبل سلع خلف ظهر المسلمين ـ كما سنرى ـ فيكون بذلك قد استفاد من الموانع الطبيعية، ثم أحدث مانعاً مصطنعاً من الجهة الأخرى، لتكتمل خطته بحرمان العدو من أية فرصة للنيل من صمود المسلمين، أو إحداث أي إرباك، أو تشويش، أو خلخلة، أو مناطق نفوذ وتسلل في صفوفهم.

وأخيراً، فنجد نصاً عن سلمان الفارسي يصرح فيه بالمبررات لحفر الخندق، فهو يقول:

«يا رسول الله، إن القليل لا يقاوم الكثير في المطاولة.

قال: فما نصنع؟

قال: نحفر خندقاً يكون بيننا وبينهم حجاباً، فيمكنك منعهم في

المطاولة. ولا يمكنهم أن يأتونا من كل وجه. فانا كنا معاشر العجم في بلاد فارس إذا دهمنا دهم من عدونا نحفر الخنادق، فيكون الحرب من مواضع معروفة.

فنزل جبرئيل (ع) على رسول الله (ص) فقال: أشار سلمان بصواب[1].

بين الأصالة والتجديد:

وآخر ما نقوله هنا: أن حفر الخندق قد أفهم المسلمين: أنه ليس من الضروري أن يبقى الانسان أسير الافكار والعادات والاساليب المتداولة في المحيط الذي يعيش فيه، فاذا كان باستطاعته أن يبتكر أساليب، ويحدث وسائل جديدة، تمكنه من تحقيق أهدافه على النحو الافضل والأمثل، فعليه أن يبادر الى ذلك، ويكسر حاجز الاستغراب والاستهجان والرهبة، ويتحرر من عقدة الحفاظ على القديم، أو على العادة والتراث لمجرد أنه قديم وتراث، ومن موقع الجمود، والخواء، والتقوقع.

أما إذا كان هذا القديم يمثل الأصالة، والعمق والانتماء، ويعيد للانسان هويته الحقيقية، ويحول بينه وبين التخلي عن خصائصه الانسانية الأصيلة، فذلك القديم يكون هو الجديد النافع، في مقابل كل ما هو غريب، أو يجر الانسان إلى غربة حقيقية، تبعده عن واقعه، وتجرده من خصائصه الانسانية الأصيلة، ليعيش في الظلام والضياع، حيث الشقاء والبلاء، وحيث الوحشة والوحدة والغربة، بكل ما لهذه

---

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ١٧٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢١٨.

الكلمات من معنى.

فالتجديد الايجابي البناء هو الأصالة ذاتها. أما التجديد الذي يفقد الانسان أصالته، فهو الذي يمثل العودة إلى الوراء، وهو حقيقة التغرب والإنحطاط، والسقوط والتراجع. وهو بالتالي الكارثة الحقيقية والمدمرة له إن في الحاضر أو في المستقبل.

أضف إلى ما تقدم: أن التعارف فيما بين الشعوب المختلفة حين ينتهي إلى توظيف حصيلة تجاربها الحياتية لاستكمال سماتها الأصيلة للحياة بكل امتداداتها وعلى مختلف المساحات في الآفاق الرحبة؛ فان هذا التعارف يصبح ضرورة لا بد منها ولا غنى عنها لأية أمة تريد لنفسها الخير والسعادة والفلاح. وتريد كذلك أن تستثمر ذلك كله في خط التقوى والعمل الصالح. وفي صراط حصحصة الحق ليكون هو الملاذ، والرجاء، في كل شدة ورخاء. وقد قال تعالى: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن اكرمكم عند الله اتقاكم﴾[1].

أين كان الخندق وما هي مواصفاته:

قد تقدم: أن النبي (ص) قد ركب فرساً وخط لهم الخندق. وقد بينت النصوص التاريخية لنا مواضع الخندق وخصوصياته ومواصفاته بشيء من التفصيل، ونحن نذكر طائفة من هذه النصوص، فنقول:

١ ـ موضع الخندق:

قال الواقدي: «كان الخندق ما بين جبل بني عبيد بخُرْبى، إلى

---

(١) سورة الحجرات / ١٣.

راتج. قال: وهذا أثبت الأحاديث عندنا»[١].

وفي نص آخر: «من المذاد، الى ذباب، إلى راتج»[٢].

وعند القمي: «فأمر (ص) بمسحه من ناحية أحد إلى راتج»[٣].

وفي نص اكثر تفصيلاً: «حفر النبي (ص) الخندق طولاً، من أعلى وادي بطحان، غربي الوادي، مع الحرة، إلى غربي مصلى العيد، ثم إلى مسجد الفتح، ثم إلى الجبلين الصغيرين، اللذين في غربي الوادي. ومأخذه قول ابن النجار».

إلى أن قال: «والحاصل: أن الخندق كان شامي المدينة، من طرف الحرة الشرقية، إلى طرف الغربية»[٤].

وروي بسند معتبر، عن عمرو بن عوف قال: «خط رسول الله (ص) الخندق عام الاحزاب من أجم الشيخين (السمر) طرف بني حارثة، حتى بلغ المذاد (المداحج)»[٥]. والمذاد بطرف منازل بني

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٠ ـ ٤٥٢ وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٢.

(٢) راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٥ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٥ والثقات ج ١ ص ٢٦٦.

(٣) تفسير القمي ج ٢ ص ١٧٧ وبحار الانوار ج ٢٠ ص ٢١٨ وقال الطبرسي في مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ وعنه في بحار الانوار ج ٢٠ ص ٢٠٣: «كان اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق: المذاد».

(٤) وفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٤ والفقرة الأخيرة ص ١٢٠٦ أيضاً وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١ والعبارة الأخيرة في السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٣.

(٥) راجع: تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٥ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤١٨ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٥.

سلمة، مما يلي مساجد الفتح، ومنازلهم في جهة الحرة الغربية[١].

قال السمهودي: «سيأتي أن الشيخين أطمان شامي المدينة بالحرة الشرقية، أما المداحج فلا ذكر لها في بقاع المدينة»[٢].

وأقول: لعل كلمة «المداحج» تصحيف لكلمة المذاد، ولعل كلمة: السمر، تصحيف لكلمة الشيخين.

٢ ـ جعل الابواب للخندق:

«وذكروا: أن الخندق له أبواب، فلسنا ندري أين موضعها»[٣]. وحسب نص آخر: «جعل له رسول الله (ص) أبواباً، وجعل على الابواب حرساً»[٤].

ولكن كعب بن مالك قد أشار إلى وجود خندقين، فهو يقول:

بباب الخندقين كأن أسداً ... شووا بكهن يحمين العرينا[٥]

ويقول ضرار بن الخطاب:

كأنهم إذا صالوا وصلنا ... بباب الخندقين مصافحونا[٦]

وقال الفرزدق:

---

(١) وفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٢ وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٢ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠.

(٤) المصادر السابقة، وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٥.

(٥) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٥٤ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٦٧ ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٦.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٦٦.

بدر له شاهد والشعب من احد والخندقان ويوم الفتح قد علموا[١]

وذكر القمي: أن عدد الابواب كان ثمانية[٢].

٣ ـ خصوصيات ومواصفات أخرى:

«والخندق فيه قناة، تأتي من عين قباء إلى النخل الذي بالسنح، حوالي مسجد الفتح.

وفي الخندق نخل أيضاً.

وانْطمّ اكثره، وتهدمت حيطانه»[٣].

وذكروا أيضاً: أنه قد «بلغ طول الخندق نحواً من خمسة آلاف ذراع وعرضه تسعة أذرع، وعمقه سبعة أذرع»[٤].

الموقع الجغرافي للخندق:

ونحن إذا راجعنا الواقع الجغرافي للمدينة، فانه يتضح: أن الخندق قد ضرب على المدينة في مواقع من الجهة الغربية والشمالية. أما الجهة الشرقية والجنوبية فقد شبكت بالبنيان، ولم يخندق المسلمون عليها.

ولعل ذلك يرجع أن المواقع التي تستوعب الوف الفرسان، وتصلح أن تكون ساحة حرب ونزال هي المنطقة الواقعة بالقرب من

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ١٧٤.
(٢) تفسير القمي ج ٢ ص ١٧٩ وعنه في بحار الانوار ج ٢٠ ص ٢٢٠.
(٣) وفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٤ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١.
(٤) الرسول العربي وفن الحرب لمصطفى طلاس ص ٢٤٠/٢٤١ والسيرة النبوية للندوي ص ٢٨١.

ثنيات الوداع شمال وغرب المدينة. حتى تنتهي بجبل أحد. وهي منطقة واسعة ومسطحة ومكشوفة، وليس فيها عراقيل مهمة، وهي المنطقة التي حفر الخندق فيها.

أما سائر المناطق حول المدينة فلم تكن تصلح لذلك، ولا سيما بالنسبة لجيوش كبيرة تعد بالألوف، من فرسان ورجالة، بالاضافة إلى ما يتبع هذه الجيوش من دواب وخيول تحمل ازوادهم وامتعتهم، وتحمل الرجالة منهم أيضاً في سفرهم الطويل.

وذلك لأن سائر المناطق حول المدينة كان فيها من الجبال والأودية، ومن تضاريس وأشجار وحجارة ما يحدّ من قدرة تلك الجيوش الغازية على الحركة الفاعلة، والمؤثرة، ويفقدها الكثير من الامتيازات الحربية، ويحرمها من الاحتفاظ بزمام المبادرة، ويفوت عليها نصراً تطمح إلى تحقيقه.

ويوضح ذلك: أنه كانت توجد في الجهة الشرقية حرة واقم، وفي الجهة الغربية حرة الوبرة، وهي مناطق وعرة فيها صخور بركانية، وتمثل حواجز طبيعية. وكان في جهة الجنوب اشجار النخيل وغيرها، بالاضافة إلى الابنية المتشابكة. وكل ذلك لا يتيح لجيش المشركين ان يقوم بنشاط فاعل وقوي ضد المسلمين.

وحيث إن بعض المواضع في جهتي الشرق والجنوب كان يمثل النقطة الأضعف من غيرها، الأمر الذي يحمل معه احتمالات حدوث تسلل تكتيكي للعدو، يهدف إلى إرباك الوضع العسكري والنفسي للمسلمين؛ فقد كان لا بد من سد تلك الثغرة، ورفع النقص، وتفويت الفرصة على العدو، حتى لا يضطر المسلمون لتوزيع قواهم وبعثرتها هنا وهناك بطريقة عشوائية، أو من شأنها أن تضعف فيهم درجة

الصمود والتصدي في ساحة الصراع الحاسم في ميدان الكر والفر الأول والاساس..

فكان أن بادر المسلمون إلى تشبيك المدينة بالبنيان وذلك في مواقع الضعف المشار اليها. وهذه الاجراءات كلها قد حالت دون استخدام قوات كبيرة في مهاجمة المدينة إلا من جهة الخندق، وهي قد اصبحت مشلولة بسبب حفر الخندق تجاه العدو فيها.

غير ان هذا الذي ذكرناه لا يعني أن يمرّ القادم من مكة على ثنية الوداع، وهي الجهة الشمالية للمدينة. فان طريق المسافرين، الذين تضمهم في الغالب قوافل صغيرة ومحدودة العدد ليس كطريق الجيوش الضخمة التي تضم ألوفاً كثيرةً من الناس ومن وسائل النقل المختلفة، حسبما المحنا إليه..

وبذلك يتضح: أن من الممكن أن نتفهم أنه لا مانع من أن تأتي الجيوش إلى جهة ثنية الوداع من جهة الشام، ولكن المسافرين يأتون من طريق آخر. ولا يمر القادم من مكة على ثنية الوداع ولا يراها، كما جاء في النص التاريخي[١].

يقول مصطفى طلاس:

«وبحفر الخندق استطاعت قيادة الجيش الاسلامي أن تعزل قوات العدو عن مكان التجمع الرئيسي للقوات المدافعة عن المدينة، وان تحول بينها وبين اقتحام مداخل المدينة، لأن هذه المداخل أصبح من الممكن حراستها بعد حفر الخندق.

---

(١) راجع: وفاء الوفاء ج ٤ ص ١١٧٢ و ١١٧٠ وزاد المعاد ج ٣ ص ١٠ والتراتيب الادارية ج ٢ ص ١٣٠.

وقد أفادت قوات الثورة الاسلامية من مناعة جبل سلع، الذي كان الى يسارها وإلى الخلف، كما أفادت من وعورة حرة الوبرة لحماية جناحها الأيسر. ومن وعورة حرة واقم لحماية جناحها الأيمن. ومن الحرة الجنوبية وجبل عسير لحماية المؤخرة»[١].

تشبيك المدينة بالبنيان:

وكان سائر المدينة مشبكاً بالبنيان، شبكوها من كل ناحية، وهي كالحصن[٢].

قال في خلاصة الوفاء: «كان أحد جانبي المدينة عورة، وسائر جوانبها مشبكة بالبنيان والنخيل، لا يتمكن العدو منها»[٣].

ثم إنه صلى الله عليه وآله «اختار ذلك الجانب المكشوف للخندق. وجعل معسكره تحت جبل سلع»[٤].

وبذلك يكون صلى الله عليه وآله وسلم قد سد الثغرات التي يمكن للعدو أن يتسلل منها ليحدث ارباكاً خطيراً في معسكر المسلمين.

---

(١) مصطفى طلاس: الرسول العربي وفن الحرب ص ٢٣٤.
(٢) راجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٤٥٠ وراجع ص ٤٤٦ ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٥ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٤.
(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١ وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥ ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٦.
(٤) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥.

ثم جعل للخندق ابواباً، وجعل على الابواب حرساً، بطريقة تمنع من التسلل، ومن التواطؤ عليه كما سنرى.

ثم اختار الجانب المكشوف للخندق، وجعل معسكره تحت جبل سلع، مستفيداً منه كمانع طبيعي يصعب على العدو اجتيازه لمهاجمة المسلمين.

مدة حفر الخندق:

وقال المؤرخون: «وجعل المسلمون يعملون مستعجلين، يبادرون قدوم العدو عليهم»(١).

والأقوال في مدة حفر الخندق هي التالية:

كان حفر الخندق في ستة أيام وحصنه(٢).

وقيل: بضع عشرة ليلة(٣).

وقيل: شهراً أو قريباً من شهر. قال البعض: وهو أثبت(٤).

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤١١. المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٥ وراجع: الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧٨. وراجع البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٧. وفتح الباري ج ٢ ص ٣٠٢.

(٢) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٤ وسيرة مغلطاي ص ٥٦ والوفا ص ٦٩٣ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٢ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٤ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٤ ونهاية الأرب ج ١٧ ص ١٧٠ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٧ ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٤ و١٢٠٨ و١٢٠٩ و١٢٠٥.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٤ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٧ ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٩.

(٤) المصدر السابق ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٩ عن الهدى لابن القيم وكذا في

ووقع عند موسى بن عقبة: أنهم أقاموا في عمل الخندق قريباً من عشرين ليلة[١].

وعند الواقدي: أربعاً وعشرين[٢]

وجزم النووي في الروضة بأنهم حفروه في خمسة عشر يوماً[٣] وصرح القمي بأنه (ص) قد فرغ من حفر الخندق قبل قدوم قريش والاحزاب بثلاثة أيام[٤]

ونقول:

إن الارقام التي تقول: انهم أقاموا يعملون في الخندق عشرين يوما أو شهراً أو نحو ذلك، يبدو أنها بعيدة عن الصواب، لأن المفروض أن ركب خزاعة قد خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن فصلت قريش من مكة إلى المدينة. وبقي أربعاً حتى وصل إليها، وأبلغ الرسول بالأمر...

ولنفترض أن مسير قريش إلى المدينة قد استغرق أربعة أضعاف الأربعة أيام المذكورة، فتكون قد وصلت إلى المدينة خلال ستة عشر يوماً فمع حذف الأربعة أيام الأولى لمسيرة ركب خزاعة فانه يبقى اثنا

المواهب اللدنية ج ١ ص ١١١ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٢.

(١) المواهب اللدنية ج ١ ص ١١٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٢ عنه، والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٤ وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٤ ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٨ راجع فتح الباري ج ٧ ص ٣٢.

(٢) المصادر السابقة وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٧ ووفاء الوفاء ج ١ ص ١٢٠٨ و١٢٠٩.

(٣) راجع: المصادر السابقة في الهامش ما قبل السابق.

(٤) تفسير القمي ج ٢ ص ١٧٩ والبحار ج ٢٠ ص ٢٢١.

عشر يوماً تمَّ حفر الخندق فيها، فكيف يقال: إن العمل في الخندق قد استمر عشرين أو أربعاً وعشرين أو ثلاثين يوماً؟!

هذا.. ولا يمكننا أن نخفي دهشتنا واعجابنا بهذا الانجاز الضخم والسريع جداً، مع ملاحظة ضعف الوسائل والامكانات المتوفرة للعاملين في حفر الخندق آنئذٍ، بالاضافة إلى وجود المثبطين عن العمل، كما سنرى...

فحيا الله هذه الهمم، وبورك لهم جهادهم المبارك والرائد تحت قيادة وفي طاعة رسول الاسلام الاعظم والأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

زمام المبادرة بيد من؟!

وقد اتضح من خلال النصوص المتوفرة لدينا: أن العدو وإن كان قد فرض على النبي وعلى المسلمين معركة غير متكافئة من حيث العدد والعدة. واختار هو التوقيت لحشد جيوشه، وتحزيب أحزابه.

ولكنه بمجرد وصوله إلى المدينة قد فقد زمام المبادرة ليصبح في يد النبي والمسلمين بصورة نهائية. فأصبح (ص) يتحكم بمسار الحرب، وهو يفرض على عدوه الموقع الذي يريد، في هذا المكان، أو في ذاك، ولا يملك عدوه أية وسيلة للتغيير في المواقع والمواضع، فلا يمكنه أن يجر المسلمين إلى هذا الموقع، أو الى ذلك الموقع.

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم أصبح يتحكم بالزمان والتوقيت للحرب، ولا يستطيع عدوه أن يهاجمه في وقت لا يرغب هو بدخول الحرب فيه.

ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أصبح قادراً على اختيار الوسيلة الحربية التي تلائمه، وتنسجم مع ظروفه. وقد اسقط العتاد والعدة الحربية للعدو من خيول وغيرها عن الفاعلية المؤثرة، وأصبحت عبئاً على العدو، لا بد أن يهيء العدو لها ظروف بقائها وصيانتها من التلف في مصابرته على الحصار الطويل، الذي كان يستنزف طاقته وصبره، حتى انتهى الامر به إلى هزيمة مخزية، كما سيتضح.

وهذه هي ثمرة التخطيط الواعي والمسؤول، وثمرة الإدراك الواعي للواقع وللظروف المحيطة، التي كان لا بد من التعامل معها، والتغلب على سلبياتها، والاستفادة من ايجابياتها على النحو الاكمل والافضل والامثل.

الفصل الثالث:

حفر الخندق:
أحداث ودلالات

شدائد ومتاعب

إن من الواضح: أن حفر خندق بهذا الحجم حول مدينة كبيرة، ليس بالأمر السهل، ولا سيما بالنسبة لأناس لم يقوموا بعمل ضخم طيلة حياتهم. خصوصاً مع بدائية الوسائل ومحدوديتها، حتى اضطروا لاستعارة بعضها من يهود قريظة، كما سنرى، هذا بالاضافة إلى انقطاع المسلمين عن العمل في سبيل لقمة العيش، فانقطعت موارد ارزاقهم فكان من الطبيعي أن يعاني المسلمون من هذا الأمر من متاعب كبيرة، وشدائد لا تطاق، وذلك من ناحيتين.

احداهما: في نفس هذا العمل الشاق والكبير، وما يحتاج لانجازه في فرصة محدودة وقصيرة جداً، من جهد مضن لم يعتد هؤلاء الناس على أقل القليل منه، ولا واجهوا نظيره، ولو مرة واحدة طيلة حياتهم.

الثانية: في الضائقة المالية التي كانوا يعانون منها، التي تتجلى فيما يصفه لنا المؤرخون من حالة الضعف والجهد، والخصاصة والجوع في تلك الظروف بالذات..

وقد يحاول البعض أن يقول: إن هذه الضائقة لم تنل جميع الناس آنئذٍ، لأن الناس ـ كما يروى الواقدي والمقريزي ـ قد كان كثير

منهم في وفرة معقولة في تلك الفترة، لأن مجيء الأحزاب كان بعد انتهاء موسم الحصاد، وقد أدخل الناس غلاتهم واتبانهم، ولا يزال معظمها موجوداً لدى اصحابها.

أضف إلى ذلك: أن بعض الروايات الآتية التي تحكى لنا قصة جابر تقول: إن الذين احتاجوا للاصابة من طعام جابر كانوا ثلاث مئة، أي حوالي ثلث المشاركين في حفر الخندق. فالباقون لم يكونوا بحاجة ماسة إلى طعام، أو لعل اكثرهم كان كذلك.

ونقول:

إن هذه المحاولة غير كافية لاثبات ذلك، إذ قد صرح المؤرخون أن العام كان عام جدب. ولم يكن ثمة غلات في مستوى يؤثر في تغيير ظاهرة الفقر والخصاصة والجوع، التي كانت مهيمنة على عامة الناس آنئذ. ولو كان ثمة غلات بهذا الحجم لبادر أصحابها إلى تقديمها طوعاً، إلى هؤلاء الناس. بل كان النبي (ص) يأمرهم ببذلها لإخوانهم، ولا سيما في ظروف الحرب هذه. ولكُنا قد رأيناهم يتسابقون على دفع أذى الجوع عن شخص النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم، الذي يتسابقون على نيل بركاته والفوز برضاه..

إلا أن ذلك لا يمنع من أن يكون لدى المنافقين قسطاً من تلك الأموال، كانوا يضنون بها ويبخلون عن بذلها، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه.

حفر الخندق في روايات المؤرخين:

ونحن نذكر هنا طائفة من النصوص التاريخية، المرتبطة بحفر

الخندق، متوخين فيها ـ قدر الامكان ـ تبويبها وتقسيمها، حسبما يتهيأ لنا، ثم نعقب ذلك ببعض ما يرتبط بما أجمل منها أو اشكل، ومن الله نستمد القوة والحول، فنقول:

المساحي والمكاتل:

ويقولون: إنه (ص) قد استعار من بني قريظة آلة كثيرة، من مساحي وفؤوس ومكاتل، يحفرون به الخندق ـ وهم يومئذ سلم للنبي (ص)، ويكرهون قدوم قريش[١].

ونقول:

لا ندري مدى صحة هذا القول، بعد أن كان رسول الله ـ حسبما تقدم، حين الكلام حول ايمان أبي طالب ـ يدعو الله أن لا يجعل لكافر ولا لمشرك عنده يداً أو نعمة.

إلا أن يكون صلى الله عليه وآله قد قرر عليهم المعونة بهذا المقدار، إن دهمهم عدو، حسبما تقدم في معاهدته (ص) مع يهود المدينة. فلا تبقى لهم بذلك منة على أحد، بل لله المنة عليهم، وإنما يعملون بما أخذ عليهم العمل به.

تقسيم العمل في الخندق:

قال الواقدي: «وكل بكل جانب من الخندق قوماً يحفرونه،

---

(١) راجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٥ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١١ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٥ والامتاع ج ١ ص ٢٢٠ وراجع وفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٧.

فكان المهاجرون يحفرون من جانب راتج إلى ذباب، وكانت الأنصار تحفر من ذباب إلى جبل بني عبيد» وفي نص آخر: إلى خربى[١].

وفي نص آخر: وخندقت بنو عبد الاشهل عليها بما يلي راتج إلى خلفها، حتى جاء الخندق من وراء المسجد. وخندقت بنو دينار من عند خربى إلى موضع دار ابن أبي الجنوب اليوم[٢].

ومن جهة أخرى، فانه (ص) قطع الخندق أربعين ذراعاً بين كل عشرة[٣] وقال القمي: «جُعِلَ على كل عشرين خطوة، وثلاثين خطوة قوم من المهاجرين والأنصار يحفرونه»[٤].

وفي نص آخر يقول: «وجعل لكل قبيلة حداً يحفرون إليه»[٥]. لكن القطب الراوندي يقول: «قسمه بين المهاجرين والأنصار بالذراع؛

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٦ و ٤٥٠ وراجع: امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٠ وحدائق الانوار ج ٢ ص ٥٨٥ وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٣ ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٥.

(٢) راجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٠ و٤٥١ ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٥.

(٣) راجع: تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٥ والبحار ج ٢٠ ص ١٨٩ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٢١٥ ومجمع البيان ج ٢ ص ٤٢٧ و٣٤١ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٣ وشرحه مطبوع بهامشه، وقال: رواه الطبري، والطبراني، والحاكم، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧٩ والخرائج والجرائح ج ١ ص ١٥٢ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤١٨ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٥ ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٢.

(٤) تفسير القمي ج ٢ ص ١٧٧ وعنه في بحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢١٨.

(٥) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠.

فجعل لكل عشرة منهم عشرة أذرع»[١].

النبي (ص) يشارك في حفر الخندق:

وقد شارك النبي صلى الله عليه وآله المسلمين في حفر الخندق كما صرحت به النصوص التاريخية، وذلك رغبة في الاجر ولينشط المسلمين[٢].

وقد أجهد المسلمون أنفسهم، والنبي (ص) يكابد معهم[٣] النصب والجوع وقد استمرت هذه المشاركة حتى فرغ من حفر الخندق[٤].

وكان (ص) يضرب مرة بالمعول، ومرة يغرف بالمسحاة التراب، ومرة يحمل التراب بالمكتل. قال أبو واقد: ولقد رأيته يوماً بلغ منه، فجلس، ثم اتكأ على حجرٍ على شقه الأيسر، فذهب به النوم؛ فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه ينحيان الناس أن يمروا به فينبهوه. وأنا قريب منه؛ ففزع، ووثب؛ فقال: ألا أفزعتموني؟!

---

(١) الخرائج والجرائح ج ١ ص ١٥٢ والبحار ج ١٨ ص ٣٢ عنه.

(٢) راجع ما يلي: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٥ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٨٩ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٢٦. وراجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ٩٥ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٠ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٤ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٦٨ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٥ و٥٧ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٩ و٤٠٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٣ ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٤٠٧ والاكتفاء ج ٢ ص ١٥٩ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠١.

(٣) بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٣ وحدائق الأنوار ج ٢ ص ٥٨٥.

(٤) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠.

فأخذ الكرزن (الفأس) يضرب به، وإنه ليقول:

اللهـم إن العيـش عيـش الآخـرة فـاغفـر لـلأنصـار والمهـاجـرة
اللهـم العـن عضـلاً والقـاره فهـم كلفـونـي أنقـل الحجـارة[١]

وكان (ص) يحمل التراب على ظهره، أو على عاتقه[٢]. حتى إن التراب على ظهره وعكنه[٣] وربما كان يحفر معهم حتى يعيا، ثم يجلس حتى يستريح. وجعل أصحابه يقولون: يا رسول الله، نحن نكفيك، فيقول: اريد مشاركتكم في الأجر[٤].

وعن أم سلمة بسند صحيح ـ عند احمد ـ كان النبي (ص) يعاطيهم اللبن يوم الخندق، وقد اغبر شعر صدره[٥].

وفي نص آخر ذكره البخاري وغيره: «رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه ـ وكان كثير الشعر ـ فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة:

والله لـولا الله مـا اهتـدينـا ولا تصـدقنـا ولا صلينـا
فـأنـزلـن سكينـة علينـا وثبـت الاقـدام إن لاقينـا

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٢ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٥ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٨ وراجع: المواهب اللدنية ج ١ ص ١١١.

(٢) راجع: حدائق الانوار ج ٢ ص ٥٨٥ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢١ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٦.

(٣) راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٥ وفي المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٩ عن أنس: على صدره وبين عكنه.

(٤) وفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٧ عن تفسير الثعلبي.

(٥) فتح الباري ج ٧ ص ٣٠٨ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٦ عن أبي يعلى وأحمد برجال الصحيح.

إن الأولـــى قــــد بغـــوا علينــــا إذا أرادوا فتنـــــــــةً أبينـــــــا

ثم يمد بها صوته: أبينا، أبينا[١].

وقد سجل العسقلاني تحفظاً هنا، فهو يقول: «ظاهر هذا أنه كان كثير شعر الصدر، وليس كذلك فان في صفته (ص): أنه كان دقيق المسربة، أي الشعر الذي في الصدر إلى البطن. فيمكن أن يجمع أنه كان مع دقته كثيراً»[٢].

ولكنه جمع غير ظاهر الوجه، بعد أن كان التعبير الوارد في الرواية يأباه. ولكن المهم عند هؤلاء هو تصحيح رواية البخاري بأي ثمن.

وقد صرح القمي بأن رسول الله (ص) كان هو البادىء في حفر الخندق، فهو يقول: وأخذ معولاً فحفر في موضع المهاجرين بنفسه

---

(١) راجع المصادر التالية: السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٨٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٦ عن الصحيحين وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢١ باب غزوة الخندق وصحيح مسلم ـ الجهاد والسير، باب غزوة الاحزاب وفتح الباري ج ٦ ص ٤٦ وج ٧ ص ٣٠٨ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤٥ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٣ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١١ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٢ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٢ و٢٢٣ وتفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٥٧٩ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٧ وراجع: حدائق الانوار ج ٢ ص ٥٨٥ و٥٨٦ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤١ وبحار الانوار ج ٢٠ ص ١٩٩ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٦٩ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤١٣ و٤١٤ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨١ والغدير ج ٧ ص ٢٠٦ عن ابن كثير وعن طبقات ابن سعد.

(٢) فتح الباري ج ٧ ص ٣٠٨.

وأمير المؤمنين عليه السلام ينقل التراب من الحفرة، حتى عرق رسول الله (ص) وعيي، وقال:

لا عيـــش إلا عيـــش الآخـــرة اللهم اغفر للأنصار والمهاجرين

فلما نظر الناس إلى رسول الله (ص) يحفر اجتهدوا في الحفر، ونقلوا التراب؛ فلما كان في اليوم الثاني بكروا إلى الحفر، وقعد رسول الله (ص) في مسجد الفتح، فبينا المهاجرون والانصار يحفرون إذ عرض لهم إلخ»[١].

علي (ع) وشيعته أعظم الناس عناء:

قال القاضي النعمان: «وكان علي صلوات الله عليه وشيعته اكثر الناس عناء، وفيه عملا. وكان في ذلك من الأخبار ما يطول ذكره»[٢].

وثمة تفاصيل أخرى:

قد عرفنا فيما سبق: أن النبي (ص) كان هو البادىء في حفر الخندق. وكان (ص) يحفر، وعلي ينقل التراب من الحفرة. وقد استمرت مشاركة النبي (ص) لهم في العمل حتى انتهوا من الخندق.

وأنه (ص) كان يضرب مرة بالمعول، ومرة يغرف التراب بالمسحاة، ومرة يحمل التراب بالمكتل على ظهره، أو على عاتقه.

وكان (ص) يعاطيهم اللبن، الأمر الذي يدل على أنه كان ثمة

---

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ١٧٧/١٧٨ وبحار الانوار ج ٢٠ ص ٢١٨ عنه.
(٢) شرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٢.

بناء في الخندق.

أضف إلى ذلك أنهم يقولون:

إنهم كانوا يحملون المكاتل على رؤوسهم، وإذا رجعوا بها جعلوا فيها الحجارة، يأتون بها من جبل سلع، يسطرونها مما يليهم، كأنها حبال التمر وكانت الحجارة من أعظم سلاحهم، يرمونهم بها.

والقوم يرتجزون، ورسول الله (ص) يقول:

هـذي الجمـال لا جمـال خيبـر هـذا أبـر ربنـا وأطهـر[١]

وما كان في المسلمين يومئذ احد الا يحفر في الخندق، او ينقل التراب وكان أبو بكر وعمر لا يتفرقان في عمل، ولا مسير، ولا منزل، ينقلان التراب في ثيابهما من العجلة؛ إذ لم يكن مكاتل لعجلة المسلمين[٢].

وقال جابر: وعمل الناس يومئذٍ كلهم، والنبي (ص). وجعلت الأنصار ترتجز وتقول:

نحـن الـذيـن بـايعـوا محمـداً علـى الجهـاد مـا بقينـا أبـدا

فقال النبي (ص)، وفي لفظ آخر: فيجيبهم.

اللهـم لا خيـر إلا خيـر الآخـرة فـاغفـر لـلأنصـار والمهـاجـرة[٣]

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٦ وراجع: الامتاع ج ١ ص ٢٢٠. وراجع السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٢.

(٢) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٩ و ٤٤٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٣ والامتاع ج ١ ص ٢٢٢. وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٦.

(٣) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٢ و٤٥٣ وراجع كنز العمال ج ١٠ ص ٢٩٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٣ وحدائق الانوار ج ٢ ص ٥٨٥/٥٨٦ وصحيح البخاري (المغازي) باب غزوة خيبر. وصحيح مسلم، الجهاد

وكان من فرغ من المسلمين من حصته عاد إلى غيره فأعانه، حتى كمل الخندق[١].

وعن أنس قال: خرج رسول الله (ص) إلى الخندق، فاذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع. وفي نص آخر: فلما رآهم يحملون التراب على متونهم، وما بهم من النصب والجوع، قال:

اللهم ان العيش عيش الآخرة ... فاغفر للانصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبدا[٢]

وبعد ما تقدم نقول:

عمل المنافقين في الخندق:

قالوا: وأبطأ عن رسول الله (ص)، وعن المسلمين في عملهم

والسير ـ باب غزوة الاحزاب ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤١٠ و٤١١ و٤١٢ وراجع فتح الباري ج ٧ ص ٣٩٢ وعن مسلم باب غزوة الاحزاب وعن البخاري وغير ذلك.

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٦.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٥ و٩٦ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٣ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١١ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٢ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٣ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٦ و٥١٧ وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢٠ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤١٠/٤١١ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤٥ وعن فتح الباري ج ٧ ص ٣٩٢.

ذاك رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل.

وحسب نص آخر: تخلف طائفة من المنافقين، يعتذرون بالضعف. وتسلل عنه صلى الله عليه وآله وسلم جماعة من المنافقين إلى أهليهم بغير علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأنزل الله تعالى في ذلك:

﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة، أو يصيبهم عذاب أليم﴾. ثم كان الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة لا بد منها يستأذن رسول الله (ص) فيقضي حاجته، ثم يعود، فانزل الله تعالى: **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾**. واللواذ: الاستتار بالشيء عند الهرب[(١)].

وهناك الذين كانوا يتسللون زاعمين: أن بيوتهم عورة ـ أي

---

(١) راجع ما تقدم كلا أو بعضاً، في المصادر التالية: السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٢٦ و٢٢٧ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٥٩ و١٦٠ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧٩ و١٧٨ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٣ و٣١٢ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٦٨ وعيون الاثر ج ٢ ص ٥٥ و٥٦. وراجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ٩٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٣ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٠ وراجع ص ١١٢ و١١٣ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٣. والدر المنثور ج ٥ ص ٦٠ عن ابن اسحاق، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٢ و٥٢٣ وتهذيب سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص ٤٠٩.

مكشوفة للغزاة، ومعرضة للاحتلال[١] ـ وليس الأمر كذلك.

ولنا مع ما تقدم وقفات، نشير إليها فيما يلي من مطالب.

١ ـ توزيع المهام على العاملين:

ومن الواضح: أن تحديد المسؤوليات، وتقسيم المهام على العاملين من شأنه ان يرفع من درجة الاحساس بالمسؤولية، الأمر الذي يفرض على العاملين قدراً اكبر من الدقة والتحري، الذي ينعكس على العمل اتقاناً، وتناسقاً وجمالاً.

هذا عدا عن أنه يذكي روح التنافس البناء والهادف، الذي يؤدي إلى نشوء نوع من الرقابة العفوية، التي تنتهي إلى الانضباط، وإلى الاسراع في الانجاز.

ومن جهة ثانية فانه يقطع الطريق على أولئك الكسالى والاتكاليين، ممن يضعف لديهم الشعور بالمسؤولية، ويريدون أن يفيدوا ويستفيدوا من جهد الآخرين، دون أن يقدموا هم أنفسهم أي جهد، أو أن يبذلوا أي عناء. ومنعهم من ثم من التواكل المؤدي إلى الفشل، وإلى التضييع والبلبلة والاختلاف.

وقد روي عن علي عليه الصلاة والسلام: أنه كتب في وصيته للامام الحسن، صلوات الله وسلامه عليه: «واجعل لكل إنسان من خدمك عملاً تأخذه به؛ فإنه أحرى أن لا يتواكلوا في خدمتك»[٢].

---

(١) سيرة المصطفى ص ٤٩٦.

(٢) نهج البلاغة بشرح عبده، آخر وصية الامام الحسن ج ٣ ص ٦٣، الكتاب رقم ٣١.

كما أن عدم تحديد المسؤوليات يؤدي إلى تخلخل في البنية الداخلية، نتيجة للاحساس بالغبن لدى من تفرض عليه ظروف عمله أن يكون هو الذي يتحمل عبء إنجاز ما فرط الآخرون في انجازه. وعسى ولعل أن يتجه الفرقاء إلى إثارة الاسئلة والشكوك، ثم إلى التراشق بالتهم لتبرير حالة الضعف القائمة بسبب ذلك.

وعلينا بعد ذلك كله: أن نتوقع ظهور عوارض الخلل والضعف في أية خطة ترسم وتعتمد، وتفقد الكثير من حيويتها وفاعليتها في مجال التطبيق والتنفيذ.

كما أن توزيع الحصص على العاملين بهذه الطريقة يضمن تحقق المساواة والعدل في تحمل مشاق العمل، فلا يعمل هذا أكثر من ذاك، وإذا استطاع التفوق على أقرانه في العمل، فان ذلك يظهر للآخرين، ويتجلى امتيازه على سائرهم ـ كما سنقرؤه بالنسبة لسلمان الفارسي، الذي ظهرت قوته في العمل، فتنافس فيه المهاجرون والأنصار.

أما المتواكل المتخاذل، فلا مجال للتستر عليه، إذا كان يريد أن يتوانى في عمله ويتواكل فيه. وقد فضح القرآن المنافقين، الذين اتبعوا هذا السبيل كما تقدم.

هذا كله، بالاضافة إلى أن قسمة العمل على النحو المتقدم من شأنها أن تؤثر في زرع روح التفاؤل بامكانية انجاز هذا العمل الضخم، وتقلل من رهبته في صدور العاملين، حينما تنحسر النظرة إلى ذلك العمل الهائل لتصبح في مدى أذرع يسيرة يتعاون على انجاز العمل فيها عشرة من المؤمنين.

٢ ـ النبي والشعر:

قد تقدم بعض ما يدل على ان النبي (ص) كان يتمثل ببعض الشعر، أو ينشد مع الصحابة ما ينشدون، ونزيد هنا:

قال دحلان وغيره: عن سهل بن سعد: كنا مع النبي في الخندق ننقل التراب على أكتادنا، فقال (ص):

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فأكرم الأنصار والمهاجرة

وهو من كلام ابن رواحة، وأصله:

لا همّ إن العيش عيش الآخرة.

فنطق به النبي (ص): اللهم لا عيش الخ... لأنه يعسر عليه النطق بالشعر، وإن كان من قول غيره[١]

وعن أبي عثمان النهدي، أو سلمان: أنه (ص) حين ضرب في الخندق قال:

باسم الاله وبه بدينا   ولو عبدنا غيره شقينا   يا حبذا رباً وحب دينا[٢]

---

(١) السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٣ عن البخاري. والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٢ وراجع البداية والنهاية ج ٤ ص ٩٦ عن البخاري ومسلم والحديث في نهاية الارب ايضاً ج ١٧ ص ١٦٩ وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢٠ وفيه: فاغفر للمهاجرين والأنصار.

(٢) المواهب اللدنية ج ١ ص ١١١ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٢ والامتاع ج ١ ص ٢٢١ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٦/٩٧ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤١٤ والسيرة النبوية لابن كثير

قال دحلان: «وهو من كلام بعض أصحابه يتمثل به. أو من كلامه بناءً على أن الرجز ليس بشعر. أو ان الشعر شرطه أن يكون مقصوداً كونه شعراً موزوناً. أما إذا خرج موزوناً بلا قصد، فلا يسمى شعراً»[1].

ونقول:

إن بعض الناس حسبما تقدم، وكما هو مذكور في كتب التفسير، في تفسير قوله تعالى: **﴿وما علمناه الشعر، وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾**[2] يريد أن يدعي: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم غير قادر على التفوه بكلام موزون، أو أن الرجز ليس بشعر. أو ما إلى ذلك..

ولكنها دعاوى ليست على درجة من القوة والاستقامة؛ فان المراد بالآية الكريمة **﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾**: أنه صلى الله عليه وآله ليس بشاعر، بمعنى أنه ليس لديه ملكة الشعر، لا أنه يعسر عليه التكلم بشعر غيره والنطق به. ولا حاجة بعد هذا إلى دعوى: أن الرجز ليس بشعر، كما لا حاجة إلى اشتراط القصد أو عدمه في إيراد الشعر الموزون. فان النظر هو إلى ملكة الشعر الذي يتضمن الانسياق وراء الاوهام والتخيلات، والمبالغات، والتصويرات غير الواقعية، بالاضافة إلى الوزن والموسيقى. وفقاً لما أشار إليه تعالى بقوله: **﴿والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم**

ج ٣ ص ١٨٦ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٤.

(١) السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٣.

(٢) سورة يس، الآية رقم ٦٩.

يقولون ما لا يفعلون﴾[١].

ـ دور عضل والقارة:

وقد ذكرت رواية أبي واقد: أنه (ص) قال:

اللهـــم العـــن عضـــلاً والقـــارة هـــم كلفـــونـــي أنقـــل الحجـــارة

وليس هذا الكلام واضح المأخذ والمغزى، إلا أن تكون هاتان القبيلتان: عضل والقارة، قد قامتا بنشاط واسع في تحزيب الأحزاب فاق نشاط اليهود وقريش حتى صح أن ينسب (ص) إلى هاتين القبيلتين حتى نقل الحجارة للخندق.

وليس فيما بأيدينا من نصوص ما يدل على ذلك أو يشير إليه، من قريب ولا من بعيد.

ـ الأمثولة المواساة:

وما أروع هذا التنويع في المهمات التي تصدى الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم لها في حفر الخندق، حيث لم يقتصر على نوع واحدٍ من العمل فيه، بل شارك (ص) كل العاملين في اعمالهم، وأذاق نفسه الشريفة مبلغ جهدهم، فصدق بذلك الخبر الخبر، وتجلت المواساة بأبهى صورها، وتجسدت الأمثولة الرائدة بأروع وأدق وأصدق معانيها.

---

(١) الشعراء، الآية ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

٥ ـ المتحذلقون الأغبياء:

ومن الأمور التي تلفت النظر هنا. أن البعض يحاول أن يفرغ هذه التضحية الرائعة، والامثولة الفريدة للنبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم من معناها ومغزاها، فيدعي رجماً بالغيب: أن النبي صلى الله عليه وآله كان لا يرى الشدة في حمل الحجارة[١]، رغم صراحة رواية أبي واقد المتقدمة بأن أبا واقد رأى النبي (ص) وقد بلغ منه. وعلى حد تعبير نص آخر: «وهو (ص) يكابد معهم».

وفي نص ثالث: وربما كان يحفر حتى يعيا، ثم يجلس حتى يستريح.

وفي نص رابع: «حتى عرق رسول الله (ص) وعيي». وكل ذلك قد تقدم مع مصادره.

٦ ـ لا عيش الا عيش الآخرة:

ولا ننسى أن نلفت نظر القارىء هنا إلى مضمون الشعر الذي كان يترنم به العاملون في الخندق، وما يتضمنه من ربط لهم بالآخرة، وبما يرجو المؤمنون تحقيقه من فوز وفلاح فيها.

كما أنه يحمل في ثناياه مقارنة عفوية فيما بين الدنيا والعيش فيها، وتفضيل عيش الآخرة عليه. ثم يشاركهم النبي في ترديد هذا الشعر، فتكون مشاركة للوجدان وللاحساس، ويتعمق لدى هذا الانسان الكادح المجاهد الشعور بالله سبحانه، وبالطافه ومواهبه، وما أحوجهم في هذا الظرف العصيب بالذات إلى احساس كهذا.

---

(١) الزهد والرقائق ص ٢٥٦.

٧ ـ الحماس والمثابرة:

وقد كان لمشاركة النبي (ص) هذه تأثير كبير في إثارة الحماس لدى العاملين في حفر الخندق. وقد اذكى هذا الحماس أيضاً معرفتهم بتحرك الاعداء باتجاه المدينة. واحساسهم بالخطر الذي يتهددهم.

٨ ـ الاسوة الحسنة:

لقد أجمع المؤرخون على أن النبي (ص) قد شارك في حفر الخندق. وتتفق هذه النصوص على أنها كانت مشاركة فعالة وحقيقية وجدية. وما نريد أن نلفت النظر إليه هنا هو:

أ ـ إن هذه المشاركة لم تكن شكلية، ومجرد تمثيل، كما عهدناه وألفناه من رؤساء الجمهوريات والوزراء وكبار المسؤولين في عصرنا الحاضر، حيث يضرب أحدهم بالمعول مثلاً ضربات أمام الجماهير في احتفالٍ تكريمي ليظهر على شاشات التلفزيون، وعلى صفحات الجرائد في .تعراض اعلامي مزيف، يهدف إلى تكريس زعامته ونفوذه، ولا شيء غير ذلك ثم يتابع رقابته على العمل والعاملين من موقع الآمر، من قصره المنيف او من برجه العاجي الزاهر.

فجاءت مشاركة النبي الاكرم (ص) في حفر الخندق بصيغة المعاناة الحقيقية، والصادقة، التي تمثل الاسوة في المعاناة الكادحة، لا مجرد الرمز والمثال. ولنسمع النشيد العفوي والصادق:

لئـــن قعـــدنـــا والنبـــي يعمـــل لـــذاك منـــا العمـــل المضلـــل

يقول البعض: «ان التاريخ لم يدون لنا غير حادثة مفردة عن

شخصية كان لها سلطان روحي وزمني ايضاً على امة من الأمم. ومع ذلك فقد عملت مثل عامل عادي، وجنباً إلى جنب مع اتباعها في ساعة الحرج الوطني العظيم»[١].

ب ـ إن مشاركته صلى الله عليه وآله وسلم في حفر الخندق تجسد عملياً المسافة بين جميع فئات المجتمع، وتخرجها عن أن تكون مجرد شعارٍ، يراد له أن يبقى في حدود إثارة المشاعر، في النشاط الإعلامي الجماهيري، دون أن يتجاوز ذلك ليصبح حياة وحركة، ونهجاً وسلوكاً.

فالمساواة في نظر الاسلام نهج وسلوك، وخلق اسلامي وانساني رفيع ونبيل، تنطلق من خلاله وعلى أساسه مثل وقيم في جهات حياتية شتى. ولاجل ذلك نجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشارك أصحابه في حفر الخندق مشاركة حقيقية، فهو يتعب كما يتعبون، ويرتجز كما يرتجزون، ويجوع كما يجوعون، ويشاركهم حلو العيش ومرّه، ويشترك معهم في تحمل المتاعب ومواجهة المصاعب، ويكون أكثرهم عناء، وأعظمهم غناء.

ج ـ إن هذه المشاركة منه (ص) لم تكن عن تواضع يريد من ورائه نيل رضاهم ومن خلال المواساة التي يتلمّسونها في مشاركته تلك. بل هي منطلقة بالاضافة إلى ذلك من قناعة راسخة بالقيم والمباديء، وبالمثل الاسلامية والانسانية، التي تجعل ذلك عبادة إلهية، وعبودية له سبحانه وتعالى، تلك العبادة والعبودية التي لا تستثني ولا تجامل ولا تحابي أحداً أيا كان.

---

(١) حياة محمد ورسالته ص ١٦٥ تأليف: مولانا محمد علي.

د ـ ومن الواضح: أن ارتباط النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالناس لم يكن من نوع الروابط التي تقوم بين الزعيم وبين قاعدته الجماهيرية، ولا كانت هي رابطة حاكم ورعية، وإنما كانت رابطة الابوة المسؤولة والواعية، التي يدفعها احساسها الابوي لتريد الخير لمن هم تحت تكفلها من موقع الوعي والتدبير، لا من موقع العاطفة الهوجاء، ولا من منطلق التفكير المصلحي، الذي يريد أن يستفيد من ذلك لتكريس زعامته، أو كسب امتيازات سياسية، أو اجتماعية أو غيرها.

ولأجل ذلك كانت مواساته صلى الله عليه وآله وسلم لاصحابه، في حالات الجوع، ثم مشاركته لهم في تلبيته لدعوة جابر لتناول الطعام رغم أن جابراً لم يجد في بيته إلا ما يكفي بضعة أشخاص، ولكن الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم قد دعا الجميع، وأطعم الجميع.

منع حسان وكعب بن مالك من الشعر:

وقال المؤرخون أيضاً: عن كعب بن مالك، قال: جعلنا يوم الخندق نرتجز ونحفر، فعزم رسول الله (ص) علي أن لا أقول شيئاً!

فقلت: هل عزم على غيري؟!

قالوا: حسان بن ثابت.

قال: فعرفت أن رسول الله (ص) إنما نهانا لوجدنا له، وقلته على غيرنا. فما تكلمت بحرف حتى فرغنا من الخندق.

وقال (ص) يومئذٍ: لا يغضب أحد مما قال صاحبه، لا يريد

بـذلـك سـوءاً. إلا مـا قـال كعـب وحسـان، فـانهمـا يجـدان ذلك[١].

وعند البيهقي: نهاهما ان يقولا شيئاً يُحفِظان به أحداً[٢].

وكان جعيل بن سراقة رجلاً صالحاً. وكان دميماً قبيحاً. وكان يعمل معهم في الخندق. وكان (ص) قد غير اسمه يومئذ وسماه عمراً. فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون:

سمـاه مـن بعـد جعيـل عمـراً وكـان للبـائـس يـومـاً ظهـرا

فجعل رسول الله لا يقول شيئاً بل يقفي معهم فقط، ويقول: عمراً. ظهراً[٣].

قال الحلبي: «وسياق أسد الغابة يدل على أن هذا الذي غير رسول الله (ص) اسمه وسماه عمراً غير جعيل المذكور»[٤].

ونشير نحن هنا إلى ما يلي:

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٧ وراجع: الامتاع ج ١ ص ٢٢١ وراجع: دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٩.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٩.

(٣) راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٦. وراجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٧ و٤٤٨ متناً وهامشاً وراجع دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠٩ و٤١٠. والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٢٨/٢٢٧ وتاريخ الامم والملوك ج ٢ ص ٢٣٤ و٢٣٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٣ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١١/ ٣١٢ وراجع: الامتاع ص ٢٢٢ واسد الغابة ج ١ ص ٢٩٠ وقال: اخرجه ابو موسى والاصابة ج ١ ص ٢٤٠.

(٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥١٢ وراجع اسد الغابة ج ١ ص ٢٩٠.

الكلمة المسؤولة القرار الحاسم:

إن هذه النصوص التي ذكرناها قد أظهرت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد اتّخذ قراراً حاسماً بمنع حسان بن ثابت وكعب بن مالك من انشاد أو قول شيء حين حفر الخندق.

والذي يظهر لنا من ثنايا الكلمات هو أن حساناً وكعب بن مالك لم يلتزما بالضوابط الاخلاقية والاسلامية فيما قالاه وأنشداه، بل هما قد تجاوزا الحد، وأغضبا الآخرين. ويشير إلى ذلك:

١ ـ أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد اختص هذين الرجلين بالمنع، ولم يعزم على أحد غيرهما.

٢ ـ كما أن قوله (ص) يومئذ: لا يغضب أحد مما قال صاحبه، لا يريد بذلك سوءاً الخ.. صريح في أنه قد قيل ثمة ما يوجب الغضب، حتى احتاج الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم للتدخل لتلطيف الأجواء، وسل السخيمة.

٣ ـ ولعل قصة جعيل بن سراقة هي أحد الشواهد على هذا التعدي على الآخرين، حيث كان من الطبيعي أن ينزعج هذا الرجل، الذي وصف بالقبح والدمامة، من ارتجازهم الشعر في حقه، ويعد ذلك نوعاً من العبث والاستهانة به، والاحتقار له.

ومن هنا، فاننا نشك كثيراً في قولهم: إن النبي (ص) جعل يقفي معهم، ويقول: عمراً، ظهراً...

مع أننا نلاحظ على النص المذكور: أنه قد ألمح إلى أن سكوت النبي عن انشادهم الشعر في حق جعيل كان ملفتاً للنظر، حيث يقول النص: «فجعل رسول الله لا يقول شيئاً، بل يقفي معهم فقط».

وبعد ما تقدم نقول: اننا نلمح في النصوص المتقدمة محاولة للتحريف والتصرف في النص، بهدف التعتيم على حقيقة ما جرى، حيث حاول أن يصور لنا: أن منع حسان وكعب من قول شيء إنما كان لأجل قدرتهما على قول الشعر وقلته على غيرهم.

مع أن القضية ما كانت تتطلب الكثير من قول الشعر آنئذٍ، بل يكفي البيت أو البيتان ليرددهما الآخرون مدة طويلة، وفقاً لما حفظه لنا التاريخ في هذه المناسبة. بالاضافة إلى ان الكثيرين كانوا يجيدون الشعر مثل كعب وحسان.

ولم يكن ثمة داع لتحاسد القوم في أمر كهذا في مناسبة كهذه، وإلا كان اللازم هو أن يحسدوا حساناً وكعب بن مالك في سائر المناسبات، ويمنعهما النبي (ص) من هجاء المشركين، ومن نظم الشعر في كثير من المناسبات الأخرى.

ولم نجد في ما بأيدينا من نصوص تاريخية أن حدث ما يشبه هذه القضية في أي من المناسبات الأخرى، لا مع النبي، ولا مع غيره.

وذلك يجعلنا نطمئن إلى حدوث تجاوز منهما للحد أوجب أن يقف النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم منهما هذا الموقف الحازم والحاسم.

فليتأمل في تاريخ حياة هذين الرجلين فقد يجد المتتبع فيها الكثير مما لا يحسن ولا يجمل، وقد تقدم في أواخر الحديث عن غزوة بني النضير شيء غريب صدر من حسان، وربما تأتي الاشارة لأشياء أخرى صدرت منه ومن غيره. والله هو المسدد والهادي.

زيد بن ثابت:

«كان زيد بن ثابت ممن ينقل التراب، فقال رسول الله (ص) في حقه: أما إنه نعم الغلام، وغلبته عينه، فنام في الخندق. فأخذ عمارة بن حزم سلاحه، وهو نائم. فلما قام فزع على سلاحه، فقال له (ص): يا بار، [يا ابا رقاد] قد نمت حتى ذهب سلاحك؟ ثم قال: من له علم بسلاح هذا الغلام؟!

فقال عمارة: أنا يا رسول الله، هو عندي.

فقال: ردّه عليه. ونهى أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعبا»[1].

وكان المسلمون قد انكشفوا يريدون يطيفون بالخندق ويحرسونه، وتركوا زيداً نائماً ولا يشعرون به. ونقول:

لا ندري مدى صحة ما ينسب إلى النبي: أنه قاله في حق زيد بن ثابت. دون سائر من كانوا ينقلون التراب من شباب وغيرهم، من دون مبرر ظاهر، أو سبب معقول، أو فعل متميز من زيد على من سواه، يستدعي أن يخلع عليه النبي الاوسمة، ويخصه بالتقاريض والمدائح.

غير أننا نعلم: أن زيداً كان ممن تهتم السلطة بأمره. وتعمل على رفعة شأنه، وتخصيصه بكل غال ونفيس ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، لأنه كان من أعوانها بل من أركانها كما أشرنا إليه في فصل تعليم زيد للغة العبرانية، فلا نعيد.

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٣ والامتاع ج ١ ص ٢٢٢ والاصابة ترجمة زيد بن ثابت والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٨.

سلمان منا أهل البيت:

ويقولون: إن المسلمين جعلوا إذا رأوا في الرجل فتوراً ضحكوا منه. وتنافس الناس يومئذٍ في سلمان الفارسي، فقال المهاجرون: سلمان منا. وكان قوياً عارفاً بحفر الخنادق.

وقالت الأنصار: هو منا ونحن أحق به.

فبلغ رسول الله (ص) قولهم فقال: سلمان رجل منا أهل البيت(١).

«ولقد كان يومئذٍ يعمل عمل عشرة رجال، حتى عانه (أي أصابه بالعين) يومئذٍ قيس بن أبي صعصعة فلُبط به (أي صُرع وسقط إلى الارض) فسألوا رسول الله (ص)، فقال: مروه فليتوضأ له، وليغتسل به، ويكفأ الاناء خلفه.

ففعل، فكانما حلّ من عقال(٢)».

وحسب نص آخر أوضح وأصرح «روي أنه كان يعمل في الخندق عمل الرجلين. وفي رواية كان يحفر كل يوم خمسة أذرع من

---

(١) المغازي للواقدي ج ١ ص ٤٤٦ وراجع: الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧٩ وراجع: تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٥ وراجع: شرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٣ وراجع: سيرة المصطفى ص ٤٩٥. عن الطبري وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٢ السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٣ والامتاع ج١ ص ٢٢١ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٩ ومجمع البيان ج ٢ ص ٤٢٧ وج ٨ ص ٣٤١ والبحار ج ٢٠ ص ١٨٩ و١٩٨ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠٠ و ٤١٨ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٥٩٨ ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٥ وراجع ص ١٢٠٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٢.

(٢) المغازي للواقدي ج ١ ص ٤٤٧ والامتاع ج ١ ص ٢٢١ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٥.

الخندق، وعمقها أيضاً خمسة أذرع؛ فعانه قيس بن صعصعة، فصرع، وتعطل من العمل، فأخبر بذلك رسول الله (ص)؛ فأمر أن يتوضأ قيس لسلمان، ويجمع وضوءه في ظرف، ويغتسل سلمان بتلك الغسالة، ويكفأ الإناء خلف ظهره.

ففعل، فنشط في الحال كما ينشط البعير من العقال»[١].

وقصة التنافس في سلمان وقول النبي (ص): سلمان منا أهل البيت مذكورة في العديد من المصادر، فلتراجع في مظانها[٢].

ونص آخر يقول: إنه حين حفر الخندق كان المسلمون ينشدون سوى سلمان، فرأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك؛ فدعا الله تعالى: أن يطلق لسان سلمان، ولو ببيتين من الشعر. فأنشد سلمان ثلاثة أبيات هي:

مـا لـي لسـان فـأقـول شعـرا أسـأل ربـي قـوة ونصـرا
علـى عـدوي وعـدو الطهـرا محمـد المختـار حـاز الفخـرا
حتـى أنـال فـي الجنـان قصـرا مـع كـل حـوراء تحـاكـي البـدرا

فضج المسلمون، وجعلت كل قبيلة تقول: سلمان منا. فقال

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٣ و٣١٤ وراجع: الامتاع ج ١ ص ٢٢١ وراجع المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٧.

(٢) الطبقات الكبير لابن سعد ج ٤ قسم ١ ص ٥٩ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٢ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٥ وراجع: الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧٩ والبحار ج ٢ ص ١٨٩ عن مجمع البيان ج ٢ ص ٤٢٧ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٣. وراجع: أسد الغابة ج ٢ ص ٣٣١ وذكر أخبار اصبهان ج ١ ص ٥٤ وتهذيب تاريخ دمشق ج ٦ ص ٢٠٠ ونفس الرحمان ص ٣٤/ ٣٥ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٥٩٨.

النبي صلى الله عليه وآله: سلمان منا أهل البيت(١)

ونقول:

إننا نشك في صحة ذلك كله، وذلك للأمور التالية:

أولاً: إنه عدا عما في هذه الأبيات الأخيرة من الهنات. لا نجد المبرر المذكور لدعاء النبي (ص) لسلمان كافياً في تبرير ذلك، لأن الذين كانوا ينشدون الشعر، ما كانوا ينشدون من نظمهم، بل كان الناظم واحداً من الناس، والباقون يرددون المنظوم بطريقة معينة، ووقع خاص يتناسب مع الحالة التي يعيشونها؛ وقد كان باستطاعة سلمان أن يردد ذلك النشيد مع المرددين، من دون حاجة إلى أن ينظم شعراً، كما صورته لنا الرواية.

وثانياً: إن ما ذكروه في سبب اطلاق هذه الكلمة النبوية الخالدة في حق سلمان: «سلمان منا أهل البيت» لا يعدو أن يكون أمراً عادياً، بل وتافهاً، لأن معناه: أن تكون قضية الاستفادة من قوة سلمان البدنية موضع تنافس الفرقاء، وقد حسم النبي (ص) نزاعهم، بتحويل سلمان إلى القسم الذي كان يعمل هو صلى الله عليه وآله واهل بيته فيه، فكانت تلك الكلمة ايذاناً بذلك.

وهذا معناه أن تفقد هذه الكلمة قيمتها وأهميتها. وهكذا الحال بالنسبة لحكاية اطلاق لسان سلمان بالشعر، ثم تنافس الفرقاء فيه، فجعله صلى الله عليه وآله جزءاً من فئة تحسن التكلم بالعربية، وتحب أن تكرمه وتشجعه، لأنه نطق بلغتها.

---

(١) راجع: المناقب لابن شهر اشوب ج ١ ص ٨٥. وقاموس الرجال ج ٤ ص ٤٢٤ والدرجات الرفيعة ص ٢١٨، ونفس الرحمان ص ٤٣.

إذن، فلم يكن هذا الوسام لسلمان قد استحقه لعلمه، أو لدينه، أو لمواقفه، أو لغير ذلك من أمور تدخل في نطاق صفات واعمال الخير والصلاح فيه.

وبعد هذا فلا يبقى مبرر لما نلاحظه في كلمات الأئمة عليهم السلام من تركيز على هذا الوسام، وتأكيد لواقعيته ومصداقيته فيه رضوان الله تعالى عليه..

كما لا معنى لاستدلال ابن عربي على عصمة سلمان بهذه الكلمة المأثورة عن النبي (ص) في حقه، باعتبار أن أهل البيت معصومون مطهرون، بنص آية التطهير[١].

الصحيح في القضية:

ولعل الصحيح في القضية، الذي ينسجم مع وقائع التاريخ، ومع ما عهدناه من سياسات انتهجها الحكام طيلة عشرات السنين هو النص التالي:

«إن سلمان الفارسي رضي الله عنه دخل مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم، فعظموه، وقدموه، وصدروه، اجلالاً لحقه، واعظاماً لشيبته، واختصاصه بالمصطفى وآله.

فدخل عمر، فنظر إليه فقال:
من هذا العجمي المتصدر فيما بين العرب؟!
فصعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبر؛ فخطب، فقال:

---

(١) راجع: سلمان الفارسي، للعلامة السبيتي ص ٤٠ ونفس الرحمان ص ٣٢، كلاهما عن الفتوحات المكية.

إن الناس من عهد آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط. لا فضل للعربي على العجمي، ولا للأحمر على الاسود إلا بالتقوى. سلمان بحر لا ينزف، وكنز لا ينفد. سلمان منا أهل البيت»[١].

وهكذا يتضح: أن سلمان المحمدي قد تعرض لمحاولة تحقير وامتهان، من قِبَلِ رائد «التمييز العنصري» بعد وفاة النبي (ص)، الذي شاع وذاع عنه أنه لم يحب تزويج سلمان. وكان يكره الفرس، ويمقتهم وقد حرمهم من أبسط الحقوق[٢]، فانتصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لسلمان، وأدان المنطق الجاهلي، والتمييز العرقي والعنصري، بصورة صريحة، وقوية وقاطعة.

تقتلك الفئة الباغية:

روي في صحيح مسلم «عن أبي قتادة: أن رسول الله (ص) قال لعمار حين يحفر الخندق، فجعل يمسح رأسه ويقول:

بؤس ابن سمية، تقتلك الفئة الباغية»[٣].

لكن القمي قد فصّل ذلك حيث قال:

«قوله: يمنون عليك أن اسلموا، نزلت في عثكن (عثمان) يوم

---

(١) الاختصاص ص ٣٤١ ونفس الرحمان في فضائل سلمان ص ٢٩. والبحار ج ٢٢ ص ٣٤٨.

(٢) قد تكلمنا حول سياسات عمر تجاه غير العرب ومع سلمان في كتابنا: سلمان الفارسي في مواجهة التحدي فراجع..

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١ عن صحيح مسلم. وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٢.

الخندق. وذلك أنه مرّ بعمار بن ياسر، وهو يحفر الخندق، وقد ارتفع الغبار من الحفر، فوضع كمه على أنفه ومرّ. فقال عمار:

لا يستوي من يبتني المساجداً ... يظل (فيصلي) فيها راكعاً وساجداً

كمن يمر بالغبار حائداً ... يعرض عنه جاحداً معاندا

فالتفت إليه عثكن، فقال: يا ابن السوداء إياي تعني؟ ثم أتى رسول الله (ص) فقال له: لم ندخل معك لتسب اعراضنا.

فقال له رسول الله (ص): قد أقلتك اسلامك فاذهب. فأنزل الله: يمنون عليك أن اسلموا الخ»[1].

وقد تقدم في جزء سابق حين الحديث عن بناء مسجد المدينة: أن ذلك قد حصل في تلك المناسبة في قضية حصلت بين عمار وعثمان، ونقول:

إننا لا نريد أن ندخل في موضوع تحقيق الحق في كون ذلك قد حصل في البناء الاول للمسجد أو الثاني، أو في حفر الخندق؛ فان تحقيق ذلك ليس له كبير أهمية ما دام أن أصل القصة، وكلمة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم مما لا شك فيه، ولا شبهة تعتريه، وقد أجمع عليه المحدثون والمؤرخون، بل والمسلمون قاطبةً، وأصبح من المسلمات غير أننا نذكر القارىء هنا بأمرٍ هام، وهو:

أن طريقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والائمة الأطهار في التربية والتعليم لها مرتكز أساس، وهو الاعتماد على بلورة المعايير والمنطلقات الأساسية في النهج الفكري والعقيدي للناس بصورة عامة، ثم تفويض أمر اختيار ما يتناسب مع تلك المعايير، ويتطابق مع

---

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ٣٢٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٤٣.

هاتيك الضوابط إلى الناس أنفسهم، فنجد الناس مثلاً هم الذين يقومون بعملية التعرف على الامام، بما لديهم من ضوابط ومعايير يمارسون تطبيقها بأنفسهم، وتوصلهم إلى الامام الحق، بصورة قويمة وسليمة، من دون حاجة إلى التنصيص عليه بالاسم، كما كان الحال حينما أوصى الامام الصادق إلى خمسة احدهم الامام موسى، حيث عرف الشيعة أن الامام لا يمكن أن يكون ذلك الحاكم الظالم، كما لا يمكن أن يكون هو زوجة الامام، ثم لا يمكن أن يكون هو الولد الاكبر مع إشراك الاصغر في الوصية(١).

والأمر في قصة عمار أيضاً من هذا القبيل، حيث قدم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم للناس آنئذٍ ضابطة يعرفون بها فريق البغاة، ويميزونه عن غيره، دون أن يصرح صلى الله عليه وآله وسلم بالاسم أو بالاسماء، الامر الذي قد يحمل معه سلبيات كثيرة ومتنوعة بشكل أو بآخر..

ومن الواضح: أن لهذه التربية الفكرية ولصياغة الشخصية الاسلامية بهذه الطريقة آثار إيجابية كبيرة وهامة جداً. وذلك لما ينتج عنها من حصانة ومناعة لدى الانسان المسلم في مقابل محاولات الخداع والتضليل التي ربما يتعرض لها من قبل أهل الدعوات الفاسدة والمشبوهة، ويصبح في مأمن من الوقوع في شراكهم التي ينصبونها له ولأمثاله..

كما أنها تجعله قادراً على نقل المفاهيم التي يؤمن بها إلى الآخرين بالطريقة المنطقية والمقبولة والمعقولة.

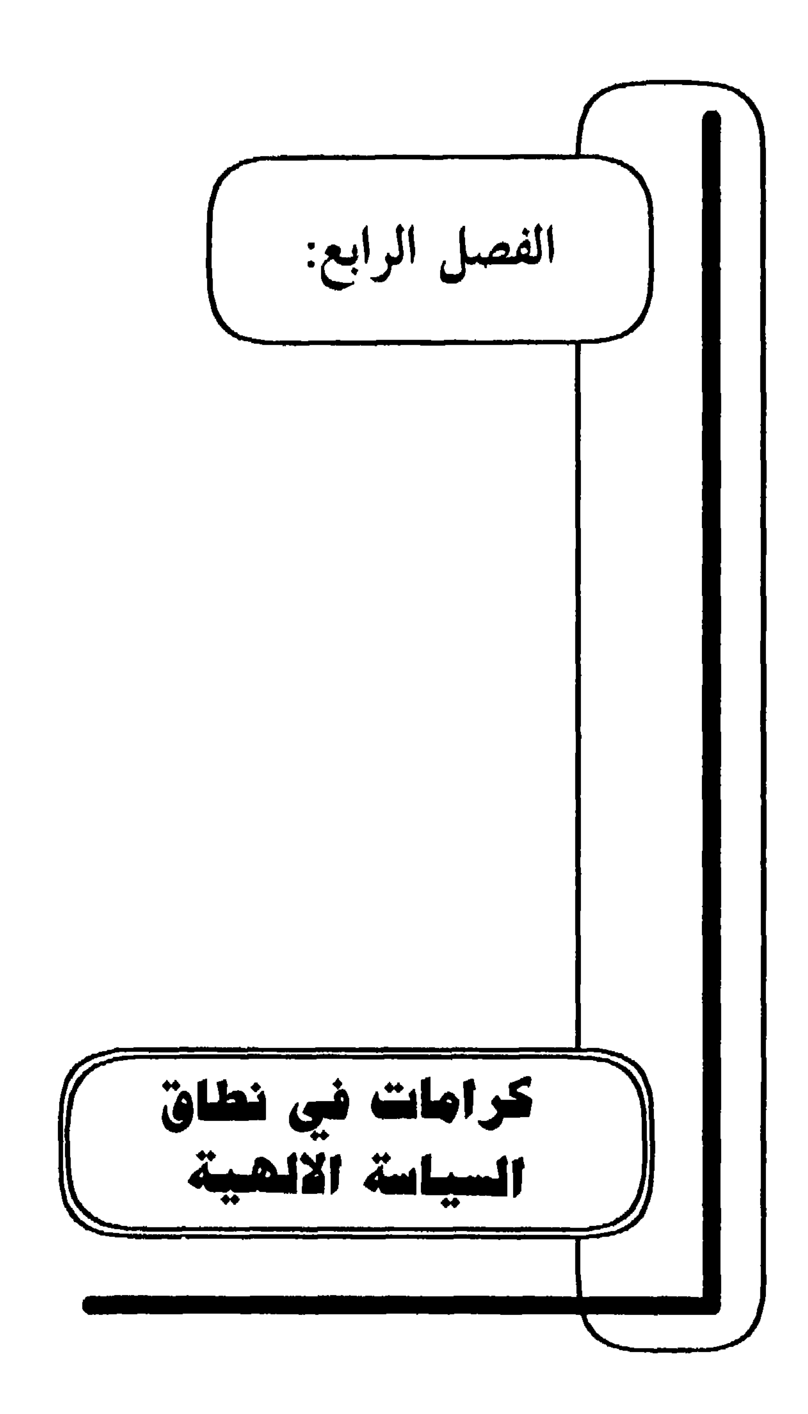
---

(١) راجع: البحار ج ٤٧.

ثم هي تمكنه من أن ينأى بنفسه عن أن يكون من الهمج الرعاع الذين ينعقون مع كل ناعق، ويسيرون في ركاب كل قبيل، دون وعي، أو تأمل في الأمور وفي عواقبها..

أضف إلى ذلك: أنها تخرج الانسان المسلم عن دائرة التلقين الأعمى، ليصبح قادراً على التفاعل مع الفكرة، أو مع أية قضية تعرض عليه، ولكن لا من موقع التأثر والانفعال العاطفي أو اللاشعوري، بل من موقع التأمل والتروي والوعي والضبط والانضباط بكل ما لهذه الكلمات من معنى دقيق، وعميق.

وهذا بحث هام ومتشعب، يحتاج إلى توفر تام، من أجل حشد الشواهد والدلائل الكثيرة والمتنوعة، للاستفادة منها كطريقة عمل، ومنهج حياة، وسبيل صلاح واصلاح، إن شاء الله تعالى.



الفصل الرابع:

كرامات في نطاق السياسة الالهية



مما سبق:

قد تحدثنا في الجزء السابق، في غزوة ذات الرقاع عن معرفة الانبياء والأوصياء بلغات البشر، بل ومنطق الطير وسائر الحيوانات.

وتحدثنا أيضاً هناك عن الكرامات التي نقلت عن نبينا الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم وعن الأئمة الأطهار وعن الانبياء السابقين وغيرهم. مما أشار القرآن إلى بعض منه أيضاً.

وقد ذكرنا ثمة توضيحاً لا غنى عن المراجعة إليه، من أجل جعل الأمور في نصابها في نطاق فهم هذه الكرامات والمعجزات التي سجل لنا القرآن والتاريخ والحديث منها العشرات والمئات في مختلف الشؤون والمجالات.

فنرجو من القارىء الكريم أن لا ينسى مراجعة ما كتبناه هناك، وبدون ذلك، فان فهم هذه القضايا ليس فقط سوف يكون ناقصاً، وإنما قد يكون غير واقعي ولا دقيق.

الكرامات والمعجزات في الخندق:

لقد كان المسلمون يواجهون يوم الخندق أعظم تحدٍ واجهوه

سواء من حيث العدد، أو من حيث العدة، بالاضافة إلى حالة الحصار التي يعانون منها.

ثم يتعاظم احساسهم بالخطر الذي يتهددهم: وهم يجدون امارات الغدر والخيانة قد ظهرت، لدى أولئك الذين كان لهم معهم عهود ومواثيق، فلم تعد العهود قادرة على اعطاء أدنى شعور بالأمن والسكون إليها. كما أن كل ما عمله النبي والمسلمون من احسان، وما اتخذوه من مواقف انسانية قد اتضح أنه لم يمنع من تلقوا ذلك الإحسان من أن يحالفوا العدو، وينقلبوا على من أحسن إليهم ليقابلوه بالاساءة، فيكتشف المسلمون أنهم مجموعة من الذئاب، والسباع الشرسة، التي تفقد كل المعاني الانسانية، وكل الشيم التي يعتز بها الانسان العربي، ويفتخر بها..

ثم هناك وجود المنافقين فيما بين المسلمين، الذين كانوا ينخرون في جسم الأمة، ويعملون على تمزيقها، وزرع الشكوك القاتلة، وايجاد الريب المهلك فيها..

فتأتي هذه الكرامات لتكون صمام الامان لهذه القلوب الخائفة، والمفجوعة، وليربط الله بها على قلوبهم، ولتزيد في يقينهم وبصيرتهم. وتشد من عزيمتهم.

قال الشيخ محمد ابي زهرة: «ان الآيات المادية قد تؤثر في أولئك الماديين الحسيين، وخصوصاً إذا كانت في موطن الفزع؛ فانها إذا جاءت من غير سبب يألفونه ويعرفونه؛ فانها قد تأخذ عقولهم إلى التفكير السليم، وتخلعها من الوثنية، إذ يدخل إليها نور الحق شيئاً فشيئاً، والنور كلما دخل اشرق، وإذا أشرق

اتجهوا الى الحق وطلبوه»[1].

ويلاحظ هنا: أن بعض هذه الكرامات قد اقترنت بإخبار النبي صلى الله عليه وآله للمسلمين بأن البلاد سوف تفتح عليهم حتى الامبراطوريات العظمى التي كانت تحكم العالم آنئذٍ، وهما امبراطوريتا الروم وفارس.

وإذا جاء الخبر من الصادق المصدق، الذي يعتقد المسلمون أنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، في حالة مواجهة الاخطار الكبرى والمصيرية، فانه يكون اكثر رسوخاً في النفس، وأعظم أثراً في اثارة الهمم وشحذ العزائم.

ونحن نشير هنا إلى طائفة من هذه الكرامات، بقدر ما يسمح لنا به المجال، فنقول:

نبوءة صادقة للنبي (ص):

يقول المقريزي وغيره: «وضرب بالكرزن، فصادف حجراً، فصلّ الحجر (أي تردد صوته في صليل الفأس)، فضحك رسول الله (ص).

فقيل: مم تضحك يا رسول الله؟!

قال: أضحك من قوم يؤتى بهم من المشرق في الكبول (الكبل القيد العظيم)، يساقون إلى الجنة وهم كارهون»[2]

(١) خاتم النبيين ج ٢ ص ٩٤٤.

(٢) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٣ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٩ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٥ عن ابن النجار.

والظاهر: أن هذا إشارة لأهل فارس.

ومن الواضح: أن هذه البشارة منه (ص) للمسلمين إنما يراد منها أن تعطيهم انطباعاً بصورة عفوية وتلقائية بأن هذه الدعوة مستمرة وباقية، فلا يهولنهم جمع قريش والأحزاب لهم:

فما ذلك إلا: «سحابة صيف عن قليل تقشع».

كرامة أخرى لرسول الله (ص):

عن جابر بن عبد الله قال: أصاب الناس كدية يوم الخندق، فضربوا فيها بمعاولهم حتى انكسرت، فدعوا رسول الله (ص)، فدعا بماء فصبه عليها، فعادت كثيباً أهيل.

وفي نص آخر ـ ذكره البخاري وغيره: أنه (ص) قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً الخ..(١)

---

(١) راجع المصادر التالية: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٢ وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢١ وتاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٢٨. والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٠ واعلام الورى ص ٩٠ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٤ و٢٤٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٦ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٧ و٩٨ عن ابن اسحاق، وأحمد، والبخاري والبيهقي، وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٤ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٩ وحدائق الانوار ج ٢ ص ٥٩١ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤١ والبحار ج ٢٠ ص ١٩٨، ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٧٠ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤١٥ و٤١٦ و ٤٢٣ ودلائل النبوة لابي نعيم ص ٣٥٨ والمختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٣٤ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٧ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١١ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٨.

ويبدو أن هذه قضية أخرى غير قضية سلمان الآتية التي أخبر (ص) المسلمين فيها عن الفتوح التي يفتحها الله عليهم.

قصور الروم وفارس:

ومن الأمور التي يذكرها المؤرخون هنا قضية الصخرة التي واجهت المسلمين وهم يحفرون الخندق وكانت سبباً في أن يخبر النبي المسلمين بأخبار غيبية تحققت فيما بعد.

ونحن نذكر النص التاريخي للرواية أولاً. ثم نشير الى بعض ما يرتبط به، فنقول:

كان سلمان، وحذيفة والنعمان بن مقرن، وعمرو بن عوف، وستة من الأنصار يعملون في اربعين ذراعاً فخرجت عليهم صخرة كسرت المعول. فأعلموا النبي صّ بالأمر.

وفي نص آخر يقول فيه عمرو بن عوف: فحفرنا حتى إذا كنا بجب ذي باب [والظاهر: أن الصحيح: تحت ذباب](١) أخرج الله من باطن الخندق صخرة مروة كسرت حديدنا، وشقت علينا.

فطلبوا من سلمان أن يخبر النبي ص بأمرها. «فإما أن نعدل عنها؛ فان المعدل قريب، واما أن يأمرنا فيها بأمره، فانا لا نحب أن نتجاوز خطه.

فرقى سلمان إلى رسول الله (ص)، وهو ضارب عليه قبة تركية فأخبره فهبط مع سلمان وبطنه معصوب بحجر، ولبثوا ثلاثة أيام لا

---

(١) ذباب: جبل بجبّانة المدينة. وهو الجبل الذي عليه مسجد الراية. واسمه ذوناب أيضاً. راجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٢.

يذوقون ذواقاً، والتسعة على شفير الخندق.

وفي نص آخر عن سلمان، قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت علي ورسول الله (ص) قريب مني؛ فلما رآني أضرب، ورأى شدة المكان علي أخذ المعول، وضربها به ضربة فصدعها. وبرق منها برق أضاء ما بين لابتي المدينة، فكبر (ص) تكبيرة، وكبر المسلمون.

ثم ضربها الثانية فكذلك، ثم الثالثة فكذلك أيضاً؛ فصدعها.

فأخذ بيد سلمان ورقى، فسأله سلمان عن الأمر الذي رآه ورآه المسلمون، وعن تكبير النبي (ص)، فأخبرهم صلى الله عليه وآله: أنه بالبرقة الأولى أضاءت له قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأخبره جبرئيل بأن أمته ظاهرة عليها.

وفي الثانية: أضاءت له القصور الحمر من أرض الروم. وأخبره جبرئيل بأن أمته ظاهرة عليها.

وفي الثالثة أضاءت له قصور صنعاء، وأخبره جبرئيل بأن أمته ظاهرة عليها فأبشروا.

فاستبشر المسلمون وقالوا:

الحمد لله موعد صدق، وعدنا النصر بعد الحصر.

فقال المنافقون، ومنهم معتب بن قشير: ألا تعجبون من محمد!! يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم بأنه يبصر من يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم. وانتم إنما تحفرون الخندق من الفرق، لا تستطيعون أن تبرزوا.

فنزل القرآن: وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: ما

وعدنا الله ورسوله إلا غرورا الخ[1].

وقيل: ان قائل ذلك هو عبدالله بن أبي بن سلول[2].

---

(١) للرواية نصوص مختلفة. فراجعها على اختلافها في المصادر التالية.
تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٢ و٤٨٣ وراجع ص ٤٨٤ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٨ ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٧ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٥٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٣ و٤ و٥ والامالي للشيخ الصدوق ص ٢٥٨ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٣ و٣١٤ و٣١٨ وبحار الانوار ج ٢٠ ص ٢٥٣ و٢١٩ ص ١٨٩ و١٩٠ وج ١٨ ص ٣٢ ومجمع البيان ج ٢ ص ٤٢٧ و٤٢٨ وج ٨ ص ٣٤١ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٩/٤٠٠ وراجع ص ٤١٧ و٤١٩ ـ ٤٢١ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٧٩ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٥ و٢٣٦ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٩ و٥٢٠، عن أحمد، والشيخين، وابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابي نعيم، والطبراني والبيهقي، وتاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦١ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٠ و٢٢٨ وحدائق الأنوار ج ١ ص ٥٣ والخصال ج ١ ص ١٦٢ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٢ و١٦٠ واعلام الورى ص ٩٠ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨١ والروض الأنف ج ٣ ص ٢٧٧ وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢١ والخصائص الكبرى للسيوطي ج ١ ص ٢٢٨ ط الهند، والوفاء ص ٦٩٣ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤٦ و٢٣٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٩ و٩٧ و٩٨ و١٠٠ و١٠١ و١٠٢ والمختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٣٥ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٥٩٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩١ ـ ١٩٥ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٢ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١١ ـ ١١٢ ودلائل النبوة لأبي نعيم ص ٤٣٢ وعن سنن النسائي ج ٢ ص ٦٥ وعن ابن اسحاق وراجع: تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥١ وراجع: شرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٥ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٧٨ والخرايج والجرايح ج ١ ص ١٥٢ وفيه أن المسلمين هم الذين رأوا تلك البلاد.

(٢) السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥.

وفي نص آخر: أن المنافقين قد قالوا ذلك عند ميجيء الاحزاب[١].

وهذا هو ما نرجحه، لأن سياق الآيات إنما يناسب حالة الشدة التي عانى منها المسلمون بعد مجيء الأحزاب، وحدوث الحصار، كما سنوضحه إن شاء الله تعالى.

ويظهر من نص للطبراني: أن هذه القضية قد حدثت بعد قصة دعوة جابر للنبي وأهل الخندق للطعام[٢] كما سيأتي. وصرح القمي بأن هذه القضية قد كانت في اليوم الثاني من بدء حفر الخندق[٣].

وذكر نص آخر: أنه صلى الله عليه وآله وسلم «جعل يصف لسلمان أماكن فارس، ويقول سلمان: صدقت يا رسول الله، هذه صفتها، أشهد أنك رسول الله.

ثم قال رسول الله (ص): هذه فتوح يفتحها الله بعدي يا سلمان»[٤].

وعن أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: لما حفر رسول الله الخندق مرو بكدية، فتناول رسول الله (ص) المعول من يد

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٢.
(٢) راجع: السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠١.
(٣) تفسير القمي ج ٢ ص ١٧٨ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢١٩ عنه.
(٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٤ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٠ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٠.

أمير المؤمنين، أو من يد سلمان، فضرب بها ضربة، فتفرق بثلاث فرق.

فقال رسول الله (ص): لقد فتح الله علي في ضربتي هذه كنوز كسرى وقيصر.

فقال أحدهما لصاحبه يعدنا كنوز كسرى وقيصر، وما يقدر أحدنا يخرج يتخلى[1]. والمراد بأحدهما وصاحبه هو أبو بكر وعمر، ولم يذكر اسميهما صراحة تقية.

ونقول: لكن هذه الرواية تخالف ما تقدم عن ابن الوردي وزيني ودحلان من أن الذي قال ذلك هو معتب بن قشير، أو عبدالله بن أبي.

نص آخر يخالف ما سبق:

ويقولون ايضاً: كان عمر بن الخطاب يضرب يومئذ بالمعول، فصادف حجراً صلداً، فأخذ(ص) منه المعول، وهو عند جبل بني عبيد فضربه، فذهبت أولها برقة الى اليمن. ثم ضرب أخرى فذهبت برقة الى الشام، ثم ضرب ثالثة فذهبت برقة نحو المشرق. وكسر الحجر عند الثالثة.

فكان عمر بن الخطاب يقول: والذي بعثه بالحق. لصار كانه سهلة (رمل ليس بالدقاق).

وكان كلما ضرب ضربة يتبعه سلمان ببصره، فيبصر عند كل ضربة برقة، فسأله عن ذلك، فأخبره ص: أنه رأى في الأولى قصور الشام، وفي الثانية قصور اليمن، وفي الثالثة قصر كسرى الابيض

---

(١) بحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٧٠/ ٢٧١ عن الكافي.

بالمدائن. وجعل يصفه لسلمان. فصدقه سلمان، وشهد له بالرسالة.

فقال ص: هذه فتوح يفتحها الله عليكم بعدي يا سلمان، لتفتحن الشام، ويهرب هرقل الى أقصى مملكته، وتظهرون على الشام فلا ينازعكم احد ولتفتحن اليمن، وليفتحن هذا المشرق. ويقتل كسرى بعده.

قال سلمان: فكل هذا قد رأيت[1].

ونقول:

إن هذا النص ـ كما ترى ـ يخالف جميع النصوص الأخرى، الواردة في كتب الصحاح، والمسانيد، وفي كتب التاريخ، التي سجلت لنا هذا الحدث الهام.

حيث إنه يذكر: أن عمر بن الخطاب هو الذي صادف الحجر الصلد، الذي ضربه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فبرقت البرقات الثلاث.

مع أن النصوص التي أوردتها سائر المصادر المعتبرة بالاسانيد الموثوقة قد نصت على أن القضية بجميع فصولها وخصوصياتها، وجزئياتها قد كانت مع سلمان الفارسي. بل قد ذكر النص الذي أوردناه أولاً اسماء ثلاثة ليس عمر بن الخطاب أحدهم. ثم صرح بأن الستة الباقين جميعهم من الانصار.

بل إن نفس هذا النص الذي ذكرناه آنفاً، والذي أراد حشر اسم

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٠ و٤٤٩ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٣ واشار إليه في سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٩ و٥٢٠ عن الواقدي ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٨.

الخليفة الثاني في هذه القضية، قد عاد والتزم جانب سلمان، بمجرد أن أخذ النبي صلى الله عليه وآله المعول ليضرب به ذلك الحجر. ولم يعد لعمر فيه أي دور يذكر..

وكل ذلك يعطينا: أن ذكر اسم الخليفة الثاني هنا قد جاء سهواً من الراوي، ولعل ثمة حاجة في النفس قضيت.

القيادة الحازمة، والإنضباط أساس النجاح:

وبعد، فإن سيطرة القيادة النبوية الشريفة على الموقف، واشرافه صلى الله عليه وآله وسلم على كل تحرك، وتصرف، واستتباب حالة الانضباط التام لدى الفئات التي كانت تعمل معه، وتحت قيادته، له تأثير كبير في حسم الموقف، وفقاً لما ترسمه القيادة ويحقق أهدافها.

وقد تجلت الهيمنة القيادية للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في اكثر من مجال في غزوة الأحزاب، وقد قرأنا آنفاً: أنهم حين ظهرت الكدية والصخرة قالوا: إنهم ما كانوا يتجاوزون ما خطّه رسول ص أبداً، رغم أن المعدل قريب وتقدم أيضاً: أن أحداً لم يكن يترك موضعه وعمله لحاجة يريدها إلا أن يأذن له النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا هو ما طالب به أمير المؤمنين بعض أصحابه في صفين حين قال له: طاعة امامك اوجب عليك من مبارزة عدوك. ونجد أمثال هذه الكلمة في مغزاها ومرماها الكثير في مختلف المواضع والمواقع.

وهذا الانضباط هو الضمانة للنجاح في أية خطة ترسم، إذ أن القبول بالانسياق وراء الاجتهادات المختلفة يفقد القيادة الثقة بامكانية

تحقيق أية خطة تضعها للمواجهة، ثم هو يفسح المجال لتمرير بعض الخدع التي تفيد الاعداء، وتهيىء لهم الظرف الملائم لتسديد ضرباتهم الموجعة، والخطيرة في احيان كثيرة. أضف الى ذلك ما يمكن ان ينشأ عن ذلك من منافسات ثم من نزاعات، إلى أن ينتهي الأمر الى التراشق بالتهم وتصدع الصف الواحد، الذي يفترض أن يكون كالبنيان المرصوص. ولم ينس المسلمون بعد ما أصابهم في حرب أحد، حيث تسبب الرماة والذين تركوا مراكزهم على ثغرة الجبل بكارثة حقيقية مني بها المسلمون كما سبق بيانه.

ومهما يكن من أمر فإن الانضباط في غزوة الاحزاب، والتقيد بأوامر النبي الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم قد هيأ الفرصة لتحقيق النجاح الكبير الذي غير مسار تاريخ المواجهة مع المشركين، حتى قال النبي ص: الآن نغزوهم ولا يغزووننا كما سيأتي ذلك مع مصادره في الفصل الأخير من هذا الباب إن شاء الله.

نقول هذا رغم انا نجد المنافقين يحاولون التملص من تحمل مسؤولياتهم، ويختلقون الذرائع والحجج المختلفة لذلك. ولكن ذلك كان يتم وفقاً لقوانين الانضباط أيضاً، فقد كانوا يورون بالضعيف من العمل، وكانوا يستأذنون لحاجات وهمية، وما الى ذلك، ولكنه كله كان تحت سمع وبصر القيادة وفي نطاق علمها، وسيطرتها على الموقف كما هو معلوم.

مدائن كسرى وقصور الروم وصنعاء:

إننا حين نقرأ هذه القضية نشعر: أن المسلمين كانوا يواجهون اكبر تجمع لقوى الشرك، ويتهيأون للدفاع عن وجودهم وحياتهم،

وهم يشعرون بعظيم الخطر الداهم، وتختلف في نفوسهم عوامل اليأس تارة، وعوامل الرجاء تارة أخرى.

ولعل المنافقين، ومن وراءهم اليهود قد أسهموا بتضعيف عوامل الرجاء بما أشاعوه وأذاعوه مما يؤكد ويقوي حالة التشاؤم الى درجة اليأس لدى الكثيرين ممن لم ترسخ لهم بعد قدم في الايمان والتسليم، والتوكل.

فتأتي قصة رؤية قصور الحيرة والروم وصنعاء، ومدائن كسرى حينما ضرب النبي ص تلك الصخرة المستعصية في الخندق ضربات ثلاث، ـ تأتي ـ لتعيد للمسلمين ثقتهم بنفسهم وبربهم، وتطلعاتهم ونظراتهم القوية والثاقبة للمستقبل، ويبتعد حينئذ تلقائياً شبح الخوف المذل والاستسلام الخانع لعوامل اليأس، التي لو تمكنت وترسخت فيهم لجرتهم الى مزالق الذل ولكان ذلك سبباً في ذهاب ريحهم، وسقوطهم في حمأة الهوان، والبوار؛ إذ أن الحادثة قد استبطنت: ان ما هم فيه ما هو الا «سحابة صيف عن قريب تقشع» وأنهم سيخرجون من هذه الضائقة التي يواجهونها مرفوعي الرأس، ليواصلوا مسيرتهم الظافرة من نصر الى نصر، ومن فتح الى فتح ـ حتى ينتهي بهم الأمر الى فتح الفتوح، حيث تفتح لهم البلاد، وتدخل العباد في دينهم أفواجاً، ويملكون كنوز كسرى وقيصر، حسبما أخبرهم به الرسول (ص) منذ فجر دعوته في مكة.

ومما يدخل في هذا السياق: ما روي من أنه ص قال يوم الخندق لأصحابه: لئن امسيتم قليلاً، لتكثرن، وان امسيتم ضعفاء لتشرقن، حتى تصيروا نجوماً يهتدى بكم، وبواحد منكم[(١)].

---

(١) الخرائج والجرائح ج ١ ص ٦٦.

الأمل بالنصر:

وذلك كله يوضح لنا سرّ اطمئنان المؤمنين بنصر الله لما رأوا الأحزاب، قد أحاطوا بالمدينة، وضيقوا عليها الخناق، فلم ينهزموا أمام كل تلك الحشود، وما وهنوا لما أصابهم. بل واجهوا ذلك بكل صلابة عزم، وبكل تصميم قاهر، تحدث الله عنه سبحانه حينما قال:

«ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم الا ايماناً وتسليماً[١]».

أما المنافقون، فاتخذوا ما أخبر به النبي ص ذريعة للمزيد من السخرية، والتندر والاستهزاء، الذي يعبر عن انهزامهم النفسي والروحي أمام القوى الغازية.

قال تعالى:

﴿وإذ يقول المنافقون، والذين في قلوبهم مرض: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾.

كرم وكرامة:

وقضية وليمة جابر في الخندق تروى بنصوص مختلفة نلخصها فيما يلي:

قال جابر: رأيت رسول الله (ص) يحفر، ورأيته خميصاً ورأيت بين عكنه الغبار. فاستأذن من النبي ص أن يذهب الى بيته، فأذن له.

---

(١) فتح الباري ج ٧ ص ٣٠٥.

فعاد الى امرأته ـ واسمها سهيلة بنت مسعود الأنصارية. فاتفق معها على أن يصلحا ما عندهما، وهو مد من شعير، وعناق (شاة) أو شويهة غير سمينة. ثم يدعوا النبي (ص) للطعام.

فذهب ليدعوه مع رجل أو رجلين. فسأله النبي ص عما عنده فأخبره. فقال (ص): كثير طيب. ثم دعا أهل الخندق جميعاً، وقال لهم: إن جابراً قد صنع لهم سوراً.

فأقبلوا معه. قال جابر: فقلت: والله إنها الفضيحة. فأتيت المرأة فأخبرتها (أي بأنه ص قد جاءها بالجند أجمعين. أو قد جاءك رسول الله ص وأصحابه أجمعون).

فقالت: أنت دعوتهم، أو هو دعاهم؟

فقلت: بل هو دعاهم.

قالت: دعهم، هو أعلم.

وفي نص آخر: أنها سألته إن كان رسول الله (ص) قد سأله عما عنده؟ فأجابها بالإيجاب ، فقالت له ذلك.

وذكرت نصوص أخرى: أنه ص أقبل وأمر أصحابه، فكانوا فرقاً عشرة عشرة. ثم قال اغرفوا وغطوا البرمة، وأخرجوا من التنور الخبز ثم غطوه. ففعلوا، فجعلوا يغرفون، ثم يغطون البرمة، ثم يفتحونها، فلا يرون أنها نقصت شيئاً. ويخرجون الخبز من التنور، ثم يغطونه؛ فما يرونه ينقص شيئاً. فأكل الجميع حتى شبعوا.

وقال (ص): كلوا واهدوا، فان الناس أصابتهم مجاعة شديدة.

فأكلنا وأهدينا.

وفي نص آخر: فلم نزل نأكل ونهدي يومنا ذلك أجمع ؛ فلما

خرج رسول الله (ص) ذهب ذلك.

ولهذه الرواية نصوص تختلف من حيث التفصيل والاختصار لم نر حاجة الى ايرادها، ويمكن لمن يريد ذلك أن يراجع المصادر التي في الهامش[1].

وقد صرحت بعض المصادر: بأن الذين اكلو عند جابر كانو ألف رجل. وهم جميع أهل الخندق. وقيل: كانوا ثلاث مئة، وقيل: ثمان مئة وقيل: تسع مئة.[2]

---

(١) راجع النصوص المختلفة لهذه القضية في: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٢ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٦ ـ ١٩٠ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٧٨ ـ ١٧٩ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢١٩ و٢٢٠ و١٩٨ و١٩٩ وج ١٨ ص ٢٦ ج ٧ وص ٣٢ حديث ٢٥ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤١٦ و٤١٥ و٤٢٧ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣١. وراجع: تاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٤/ ٢٣٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٩/ ٣٣٠، وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢١ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٧ ـ ٩٩ عن البخاري، وأحمد، والبيهقي، وابن أبي شيبة، ومسلم، وابن اسحاق، وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٠ و٥٢١ عمن تقدم، وعن الحاكم والطبراني وحدائق الانوار ج ١ ص ٢١٢ وج ٢ ص ٥٩٢ وشرح الشفاء للقاري ط سنة ١٢٦٤ ج ١ ص ٢٤٥/ ٢٤٦ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٧ و٥٨ ودلائل النبوة لابي نعيم ص ٣٥٨ و٣٦٠ والشفاء ج ١ ص ٢٩١ واعلام الورى ط دار المعرفة ص ٣٦ وصحيح مسلم، كتاب الاشربة، باب جواز استتباعه غيره والخرايج والجرايح ج ١ ص ٢٧ و١٥٢ ـ ١٥٤ واثبات الهداة ج ٢ ص ٨٨.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٩٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٨ و١٨٩ و١٩٠ عن البخاري وابن أبي شيبة وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢١ و٥٦٤ ودلائل النبوة لابي نعيم ص ٣٦٠ والشفاء ج ١ ص ٢٩١ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٢٤ و٤٢٦ وعن فتح الباري ج ٧ ص ٣٩٥

وفي بعض النصوص: حتى شبع المسلمون كلهم.

زاد ابن شهر اشوب: فلم يكن موضع للجلوس، فكان يشير الى الحائط، والحائط يبعد، حتى تمكنوا؛ فجعل يطعمهم بنفسه[١].

وفي نص آخر: أنه (ص) قال: هل دللتم على رجل يطعمنا أكلة؟ فدلوه على رجل، فذهب الى بيته. ولكنه كان في الخندق يعالج نصيبه، فأرسلت إليه امرأته، فأقبل يسعى، فذبح لهم جدياً كان عنده، فأكل منه عشرة، ثم ذهبوا، وجاء عشرة آخرون فأكلوا.

«ثم قام (ص) ودعا لربة البيت، وسمّت عليها، وعلى أهل بيتها[٢].

قضية أخرى فيها كرامة لرسول الله (ص):

وأرسلت أم معتب (أو أم عامر) الاشهلية بقعبة فيها حيس[٣] إلى

وراجع: تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦١ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٢٩ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦١ واعلام الورى ص ٩٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٣. وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٤/٢٣٥ والمختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٣٤ و١٣٥ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٧ و٥٨ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٤ وحدائق الانوار ج ١ ص ٥٣ و٢١٢ وج ٢ ص ٥٩٢.

(١) دلائل النبوة لابي نعيم ص ٣٦٠ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٨ وراجع: الخرائج والجرائح ج ١ ص ١٥٤ و١٥٥ والبحار ج ١٨ ص ٣٢ حديث ٢٥ والمناقب لابن شهر اشوب ج ١ ص ١٠٣.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٣/١٩٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠١ و١٠٠ عن الطبراني، وراجع فتح الباري ج ٧ ص ٣٠٥.

(٣) الحيس: طعام متخذ من التمر والسمن، والدقيق والفتيت.

رسول الله (ص)، وهو في قبته مع أم سلمة، فأكلت حاجتها، ثم خرج بالقعبة فنادى مناديه: هلم الى عشائه؛ فأكل أهل الخندق حتى نهلوا، وهي كما هي[١].

كرامة أخرى للنبي (ص):

وبعث أبو طلحة إنساناً بأقراص من شعير تحت ابطه، ففتها (ص) وأطعم منها ثمانين[٢].

يطعم الجيش كله حفنة من تمر:

ومما ذكروه في هذا السياق: أن ابنة بشير بن سعد[٣] جاءت بحفنة من تمر الى أبيها وخالها عبد الله بن رواحة فرآها رسول الله (ص)، وهي تلتمس أباها وخالها، فأخذ ذلك منها في كفه فما ملأتها، ثم أمر بثوب فبسط له، ثم دحا بالتمر عليه، فتبدد فوق الثوب.

ثم أمر جعال بن سراقة فصرخ في أهل الخندق: أن هلم الى الغداء. فاجتمعوا؛ فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب[٤]

---

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٥ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٢ عن ابن عساكر، والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٣٠.
(٢) حدائق الانوار ج ٢ ص ٥٩٢ وسنن الدارمي ج ١ ص ٢١ و٢٢ (المقدمة).
(٣) هي أخت النعمان بن بشير.
(٤) راجع: السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٢٨/٢٢٩ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢١ و٥٢٢ عن أبي نعيم، وابن اسحاق، والاكتفاء للكلاعي ج ٢

كرامة أخرى لرسول الله (ص):

عن معاوية بن الحكم قال: لما أجرى أخي علي بن الحكم فرسه، فدق جدار الخندق ساقه، فأتينا به الى رسول الله ص ص على فرسه؛ فقال: بسم الله، ومسح ساقه؛ فما نزل عنها حتى برىء[1].

بين نظرتين:

أ ـ ويلفت نظرنا في قصة جابر: أن جابراً قد تصرف وفق ما وجد أنه متوفر لديه من معطيات مادية. حيث رأى أن ما عنده لا يكفي إلا لعدد يسير من الاشخاص، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لم يكن ليجعل نفسه أسيرة للاسباب المادية في حدودها الظاهرة. بل تجاوز ذلك ليتعامل مع مسبب الاسباب ، ومفيض الوجود، وهو الله سبحانه مباشرة، ولم يكن الله ليبخل على نبيه في وقت يحتاج فيه هؤلاء الناس الى الشعور برعاية الله سبحانه لهم.

ص ١٦٠/ ١٦١ وتاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦٠/ ١٦١ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٥، والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٠ و١٩١ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٩ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٤ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٥ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٢٧ ودلائل النبوة لابي نعيم ص ٤٣٣ والمختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٣٤ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٧ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٦ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٤٧ والخرائج والجرائح ج ١ ص ١١٠ و١٢٣ وفيه: أنها أخت عبد الله بن رواحة وكذا في مناقب آل ابي طالب ج ١ ص ١٠٢.

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٢ عن الطبراني، وابي القاسم البغوي.

وحتى مع اغماض النظر عن ذلك كله، فان الاسوة والقدوة لم يكن ليميز نفسه عن الناس، بل هو سوف يواسيهم بنفسه فيما قل وكثر، وفيما صغر وكبر. وذلك هو ما تمليه عليه التعاليم والمبادىء التي جاء بها من عند الله جل وعلا.

والذي يستأثر بإعجابنا العميق هو تلك اللفتة الواعية من زوجة جابر، والتي تظهر لنا أيضاً مدى ايمان هذه المرأة ومدى تسليمها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. كما أنها تحكي لنا طبيعة ونوعية وسنخ اعتقادها بهذا الرسول الكريم والعظيم.

وذلك حينما أخرجت زوجها جابراً من حيرته المحرجة بسؤالها له: إن كان النبي قد علم بمقدار الطعام المتوفر عندهم، فأجابها بالإيجاب، فقالت: الله ورسوله أعلم.

ومن يدري فلعل النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم قد عرف أن هذا الاخلاص من جابر وزوجته، ثم الإيثار منه (ص)، وحبه لأصحابه، واقدامه على تقاسم هذا القليل من الطعام معهم، ثم اخلاص صحابته الاخيار في دفاعهم عن أنفسهم، وعن كرامتهم، وشرفهم ودينهم، ونبيهم، وهذه المتاعب الكبيرة ، والمصاعب الخطيرة التي تواجههم بالإضافة الى أن الله سبحانه لن يخيب نبيه ووليه وصفيه.

نعم إن ذلك كله إذا اقترن بأن اللطف الإلهي لا بد أن يظهر في هذه الفترة العصيبة بالذات ليطمئن المؤمنون الى نصر الله سبحانه، فان زيادة الطعام الذي قدمه جابر، حتى ليأكل المسلمون كلهم حاجتهم منه تصبح أمراً مقبولاً ومعقولاً، وفي محله..

التزوير الرخيص:

زعم الشعراني: «أنه شاهد شيخه الشيخ محمد الشناوي، وقد جاء من الريف، ومعه نحو خمسين رجلاً، ونزل بزاوية شيخه الشيخ محمد السروي، فتسامع مجاوروا الجامع الازهر بمجيئه، فأتوا لزيارته، فامتلأت الزاوية، وفرشوا الحصرفي الزقاق.

ثم قال لنقيب شيخه: هل عندك طبيخ؟!

قال: نعم، الطبيخ الذي أفعله لي ولزوجتي.

فقال له: لا تغرف شيئاً حتى أحضر.

ثم غطى الشيخ الدست بردائه، وأخذ المغرفة، وصار يغرف إلى أن كفى من في الزاوية، ومن في الزقاق.

وهذا شيء رأيته بعيني»[١].

ونحن إذا قارنا بين هذا الكلام وبين قضية وليمة جابر، فاننا نجد أن هذا النص أراد أن يعطي الشناوي نفس الكرامة التي ثبتت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين استجاب لدعوة ذلك الرجل الصالح رحمه الله، والذي يستوقفنا هنا ثقة الشناوي بحصول الكرامة له، وكأنه يمارس عملاً عادياً لا يشك في انتهائه الى النتيجة التي يريدها. تماماً كما كان الحال بالنسبة للنبي في الخندق.

وليت شعري لماذا لم يشتهر أمر الشناوي في الآفاق، وتسير به الركبان من بلد الى بلد، ويصبح قبره كقبر النبي في المدينة المنورة تشد إليه الرحال، وتقصده النساء والرجال من أقصى بلاد المعمورة؟

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٣١.

مع أننا نجدهم يقصدون زيارة قبور أناس صالحين لم يظهر لهم حتى ولو كرامة واحدة من هذا القبيل!!

الجهد، والضعف والجوع:

قد تحدثت النصوص التي سلفت في هذا الفصل، وفي غيره من الفصول عن المعاناة التي كان يتعرض لها المسلمون بسبب شحة الأقوات في تلك السنة بالذات حيث «كان المسلمون قد أصابهم مجاعة شديدة، وكان أهلوهم يبعثون إليهم بما قدروا عليه[١]».

ويذكر نص آخر: أن حفر الخندق كان في زمان عسرة، وعام مجاعة، حتى إن الاصحاب كانوا يشدون على بطونهم الحجر من الجهد والضعف الذي بهم من الجوع، ويقول البخاري: إنهم لبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون ذواقاً، وكذلك النبي (ص)[٢].

وفي نص آخر: «يؤتون بملء كفي من الشعير، فيصنع لهم باهالة سنخة توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن»[٣].

ويقول أبو طلحة: «شكونا إلى رسول الله (ص) الجوع، ورفعنا

---

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٥ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٦.

(٢) راجع مصادر حديث جابر الذي أوردناه في فقرة: كرم وكرامة. وراجع أيضاً: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٩ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٢.

(٣) راجع: السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٨٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ٩٦ عن البخاري، وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤٥ وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢٠ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٧ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤١٢ وعن فتح الباري ج ٧ ص ٣٩٧.

عن بطوننا عن حجر، حجر، فرفع رسول الله (ص) عن بطنه حجرين»[١].

ويقول نص آخر: «وكانوا في قر شديد وجوع»[٢].

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام، قال: كنا مع النبي (ص) في حفر الخندق إذ جاءته فاطمة، ومعها كسرة خبز، فدفعتها إلى النبي (ص) فقال النبي عليه الصلاة والسلام: ما هذه الكسرة؟!

قالت: قرصاً خبزتها للحسن والحسين، جئتك منه بهذه الكسرة.

فقال النبي (ص): أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث[٣]

ولنا هنا وقفات:

الاولى: النبي (ص) وصوم الوصال:

لقد ذكروا: أن النبي (ص) نهى عن صوم الوصال، فقالوا له: مالك تواصل يا رسول الله؟!

قال: إني لست مثلكم، إني ابيت يطعمني ربي ويسقيني.

قال ابن حبان: ويستدل بهذا الحديث على بطلان ما ورد: أنه (ص)، كان يضع الحجر على بطنه، لأنه كان يطعم ويسقى من ربه إذا واصل. فكيف يترك جائعاً مع عدم الوصال، حتى يحتاج الي ربط

---

(١) السيرة النبوية للندوي ص ٢٨٢ عن الترمذي.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٩.

(٣) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٤٠ وذخائر العقبى ص ٤٧ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٤٥ وصحيفة الامام الرضا (ع) ط دار الأضواء ص ٧١/ ٧٢.

الحجر على بطنه؟!

قال: وإنما لفظ الحديث: الحجز، بالزاي، وهو طرف الازار. فصحفوا، وزادوا لفظ الجوع.

وأجيب: بأنه لا منافاة، كان (ص) يطعم ويسقى إذا واصل في الصوم. أي يصير كالطاعم والساقي، تكرمة له. ولا يحصل له ذلك دائماً، بل يحصل له الجوع في بعض الأحايين، على وجه الإبتلاء الذي يحصل للانبياء، عليهم الصلاة والسلام، تعظيماً لثوابهم»[1].

أضف إلى ذلك أن توجيه ابن حبان هذا، ودعواه تصحيف كلمة الحجز بالحجر لا يتلاءم مع ما تقدم عن علي عليه السلام، ولا مع ما تقدم عن جابر في قصة اندفاعه لتهيئة الطعام للنبي (ص) لما رآه خميصاً. ولا مع ما ذكر في قصة سلمان حينما طلب من النبي (ص) أن يعالج الصخرة.

الثانية: العزم والثبات:

ويلفت النظر هنا: أنه رغم كل ما كان يعانيه المسلمون من جهد وضعف وجوع، وبرد ـ كما يقولون ـ فان ذلك لم ينل من عزمهم، ولم يؤثر على إرادتهم، ولا هزمهم روحياً. بل استمروا في تصميمهم على تنفيذ قرارهم بالمواجهة. ولم يحملهم ذلك على الدخول في أي مساومة، وتقديم أية تنازلات.

ولا شك في أن للعامل الايماني دوره الحساس في هذا المجال، ولعل العامل الأهم هنا هو توفر القيادة الحكيمة والواعية

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٩.

والحازمة. المرتبطة بالله سبحانه والمتمثلة بشخصية النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: الخصاصة والجوع:

قد تعودنا من أولئك الذين يتعاقبون على كراسي الحكم: أن يكونوا من أصحاب الاموال الطائلة، وأهل الثراء الفاحش، مع سعي حثيث منهم للتمتع بمباهج الحياة، والتقلب في ملذاتها، واهتمام ظاهر بما فيها من زينة، وزبارج، وبهارج، في حين تكون شعوبهم تعاني من النصب والحرمان، ومن الحاجة والخصاصة بدرجة قبيحة ومزرية. إن لم نقل: إن الكثيرين من هؤلاء الحكام هم الذين يمتصون دماء شعوبهم، ويعبثون بمقدراتها، ويختلسون كل ما قدروا عليه من أموالها.

أما نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، فانه على عكس ذلك تماماً، فها هو في أيام الخندق يربط الحجر، ولا يستأثر لنفسه بشيء من حطام الدنيا. بل إنه حتى حينما يرغب أحدهم في استضافته على الشيء القليل جداً في هذا الظرف العصيب بالذات، لا يرضى صلى الله عليه وآله إلا أن يشاركه المسلمون جميعاً في ضيافته تلك؛ فيبارك الله سبحانه في ذلك الطعام، وتكون الكرامة من الله سبحانه لرسوله الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم نجد علياً أمير المؤمنين عليه السلام خير من يتأسى برسول الله، ويسير على نهجه، وينسج على منواله، فإنه رغم أنه كان قد أنشأ ـ بكدّ يده، وبعرق جبينه ـ الكثير من الضياع والبساتين، لكنه لم يكن يستفيد منها لتحسين وضعه المعيشي، ولا أحدثت تغييراً في حياته

الخاصة، بل كان يتصدق بها ويوزعها على الفقراء والمحتاجين، وقد أوقف عامتها على جهات البر المختلفة، ثم لم يزل يلبس الخشن، ويأكل الجشب إلى أن توفاه الله سبحانه. وحسبك ما كتبه لعثمان بن حنيف، يلومه على حضوره وليمة دعي إليها.

قال عليه السلام:

«ألا وإن لكل مأموم اماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وان امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألاوانكم لا تقدرون على ذلك، ولكن اعينوني بورع، واجتهاد، وعفة وسداد. فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا، ولا ادخرت من غنائمها وفرا، ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا، ولا حزت من أرضها شبرا، ولا أخذت منه إلا كقوت دبرة. ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرة»[١].

إلى أن قال: «ولو شئت لا اهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز. ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع.

أو ابيت مبطانا وحولي بطون غرثى، وأكباد حرّى، أو اكون كما قال القائل:

وحسبك داءً أن تبيت ببطنة ... وحولك اكباد تحن إلى القدّ

أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو اكون أسوة لهم في جشوبة العيش؟ فما خلقت ليشغلني اكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسلة،

---

(١) مقرة: مرة.

شغلها تقممها[١]، تكترش[٢] من أعلافها، وتلهو عما يراد بها».

الى أن قال: «وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب؛ فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران، ومنازلة الشجعان. ألا وان الشجرة البرية أصلب عوداً، والروائع الخضرة أرق جلودا، والنابتات العذية[٣] أقوى وقوداً، وأبطأ خمودا الخ[٤]».

---

(١) التقمم: التقاط القمامة.
(٢) تكترش: تملأ كرشها.
(٣) العذي: الزرع لا يسقيه إلا ماء المطر.
(٤) نهج البلاغة (تحقيق صبحي الصالح، ط سنة ١٣٨٧ هـ. ق) ص ٤١٧ و٤١٨.



الفصل الخامس:

جيش المسلمين، وجيش المشركين في المواجهة

الاعداد والاستعداد:

قال البلاذري: «بلغ رسول الله (ص) الخبر، فندب المسلمين الى قتال الأحزاب، وخرج فارتاد لعسكر المسلمين»[١] وكان خروجه بعد أن استخلف على المدينة ابن ام مكتوم[٢]

وحسب نص الصالحي الشامي: «ركب فرساً ومعه عدة من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعاً، فكان أعجب المنازل اليه أن يجعل سلعاً الجبل خلف ظهره، ويخندق الخ . . .[٣]»

وكان خروجه (ص) لثمان خلون من ذي القعدة، أو شوال،

---

(١) أنساب الأشراف ج ١ ص ٣٤٣.

(٢) راجع: الثقات ج ١ ص ٢٦٦ والتنبيه والاشراف ص ٢١٦ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٧ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٩ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣١ والعبر ج ٢ ق ٢ ص ٢٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٣ و١٠٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥ و٣١٤ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢١٦ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٣ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٦٨ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤١ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٧.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٤١٤/٤١٥.

حسبما تقدم. ويقال: إن خروجه (ص) كان في يوم الاثنين[١]

واختار صلى الله عليه وآله ذلك الموضع المكشوف للخندق، وجعل معكسره تحت جبل سلع[٢] أو سفح سلع، أو سطح سلع، أو جعل سلعاً وراء ظهره، والخندق بينه وبين القوم[٣]

يقول البعض: «فلو أن العدو عبر الخندق لقدمت سلع للمدافعين نفس المزايا التي حصلوا عليها في أحد»[٤].

ويستفاد مما تقدم أن موقعهم كان عند سلع من جهة الشام

---

(١) راجع: نهاية الارب ج ١٧ ص ١٧٠ وغير ذلك من المصادر السابقة واللاحقة.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥.

(٣) راجع المصادر المتقدمة في الهوامش السابقة، والبدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٧ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠١ و٣٠٠ وج ٤ ص ١٢٠٤ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٤ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٢٩ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣١ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٧ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٠ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٢ و١٦٣، وأنساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٣ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٦ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٧ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٩ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٧ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٤١٥ و٥١٤ و٥٢٣ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٠ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٢٨ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٤ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٢ وامتاع الاسماع ج ١ ص ١٢٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٢ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ وبحار الانوار ج ٢٠ ص ٢٠٠ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٦٨ وراجع سعد السعود ص ١٣٨.

(٤) محمد في المدينة ص ٥٦.

والمغرب[١]

مقر القيادة:

«وضربت له صلى الله عليه وآله وسلم قبة من أديم أحمر، على القرن في موضع مسجد الفتح»[٢] وتقدم في الفصل السابق، حين الكلام عن قصور الروم وفارس: أنها قبة تركية.

وعلى حد تعبير الواقدي: «وضرب قبة من أدم. وكانت القبة عند المسجد الأعلى الذي بأصل الجبل، جبل الأحزاب»[٣].

ونسجل هنا:

أ: إنه يستفاد من هذا ومما تقدم من أن بعض النصوص ذكرت أنه (ص) جعل معسكره سطح (أو سفح) سلع: أنه صلى الله عليه وآله قد اختار من السفح موضعاً مشرفاً، ومرتفعاً نسبياً يمكّنه من مراقبة الوضع بدقة، ثم المبادرة الى اتخاذ القرار اللازم في الموقع المناسب

ب: إنه اذا كان المشركون إنما يفكرون بالدنيا، ويرون العزة بما يحصلون عليه من حطامها، فإن رؤيتهم رسول الله (ص) في مكان مشرف عليهم، وهو في قبة ذات لون متميز، من أدم أحمر، سيكون مغيظاً لهم، وسيزيد من حسرتهم وحنقهم، حين يرغمون على

(١) وفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٠.
(٢) وراجع أيضاً: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١.
(٣) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٤ و٤٥٧ وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٤ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٤.

التراجع، وهم يجرون أذيال الخيبة والخسران. وقد خلفوا وراءهم قتلى من رؤسائهم وأبطالهم، كما سنرى.

عرض النبي (ص) الخارجين الى الحرب:

ثم عرض (ص): الجيش، وهو يحفر الخندق

فعن أبي واقد الليثي قال: رأيت رسول الله (ص) يعرض الغلمان، وهو يحفر الخندق؛ فأجاز من أجاز، وردّ من رد.

وكان الغلمان يعملون مع الذين لم يبلغوا ولم يجزهم. ولكن لما لحم الأمر، أمر من لم يبلغ أن يرجع الى أهله، الى الآطام مع الذراري. الى أن قال:

فكان ممن أجاز رسول الله (ص) يومئذٍ ابن عمر وهو ابن خمس عشرة، وزيد بن ثابت، وهو ابن خمس عشرة، والبراء بن عازب، وهو ابن خمس عشرة[١]. «وأبا سعيد الخدري ولم يردهم. ويقال: إنه أجازهم قبل ذلك»[٢]

قال العسقلاني: «عرض الجيش اختبار أحوالهم قبل مباشرة القتال للنظر في هيبتهم وترتيب منازلهم وغير ذلك»[٣]

---

(١) راجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٣ وانساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٣ و٣٤٤ وراجع تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٣١٤/٣١٥ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٤ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٣.

(٢) انساب الأشراف ج ١ ص ٣٤٤ راجع السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥.

(٣) فتح الباري ج ٧ ص ٣٠٢.

ومهما يكن من أمر فقد أصبحت المدينة بسبب حفر الخندق كالحصن، حسبما تقدم[١]

النساء والأطفال في الآطام:

ويذكر المؤرخون كافة تقريباً، وهم يتحدثون عن غزوة الخندق: أن النبي (ص) قد جعل النساء والصبيان في الآطام[٢]

قال الواقدي: «ورفع النساء والصبيان في الآطام، ورفعت بنو حارثة الذراري في أطمهم. وكان أطماً منيعاً. وكانت عائشة يومئذٍ فيه

ورفع بنو عمرو بن عوف النساء والذرية في الآطام

وخندق بعضهم حول الآطام بقباء. وحصن بنو عمرو بن عوف ولفها، وخطمة، وبنو أمية، ووائل، وواقف فكان ذراريهم في آطامهم»[٣]

الحرس على أبواب الخندق:

ويذكر المؤرخون: أنهم بعد أن حفروا الخندق، وحصنوه، «جعل له رسول الله أبواباً[٤]، وجعل على الأبواب حرساً، من كل قبيلة

---

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٣ وراجع أواخر الفصل الثاني، حين الكلام عن تشبيك المدينة بالبنيان.

(٢) قد ذكرت ذلك مختلف المصادر التي تقدمت في هذا الفصل، فمن أرادها فليراجعها.

(٣) المغازي ج ١ ص ٤٥١.

(٤) راجع: مغازي الواقدي ج ٢ ص ٤٥٢ و٤٥٠ وسبل الهدى والرشاد ج ٤

رجلاً، وعليهم الزبير بن العوام، وأمره إن رأى قتالاً أن يقاتل».[١]

وفي نصٍ آخر: «وجعل على كل باب رجلاً من المهاجرين ورجلاً الأنصار مع جماعة يحفظونه»[٢]

وتقدم: أن ابواب الخندق كانت ثمانية.

تركيبة الحرس مثار تساؤل:

وأما لماذا إختار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، أن تكون تركيبة الحرس على أبواب الخندق بهذا الشكل، فربما يكون السر فيه هو أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أراد أن يقطع الطريق على أي تفكير تآمري، من خلال اتصالات سرية فيما بين المشركين والمنافقين أو غيرهم، للتواطؤ على المسلمين. ولو عن طريق الاغراء بالمال، أو الاحتيال، أو التغفيل، حيث يتمكنون من احداث ثغرة أو أكثر، من شأنها أن تعرض المسلمين للخطر الكبير

وحين يكون الحرس من كل قبيلة رجلاً، فإن الرقابة على بعضهم البعض تصبح طبيعية، ولن يعود من السهل فتح علاقة مشبوهة مع أي منهم. ويصبح احتمال تواطؤهم أبعد. واتفاقهم على الخيانة يكون أصعب وأعقد.

ص ٥١٥ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠ وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢ ص ٣١٢ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٦٧، ووفاء الوفاء ج ٤ ص ١٢٠٦.

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠.

(٢) تفسير القمي ج ٢ ص ١٧٩ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٢٠.

ويلفت نظرنا هنا ذلك النص الذي بين فيه اهتمام النبي بمشاركة الانصار للمهاجرين في هذا الأمر. ونحن نعلم أن امكانية اختراق مشركي أهل مكة للمهاجرين اسهل وأيسر؛ لأنهم إخوانهم، وأبناؤهم، ولم نزل نجد في المهاجرين من يحابي قومه ويهتم بعدم الحاق المزيد من الأذى بهم بدءاً من حرب بدر، حسبما أوضحناه هناك في قضية فداء الأسرى

بل لقد وجدنا حتى زوجة النبي تخرج عن وقارها، وتندفع لتحرض على رسول الله (ص) في بدر، فراجع ما ذكرناه هناك أيضاً عن سودة بنت زمعة. وتجد في كتابنا هذا، وفي كتاب الغدير والمعارضون شواهد كثيرة وغزيرة ومثيرة عن مواقف قريش من النبي (ص) وأهل بيته. ولا نرى حاجة لإعادة التذكير بها هنا.

الذراري والنساء في الآطام:

وإن جعل النساء والذراري في مواضع حصينة، وتجميعهم في اماكن معينة يعتبر إجراء حكيماً، لأنه يوفر على المسلمين معاناة حالة التوزع في الإهتمامات، وانتشارها، ويركزها في نقطة أو نقاط محددة يمكن التركيز عليها في الرعاية الأمنية، وتسهيل تقديم المعونة الفاعلة والمؤثرة والسريعة، وفق خطة مرسومة في الوقت المناسب لو فرض تعرضها لأي خطر من قبل الأعداء.

ثم هي تمكن هؤلاء الضعفاء من أن يفيدوا من مناعة تلك الآطام للدفع عن أنفسهم بدلاً من بيوت واهنة لا تساعد على حمايتهم، ولا تدفع عنهم في شيء.

وبذلك لم يعد النساء والأطفال منتشرين على مساحات واسعة، بصورة تجعلهم هدفاً سهلاً لكل عابث، وعرضة لأطماع الأعداء والسفهاء، الأمر الذي يوجب إرباكاً نفسياً لدى القوى التي يفترض فيها أن تصب كل اهتماماتها على نقطة واحدة، وواحدة فقط، وهي دفع العدو، وابطال كيده، والحاق الهزيمة المخزية به

وقد يمكن للعدو ـ لو لم تجعل الذراري والنساء في الآطام ـ أن يستفيد من الوضع القائم، فيعتدي أو يتظاهر بالإعتداء على المواقع المختلفة المنتشرة على مساحة المدينة بأكملها. وذلك بهدف زعزعة حالة الاتحاد والانسجام لدى الجيش الاسلامي، ليتمكن من إنزال ضربته القاصمة في الوقت المناسب.

وقد كان بنو قريظة يعرفون تفاصيل مسالك المدينة، لأنهم من أهلها، فقيامهم بأي تسلل اليها سوف يربك الوضع في ساحة القتال بصورة كبيرة وخطيرة.

وقد كان المسلمون يعرفون ذلك، فكانوا يعيشون حالة القلق، لولا هذا الإجراء الذي اتخذه صلى الله عليه وآله وسلم.

ومما زاد في الربط على القلوب، وتهدئة المشاعر، واستقرار الحالة النفسية أنه صلى الله عليه وآله قد جعل حراساً يطوفون في المدينة، حتى أصبح واضحاً ليهود بني قريظة ولغيرهم: أن أي تحرك سوف ينتهي بنكسة خطيرة لهم.

وقد كان للتجربة التي قام بها بعضهم للوصول الى حصن حسان الذي كان فيه النساء، وانتهت بقتل ذلك الرجل على يد زينب بنت جحش عبرة لهم وبلاغ.

عقد الألوية للحرب:

أما بالنسبة لعقد الوية الحرب فإننا نقول:

ألف: بالنسبة للمشركين، فالمؤرخون يقولون: إنهم عقدوا لواءهم في دار الندوة، وحمله عثمان بن أبي طلحة، وقائد القوم أبو سفيان[١]

ثم وافى المشركون المدينة، فأنكروا أمر الخندق، وقالوا: ما كانت العرب تعرف هذا[٢]

ب: بالنسبة للمسلمين، يقول المؤرخون: «وكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة، ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة، وكان (ص) يبعث الحرس على المدينة، خوفاً على الذراري من بني قريظة»[٣]

(١) السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢ وراجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١١ والامتاع ج ١ ص ٢١٨ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٦ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٣.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠، والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥ وراجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٠، والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٠ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٨٢ وبحار الانوار ج ٢ ص ٢٢٤ ونهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٣ وراجع: الارشاد للمفيد ص ٥٢ وكشف الغمة للاربلي ج ١ ص ٢٠٢ واعلام الورى ط دار المعرفة ص ١٠٠.

(٣) المواهب اللدنية ج ١ ص ١١٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٣ وراجع ص ٤٨١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥ وراجع: امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٥ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٤

ونقول: إننا لا نهتم لتحريفات المؤرخين هذه؛ حيث نراهم يتجاهلون الحقيقة الدامغة إرضاء لأسيادهم، وانسياقاً مع أهوائهم، وعصبياتهم وتعصباتهم البغيضة

فها هم يهملون هنا ذكر صاحب الراية العظمى، للجيش كله وصاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كل مشهد، وهو علي أمير المؤمنين عليه السلام مع تصريحهم باسم حامل لواء المهاجرين، وحامل لواء الأنصار.

ونقول هنا:

١ ـ إنه قد تقدم في حرب أحد في فصل: قبل نشوب الحرب وفي بدر أيضاً طائفة من النصوص التي تضافرت وتواترت في كتب السيرة والتاريخ والحديث بالاسانيد الصحيحة والموثوقة: أن علياً عليه السلام هو صاحب لواء وراية النبي في كل مشهد، وتقدم أن ذلك من فضائله وخصائصه التي اشتهر بها. وهذه حقيقة مؤلمة لمبغضي وشانئي علي عليه السلام ولأجل ذلك فهم يحاولون تجاهلها، والدس الرخيص للتشكيك بها، ولو وسعهم الجهر، بإنكارها لبادروا الى ذلك.

٢ ـ قد ورد في احتجاج الامام الحسن المجتبى عليه السلام على معاوية وابن العاص، والوليد الفاسق قوله:

«ثم لقيكم يوم أحد، ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله، ومعك ومع أبيك راية الشرك»[١].

وراجع: نهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٠ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٨.

(١) كفاية الطالب ص ٣٣٦ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ٦ ص ٢٨٩ والغدير

٣ ـ روى الحكم بن عتيبة عن مقسم عن ابن عباس، قال: كانت راية رسول الله (ص) مع علي (ع) في المواقف كلها: يوم بدر، ويوم أحد، ويوم حنين، ويوم الأحزاب، ويوم فتح مكة. وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة في المواطن كلها، ويوم فتح مكة، وراية المهاجرين مع علي عليه السلام»[١].

وهذا يدل على أن قولهم: كانت راية المهاجرين يوم الأحزاب مع زيد بن حارثة غير صحيح.

شعار الحرب:

ويقول المؤرخون: كان شعار المهاجرين أيام الخندق: «يا خيل الله»[٢]

وقالوا أيضاً: كان شعار أصحاب رسول الله (ص) يوم الخندق وبني قريظة:

حم. لا ينصرون[٣]

ج ١٠ ص ١٦٨ عنه. وجمهرة الخطب ج ٢ ص ٢٣.

(١) اعلام الورى ط دار المعرفة ص ١٩١.

(٢) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٠ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٦ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٥ وراجع: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢١.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٣ عن ابن هشام وص ٤٨٥ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٤ والكافي ج ٥ ص ٤٧ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٧٨ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٤ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٢ عن ابن هشام، والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٧ وتهذيب سيرة ابن هشام

ونقول:

لقد رأينا: أن شعار المسلمين في حروبهم مع أعدائهم، سواء في زمن رسول الله (ص). أو في زمن علي عليه السلام في حروبه مع البغاة هو: «حم، لا ينصرون». وكذا عبارة: «يا منصور أمت».

وهاتان الكلمتان لهما دلالاتهما وايحاءاتهما في ظرف كهذا؛ حيث انها تزرع الطموح الى النصر في قلب وروح المقاتل المسلم، فيزداد جرأة على القتال وإقداماً على التضحية، ويتذرع بالصبر الجميل على ما يواجهه من مكاره يترقب الفرج والفوز بعدها بمزيد من الطمأنينة والثقة ويكون تحركه في ساحة القتال والحالة هذه تحرك الواثق، الذي يريد من خلال تفعيل طاقاته القتالية بحكمة وحنكة وتعقل أن يتجاوز هذا الواقع، الذي يرى فيه وضعاً استثنائياً ونشازاً ـ لا تساعد على بقائه عوامل راسخة ولا طبيعية.

ثم إن هذا الشعار، حين يبدأ بواحدة من مفردات الحروف المقطعة التي اختص بها القرآن، فإنه يكون قد أوحى مسبقاً لهذا الانسان المؤمن بصدق هذا الوعد الالهي، الذي يتلفظ به هو نفسه، ويطلقه شعاراً له في هذا الوقت بالذات الذي يحتاج اليه عملياً. فهو

ص ١٩٤ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٨، وبهجة المحافل وشرحه ج ١ ص ٢٧١ و٢٧٢ عن الترمذي، وأبي داود والوسائل ج ١١ ص ١٠٥ والكافي ج ٥ ص ٤٦ و٤٧ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٩١. وجوامع السيرة النبوية ص ١٥٠ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٩ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢١ وقال: «لعل المراد بالمسلمين الأنصار، فلا يخالف ما في الامتاع، وكان شعار المهاجرين: يا خيل الله». ونقول: إن هذا التوجيه لا يمكن المساعدة عليه.

شعار يتجه نحو الواقع ليتجسد حقيقة ملموسة له، ويساهم هو في صنعها وفي بلورتها.

والأمر الملفت للنظر هنا: ان يكون هذا اليقين قد أيقظه في نفسه كلمة حم، التي هي رمز التحدي الفكري كما تقدم في الجزء الثاني من هذا الكتاب مفصلاً. وقد اقترن هذا التحدي الفكري بالتحدي بالعنف والقتال، كنتيجة طبيعية لعجز قوى الشرك، وهزيمتها المخزية والنكراء في مجال الفكروالمثل والقيم.

وأما بالنسبة للمشركين فالأمر سيكون على عكس ذلك تماماً، فإنهم حين يسمعون هذه الكلمة (حم، لا ينصرون) لسوف يتمثلون حالة العجز والسقوط والهزيمة بكل انحائها، وبكل مجالاتها. ولسوف تزرع هذه الكلمة اليأس والفشل في نفوسهم. فإنها كانت رمز التحدي القرآني لهم ولكل من هو على شاكلتهم، بالإضافة الى إيحاءات أخرى، المحنا إليها فيما سبق كانت إيجابية بالنسبة لقوى الايمان، ولسوف تكون معكوسة وسلبية بالنسبة لقوى الشرك والطغيان.

فليتأمل المتأمل فيما ذكرناه، وليتدبره كيف يتحول الى الضد من ذلك على قوى الشرك، حتى لا نضطر الى إعادة تفصيلية له.

غير أننا نلمح هنا الى نقطة واحدة نضيفها الى ما سبق، وهي أن هذا الشعار يقول: «لا ينصرون» بصيغة المبني للمجهول ولم يقل: «لا ينتصرون» ففيه الماح الى أن المشركين لا يملكون معطيات النصر في أنفسهم فلا بد أن ينتظروا النصر من غيرهم، وليس ثمة ناصر لهم ولا معين، فهزيمتهم حتمية لفقدهم مقومات النصر من الجهتين فالمشرك يرى العجز والفشل الفكري والعقيدي بكلمة حم. كما انه يتمثل الخواء من اي من القدرات والطاقات التي تخوله ان يصنع نصراً. فهو

مهزوم في الحالتين ،.لمؤمن يأتيه النصر من الله، وهو على يقين من هذا النصر فاجتمع على قوى الشرك عاملان من عوامل الضعف ولقوى الايمان عاملان من عوامل القوة.

هذا عدا عن أن الصيغة صيغة إخبار، تعطي: مزيداً من الثقة بتحقق ذلك، حتى كأنه أمر واقع وملموس، يصح الاخبار عنه بهذه الدرجة من الجزم والثبات والطمأنينة. ولسوف يتيقن المشركون صدق هذا الوعد، ما دام أنه هدي قرآني استقر في نفوسهم: انهم اعجز واصغر من أن يشككوا في اي من آياته وحقائقه.

وهذا درس نافع نستفيده من هذا الشعار، نسأل الله التوفيق للتوفر على دراسة هذا الموضوع بصورة أتم وأوفى، وأوضح وأجلى وأصفى، وهو الموفق، والهادي الى سواء السبيل

عدة وعدد المسلمين:

هذا، وقد اختلفت كلمات المؤرخين في عدة وعدد الجيش الاسلامي الذي واجه الأحزاب في حرب الخندق.

فأما بالنسبة للعدة، فقد «ذكر ابن سعد: أنه كان مع المسلمين ستة وثلاثون فرساً»(١).

وأما بالنسبة الى العدد فنشير الى الأقوال التالية:

---

(١) المواهب اللدنية ج ١ ص ١١٠ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ عن ابن سعد، والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٧.

١ ـ قيل كان المسلمون سبع مئة، وهو قول ابن اسحاق(١).

وقد حكم البعض على ابن اسحاق بأنه «وهم في ذلك» وغلط. وزعم ابن القيم: ان منشأ الغلط هو ارتكاز عدد من خرج معه (ص) في أحد(٢).

٢ ـ قيل: كانوا ألفاً أو نحوها، وهو صريح رواية البخاري، ومسلم عن جابر. وصرح به قتادة أيضاً(٣).

٣ ـ وقيل: تسع مئة أضاف ابن خلدون قوله: «وهو راجل بلا شك».

وقال ابن حزم: «وهو الصحيح الذي لا شك فيه، والأول وهم»(٤). يريد بالأول: القول بأنهم كانوا ألفاً.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٤ عن ابن اسحاق. وراجع: امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٤ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٤ وراجع ص ٥٦٥ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٧٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢١٨ عنه وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٧.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٤ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٤ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٤ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٧.

(٣) راجع: وفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠١ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠١ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦٥ وحدائق الانوار ج ١ ص ٢١٢ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٤.

(٤) راجع: العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ قسم ٢ ص ٢٩ وراجع: امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٥ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٩.

٤ ـ وذهب أكثر المؤرخين الى أنهم كانوا ثلاثة آلاف أو نحوها(١).

ونقول:

أ: إننا نحتمل قوياً أن يكون القول الثالث هو نفس قول ابن اسحاق، لكن النساخ صحفوا سبعمئة بتسعمئة، لتقارب رسم الخط في الكلمتين، وعدم وجود النقط في السابق، وما أكثر ما يقع الاشتباه والاختلاف بين سبع وتسع، من أجل ذلك.

ب: إننا نرجح قول ابن اسحاق، وإن حكم عليه البعض

---

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٤ و٢٢٥ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٠ عنه، وراجع هذا القول في المصادر التالية: سيرة مغلطاي ص ٥٦ والتنبيه والاشراف ص ٢١٦ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠١ وج ٤ ص ١٢٠٤ عن المطري عن ابن اسحاق والثقات ج ١ ص ٢٦٦ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣١ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٢ والوفا ص ٦٩٣ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٧ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ج ٢ ص ٢٣٣ و٢٣٦ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٦ و٢٣٧ والعبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ قسم ٢ ص ٢٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٢ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٠ و١١٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ و٤٨١ و٤٨٣ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٤ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٤ و٥٦٥ وكشف الغمة للاربلي ج ١ ص ١٩٧ وشرح النهج للمعتزلي، منشورات دار مكتبة الحياة ج ٤ ص ٢٦٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢٧٢ عن المناقب ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٦٨ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٧ و٥٨ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٠ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٢٨ والبدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٧ ومختصر التاريخ ص ٤٣ وحبيب السير ج ١ ص ٣٥٩ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٩ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠١ و ٣٠٧ وسعد السعود ص ١٣٨.

كالحلبي وغيره، بأنه قدوهم أو غلط في ذلك.

ولو تنزلنا عن ذلك، فإننا نأخذ بالقول الثاني، أما القول بأنهم كانوا ثلاثة آلاف، فلا مجال للاعتماد عليه، وذلك للأمور التالية:

١ ـ ما تقدم في قصة إطعام جابر لأهل الخندق جميعاً وكانوا سبع مئة رجل، أو ثمان مئة، أو الف رجل، فراجع حديث جابر المتقدم في الفصل السابق، وراجع المصادر التي أشير اليها في الهوامش هناك.

٢ ـ روي عن الامام الصادق عليه السلام: أنه صلى الله عليه وآله وسلم شهد الخندق في تسع مئة رجل[١]. ويحتمل أن تكون كلمة تسع تصحيفاً لكلمة سبع أيضاً.

٣ ـ روي: أن النبي (ص) قال: اكتبوا لي من تلفظ بالاسلام، فكتب حذيفة بن اليمان له ألفاً وخمس مئة رجل. وفي نص آخر: ونحن ما بين الست مئة الى السبع مئة. قال الدماميني: قيل: كان هذا عام الحديبية[٢].

ويرى البعض: أن المسلمين كانوا في أحد بعد رجوع المنافقين سبع مئة رجل، وبين أحد والخندق سنة أو أكثر بقليل. ويبعد أن يزيد المسلمون خلال سنة واحدة هذه الزيادة الكبيرة، بحيث

---

(١) الكافي ج ٥ ص ٤٦ والوسائل ج ١١ ص ١٠٥.

(٢) راجع: صحيح البخاري ج ٢ ص ١١٦ وصحيح مسلم ج ١ ص ٩١ ومسند أحمد ج ٥ ص ٣٨٤ وسنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٣٣٧ والتراتيب الادارية ج ١ ص ٢٢٠ و٢٢٣ وج ٢ ص ٢٥١ و٢٥٢ وعن المصنف لابن ابي شيبة ج ١٥ ص ٦٩.

يصلون الى ثلاثة آلاف[1] وما جرى في الخندق يوضح: أن عدد سكان المدينة لا يصل الى الخمسة الاف نسمة بما في ذلك الاطفال والنساء.

عدد المشركين:

ووافى المشركون المدينة، وأحاطوا بها من جميع جهاتها، واشتد الحصار على المسلمين[2].

وقد اختلفت الأقوال في عدد المشركين. وذلك على النحو التالي:

١ ـ قال المسعودي: «سارت اليه قريش وغطفان، وسليم وأسد، وأشجع، وقريظة والنضير، وغيرهم من اليهود؛ فكان عدة الجميع أربعة وعشرين ألفاً. منها قريش وأتباعها أربعة آلاف»[3].

٢ ـ وقال ابن شهر اشوب: «كانوا ثمانية عشر الف رجل»[4].

٣ ـ وقال ابن الديبع: كانوا أحد عشر الفاً[5] وذكر في موضع آخر: انهم كانوا عشرة آلاف. ولعله حين عد معهم بني قريظة ذكر الرقم الأول، وحين غض النظر عنه عدهم عشرة آلاف.

٤ ـ إن عدد جيش المشركين بجميع فئاته كان عشرة آلاف: قريش وكانوا أربعة آلاف، ومن أجابهم من بني سليم، وأسلم،

---

(١) الرسول العربي وفن الحرب، هامش ص ٢٣٨.
(٢) راجع: حدائق الانوار ج ٢ ص ٥٨٧.
(٣) التنبيه والاشراف ص ٢١٦.
(٤) مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢٧٢ عنه.
(٥) حدائق الأنوار ج ١ ص ٥٢ ويفهم ذلك من الزمخشري في الكشاف ج ٣ ص ٥٢٦ وعنه في سعد السعود ص ١٣٨.

وأشجع، وبني مرة، وكنانة، وفزارة، وغطفان[١]

٥ ـ انهم كانوا مع يهود بني قريظة والنضير زهاء اثني عشر ألفاً[٢].

٦ ـ ولكننا نجد آخرين من المؤرخين يتحدثون عن هذا الأمر بطريقة تؤيد أحد القولين الأولين. فقد قال ابن الوردي وغيره:

«أقبلت قريش في أحابيشها، ومن تبعها من كنانة في عشرة آلاف، وأقبلت غطفان ومن تبعها من أهل نجد» ثم ذكر انضمام بني قريظة اليهم[٣].

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠١ عن ابن اسحاق والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٤ و٤٤٥ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٧٧ و١٧٦ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٧ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٧ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢١٧ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٦٨ والبدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٧ وسيرة مغلطاي ص ٥٦. والوفاء ص ٦٩٣ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٣ و٢٣٦ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٢٨ وراجع: العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٢٩ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠١ و٣٠٧ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢ و٤ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١١ وحدائق الأنوار ج ٢ ص ٥٨٧ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٤ ومنهاج السنة ج ٤ ص ١٧٠.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤.

(٣) تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦١ وكشف الغمة للأربلي ج ١ ص ١٩٧ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٠ والمختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٣٥ وراجع المصادر التالية: الاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٢ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٠ و٢٣١ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٦ و٢٣٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٧ والبداية والنهاية ج ٤

٧ ـ ثم هناك من يقول: إن عدد جيش الأحزاب كان اربعة آلاف فقط[١].

ولا نشك في أن هذا القول ناظر الى حشود قريش، أو أن بعض المؤرخين رآهم يذكرون أن عدد الجمع القرشي كان هذا المقدار فتوهم أنه يقصد بيان عدد الجيش كله.

عُدّة جيش الشرك:

وأما بالنسبة لعدة أهل الشرك، فقد قال المسعودي: إنه كان «معهم ثلاث مئة فرس، وألف وأربع مئة بعير، قائدهم أبو سفيان صخر بن حرب»[٢].

وذكر آخرون انه كان معهم الف وخمس مئة بعير، وثلاث مئة فرس[٣].

ص ١٠٢ والبدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٧ وتاريخ الخميس ج١ ص ٤٨٣ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٢ ومختصر التاريخ ص ٤٣ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٩ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٧ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤١/٣٤٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٠ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٠ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠١.

(١) راجع هذا القيل في: وفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠١ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٠ و٣١١ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٢ ص ٣٩٤ عن قتادة.

(٢) التنبيه والاشراف ص ٢١٦.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٠ و٣١١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٢ والإمتاع ج ١ ص ٢١٨ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٣ ونهاية الارب

وذكر الديار بكري: انهم كانوا أربعة آلاف معهم ثلاث مئة فرس والف بعير، وعند غيره: الف وخمس مئة بعير[١].

ويظهر من المقريزي: أنه كان مع المشركين بالإضافة الى ألف وخمس مئة بعير: ثلاث مئة فرس مع قريش، وثلاثة مئة أخرى مع غطفان[٢]. وفي كلام حيي بن أخطب لكعب بن أسد: «والخيل الف فرس وسلاح كثير[٣]».

وصرح النويري: ان غطفان وفزارة كان معهما الف بعير[٤].

ومن الواضح: أن لا مجال لتحديد الرقم الحقيقي لذلك كله ولا لغيره، لكن مما لا شك فيه: أن هذا العرض للنصوص والأقوال يوضح مدى التفاوت فيما بين عدة وعدد المسلمين، وأعدائهم من الأحزاب الذين جاؤا من كل حدب وصوب.

معنويات جيش الشرك:

وقد كان من الواضح: أن تفوق المشركين في العدد والعدة. ثم ما كان من تحالفهم مع بني قريظة الذين كانوا في الجهة الأخرى للمدينة.

ج ١٧ ص ١٦٧ وحبيب السير ج ١ ص ٣٥٩.

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٠ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٦ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٣ ولم يذكر عدد الإبل.

(٢) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢١٨ و٢١٩.

(٣) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٥.

(٤) نهاية الارب ج ١٧ ص ١٦٧.

أضف إلى ذلك هذا الاجماع الحاصل من مختلف القبائل العربية.

وكذلك بسبب الاعلام المسموم الذي أعقب حرب أحد، وصور لأهل الشرك أنهم قد حققوا فيها نصراً كبيراً.

وبسبب الحقد الذي يتغلغل في نفوس الكثيرين منهم على الاسلام وعلى المسلمين.

نعم إنه بسبب ذلك كله، وسواه مما لم نذكره كان جيش الشرك يعيش في بدايات حصاره للمسلمين حالة من الإنتعاش الروحي، والشعور بالقوة والتفوق، وبإمكانية تحقيق بعض ما كانوا يصبون اليه.

ولكن الأمر لم يدم على هذا الحال طويلاً، فقد تبخرت الآمال وحل محلها الشعور بالخيبة، وتلاشت حالة الانتعاش، لتخلفها حالة التململ والشعور بالضيق.

حتى اذا جاءت ضربة علي القاصمة لجيش الشرك، تبدل كل شيء ليواجه هذا الجيش حالة من الرعب والخوف. وتصبح تلك الكثرة، في العدد وفي العدة عبئاً ثقيلاً، ومصدر متاعب لذلك الجيش بالذات، فقد أصبحت العدة من أفراس ومن وسائل نقل ـ أبعرة ـ بسبب طول المدة، وبسبب الجدب أمراً يحسن التخلص، أو على الأقل يحسن التخفيف منه وتحجيمه.

كما أن إجماع القبائل لم ينجح في توحيد القيادة لها، ولا استطاع أن يحجب الروح القبلية، ويمنعها من الهيمنة على مسيرة التحرك، حتى في مواقع القتال.

فكانت كثرة هذا الجيش تستبطن التمزق، وكان تكثر الانتماءات

في الولاء والطاعة، يحمل معه بذور الفساد والافساد، والخلاف والشقاق لأتفه الأسباب.

أضف الى ما تقدم: أن الاعلام المزور والمسموم قد أوجب انتفاخاً كاذباً، وأذكى توقعات كبيرة، يعلم قادة الأحزاب أنفسهم أنهم أعجز عن أن ينالوها، أو أن يحققوا أدناها.

وبعد ما تقدم، فهل يمكن لجيش كهذا أن يقوم بتجربة حربية ضد المسلمين، مع أنه لا يمكن ضمان نتائجها، لا سيما بعد أن عرف ورأى ميدانياً أن الأمور قد أصبحت على غاية من التعقيد والخطورة، ولم يكن قدحسب لكل هذه المستجدات أي حساب.

وبعد كل ما تقدم، فإن علينا أن لا ننسى أن تلك القبائل كانت تفتقر الى ترسيخ عامل الثقة فيما بينها. ولم يكن ثمة ضمانات حقيقية لوفاء بني قريظة للمشركين، ولا العكس، مع علمهم: أن الذي يجمع كل هذه المتفرقات هو الخوف من التفرق، وليس شيئاً غير ذلك. .

جيش أهل الايمان:

وأما بالنسبة لجيش أهل الايمان، فإن الأمر يختلف تماماً، فهو يرى أن وجوده معرض للإستئصال والفناء، ولا بد له من الدفاع، ولن يجد ملجأ له إلا بذل الجهد، وإلا الجهاد من أجل البقاء.

كما أن هذا الجيش ينطلق في حركته وفي جهاده من قاعدة إيمانية تجمع بين متفرقاته، وتؤلف بين مختلفاته.

وهو وإن كان قد تعرض ـ في بادىء الأمر ـ لهزّة من نوع ما حين صار المنافقون وضعفاء الايمان يتسللون ويتركون مواقعهم بأعذار

مختلفة.

ولكن حزم القيادة، وهيمنتها، وحسن تدبيرها لم يفسح المجال للتأثر بالشائعات، واستطاعت هذه القيادة، حين فضحت أمر هؤلاء المنافقين بالوحي القرآني، وحين ظهرت الكرامات الباهرة على يدها، وأطلقت البشارات بالنصر الأكيد استطاعت أن تعيد للجو الايماني صفاءه ونقاءه، وتحصنه من كل ما من شأنه أن يشيع روح التخاذل، ويزرع اليأس والخوف في نفوس المخلصين والمؤمنين. وقطعت الطريق على أي كان من أن يتخذ موقفاً أو يتصرف تصرفاً من شأنه أن يعطي للعدو أية فرصة من أي نوع كانت.

الغطرسة القرشية:

وعن علي عليه السلام قوله: «فقدمت قريش، فأقامت على الخندق محاصرة لنا، ترى في أنفسها القوة، وفينا الضعف ترعد وتبرق، ورسول الله (ص) يدعوها الى الله عز وجل، ويناشدها بالقرابة والرحم، فتأبى، ولا يزيدها ذلك الا عتواً»[1].

ونقول:

ليس غريباً على قريش هذا العتو، وهذه الغطرسة، ما دامت تقيس الأمور بمقاييس مادية، وترى القوة في انفسها، والضعف في المسلمين، الذين جاءت لاستئصالهم، وإبادة خضرائهم. ولكن هذا العتو وتلك الغطرسة سرعان ما تلاشت، ليحل محلها الضعف والخنوع، والخيبة القاتلة، كما سنرى.

---

(١) الخصال ج ٢ ص ٦٨، باب السبعة، والبحار ج ٢٠ ص ٢٤٤.

وليس غريباً أيضاً أن نجد النبي (ص) ومن موقع الشعور بالمسؤولية يعتمد الأسلوب الانساني، ويستثير العاطفة الناشئة عن صلات القربى ولحمة النسب، والتي يكون لها هيمنة حقيقية على الانسان ولا بد أن تجتاح هزاتها الجامحة كل كيان الانسان، وكل وجوده. ثم هو (ص) يقرن ذلك بالدعوة الى الله عز وجل، الذي هو مصدر الخير والقوة والبركات.

رسالة تهديد من أبي سفيان

ويقال: إن أبا سفيان كتب الى النبي مهدداً إياه بما جمعه من الأحزاب لقتاله، ولعله قد كتب هذا الكتاب بعد وصوله الى المدينة، وحصول المواجهة، والكتاب. هو:

أما بعد، فإنك قد قتلت أبطالنا، وأيتمت الأطفال، وأرملت النساء، والآن قد اجتمعت القبائل والعشائر يطلبون قتالك، وقلع آثارك.

وقد جئنا اليك نريد نصف نخل المدينة؛ فإن أجبتنا الى ذلك، وإلا أبشر بخراب الديار، وقلع الآثار.

تجاويت القبائل من نزار لنصر اللات في بيت الحرام
وأقبلت الضراغم من قريش على خيل مسومة ضرام

فردّ عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم:

وصل كتاب أهل الشرك والنفاق، والكفر والشقاق، وفهمت مقالتكم، فوالله، مالكم عندي إلا أطراف الرماح، وشفار الصفاح،

فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام، وأبشروا بضرب الحسام، وبفلق الهام، وخراب الديار، وقلع الآثار، والسلام على من اتبع الهدى»[١].

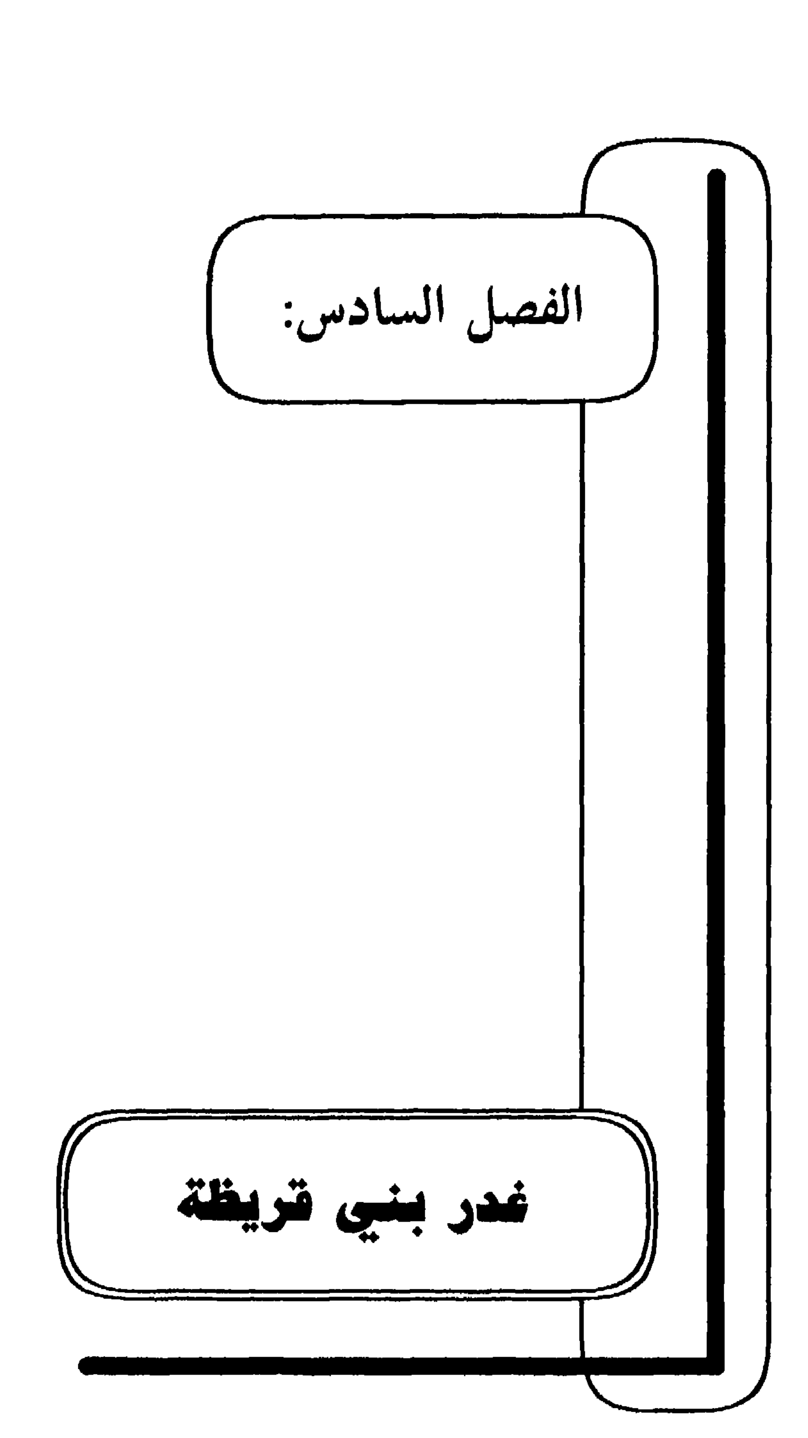
قال الشيخ محمد ابي زهرة: «ونشك في نسبة هذا الكتاب الى النبي (ص) لما فيه من السجع[٢]».

ولا نرى: أن السجع في الكتاب يبرر الشك فيه، فإن خطب الزهراء، وخطب علي عليه السلام لم تخل من ذلك، كما يظهر لمن راجعها.

---

(١) خاتم النبيين ج ٢ ص ٩٢٠ و٩٢١ عن كتاب السيرة لابن جرير الطبري.

(٢) خاتم النبيين ص ٩٢١.



الفصل السادس:

غدر بني قريظة



بنو قريظة ينقضون العهد:

يقول المؤرخون: إن بني قريظة كانوا أصحاب حصون بالمدينة. وموضعهم من المدينة على قدر ميلين. وهو الموضع الذي يسمى: بئر بني المطلب. وعددهم سبع مئة مقاتل[١].

وصاحب عقدهم وعهدهم كعب بن أسد القرظي، وكان وادع رسول الله على قومه وعاهده.

وكان حيي بن أخطب سيد بني النضير، يقول لقريش في مسيره معهم:

إن قومي بني قريظة معكم. وهم أهل حلقة وافرة. وهم سبع مئة مقاتل وخمسون مقاتلاً.

فلما دنوا قال له أبو سفيان: ائت قومك حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد[٢].

فلما جاء حيي إلى بني قريظة كرهوا دخوله إلى دارهم، فكان أول من لقيه غزال بن سموأل، فقال له حيي: قد جئتك بما تستريح به من محمد. هذه قريش قد حلّت وادي العقيق، وغطفان بالزغابة.

---

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ١٧٧ والبحار ج ص ٢١٧ عنه.
(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ وامتاع الأسماع ج ١ ص ٢٢٥ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٤.

قال غزال: جئتنا ـ والله ـ بذل الدهر.

قال حيي: لا تقل هذا.

ثم توجه إلى باب كعب بن أسد فدق عليه[١]، فأغلق كعب دونه باب الحصن، وقال: بيني وبين محمد عقد، ولن انقض ما بيني وبينه.

وفي نص آخر: «لم أر منه إلا وفاء وصدقاً».

زاد الواقدي: «والله، ما أخفر لنا ذمة، ولا هتك لنا ستراً. ولقد أحسن جوارنا».

وعند البيهقي: «لم أر رجلاً أصدق ولا أوفى من محمد وأصحابه. والله، ما أكرهنا على دين، ولا غصبنا مالاً إلخ».

فقال حيي: افتح الباب أكلمك.

فقال كعب: ما أنا بفاعل.

فقال: والله، إن أغلقت دوني الباب إلا على جشيشتك[٢] أن آكل معك منها. فأحفظه حتى فتح له، فقال:

ويحك يا كعب (جئتك بعز الدهر، وببحر طام) جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنختهم بالمدينة. وجئتك بغطفان على قادتها وسادتها، وقد عاهدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٥.

(٢) الجشيشة هي: البرّ يطحن غليظاً.

فتأبى كعب، وقال: جئتني بذل الدهر، بجهام هراق ماؤه، وبرعد وببرق ليس فيه شيء، (زاد الواقدي قوله: وأنا في بحر لجي لا أقدر على أن أريم داري، ومالي معي والصبيان والنساء) فدعني ومحمداً، وما أنا عليه، فلم أر منه إلا وفاءً وصدقاً.

فلم يزل يفتله في الذروة وفي الغارب، حتى أعطاه عهداً من الله وميثاقاً أن يكون معه، على أنه إن رجعت تلك الجموع خائبة ولم يقتلوا محمداً: أن يرجع معه إلى حصنه، يصيبه ما أصابه، ونقض كعب ما بينه وبين رسول الله، وبرىء مما كان عليه له[1].

«ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد، وجمع رؤساء قومه،

---

(١) راجع: تجارب الأمم ج ١ ص ١٤٩ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٥ و ٤٥٦ وتاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦١ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٥ وشرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٥ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٣ و ٤٨٤ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٧ وراجع: حبيب السيرج ١ ص ٣٦٠ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٩ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣١ و ٢٣٢ وتهذيب سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٦ و ٣١٥ وامتاع الأسماع ج ١ ص ٢٢٦ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠٠ و ٤٠١ و ٤٢٨ و ٣٢٩ وراجع: وفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٣ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٦ و ٥٢٧ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٢١ و ٢٢٣ ونهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٠ و ١٧١ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٩ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٠ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٣ وراجع: تفسير القمي ج ٢ ص ١٧٩ ـ ١٨١ والاكتفاء ج ٢ من ١٦٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٨ و ١٩٩ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٦ و ٢٣٧.

وهم: الزبير بن مطا (باطا)، وشاس (نبّاش) بن قيس، وعزال بن ميمون (سموأل)، وعقبة بن زيد (وكعب بن زيد) وأعلمهم بما صنع من نقض العهد، وشق الكتاب الذي كتبه رسول الله (ص)؛ فلحم الأمر لما أراد الله من هلاكهم. وكان حيي بن أخطب في اليهود يشبه بأبي جهل في قريش».

وعند القمي: غزال بن شمول وياسر بن قيس، ورفاعة بن زيد، والزبير بن باطا[١].

وقال البعض: إن الزبير بن باطا كان شيخاً كبيراً، مجرباً، قد ذهب بصره، وقد قال لهم: إنه قرأ التوراة، ووجد فيها: أنه يبعث نبي في آخر الزمان في مكة، ويهاجر إلى المدينة، وذكر لهم صفته.

فادّعى حيي بن أخطب: أن هذا النبي هو من بني إسرائيل، وهذا من العرب. ولا يكون بنوا إسرائيل أتباعاً لولد إسماعيل أبداً؛ لأن الله قد فضلهم على الناس جميعاً، ثم ادّعى أن محمداً (ص) ساحر. ولم يزل حتى أقنعهم بنقض العهد، فنقضوه[٢].

ويقول نص آخر: «ووعظهم عمرو بن سعدى، وخوفهم سوء فعالهم، وذكّرهم ميثاق رسول الله (ص) وعهده، وقال لهم: إن لم تنصروه، فاتركوه وعدوه؛ فأبوا.

وخرج إلى رسول الله (ص) من بني قريظة بنو سعنة: أسد،

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٦ وامتاع الأسماع ج ١ ص ٢٢٦ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٨٠ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٢١ و ٢٢٢ عنه وراجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٦ و ٤٥٧.

(٢) راجع: تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٠ و ٨١ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٢٢ و ٢٢٣ عنه.

وأسيد، وثعلبة، فكانوا معه، وأسلموا.

وأمر كعب بن أسد حيي بن أخطب: أن يأخذ لهم من قريش، وغطفان رهائن تكون عندهم»[١] «لئلا ينالهم ضيم، إن هم رجعوا ولم يناجزوا محمداً، قالوا: وتكون الرهائن تسعين رجلاً من أشرافهم.

فنازلهم حيي على ذلك، فعند ذلك نقضوا العهد، ومزقوا الصحيفة التي فيها العقد، إلا بني سعنة»[٢].

لا بد من التثبت:

«وبلغ رسول الله (ص) ذلك فغمه غماً شديداً، وفزع أصحابه»[٣]

ويقال: إن الذي أبلغ النبي ذلك هو عمر بن الخطاب، فاشتد الأمر على رسول الله (ص)، وشق عليه ذلك[٤] (فقال: حسبنا الله، ونعم الوكيل) فبعث سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وخوات بن جبير، وعبدالله بن رواحة (وبعض النصوص لم تذكر الأخيرين وذكرت بدلهما أسيد بن حضير)[٥] يستخبرون الأمر، فوجدوهم مكاشفين بالغدر،

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٣ وراجع ص ١٣ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠١.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٣.

(٣) تفسير القمي ج ٢ ص ١٨١ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٢٣ عنه.

(٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٦ وراجع: امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٢٧ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٧ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٧.

(٥) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٦ وراجع: امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٢٧ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٨ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٧ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٨١ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٢٣ عنه، وفيهما: «فقال رسول الله (ص) لسعد بن معاذ، وأسيد بن حصين، وكانا من

والنيل من رسول الله (ص) فشاتمهم سعد بن معاذ وكانوا أحلافه، وانصرفوا.

وكان رسول الله (ص) قد أمرهم إن وجدوا الغدر حقاً أن يخبروه تعريضاً؛ لئلا يفتوا في أعضاد الناس، فلما جاؤا إليه قالوا: يا رسول الله، عضل والقارة. يريدون غدرهم بأصحاب الرجيع»[1].

وقال ابن اسحاق وآخرون: (إن الذي شاتمهم هو سعد بن عبادة. وكان رجلاً فيه حدة، فقال ابن معاذ: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة)[2].

الأوس. وكانت قريظة حلفاء للأوس».
والظاهر: أن كلمة «حصين» هي تصحيف: حضير. وذلك كثير.

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٢٩/ ٣٠ وراجع المصادر التالية: بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٥ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٧ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٩ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٩ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٧ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٩ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٢ و ٢٣٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٦ و ٣١٧ وامتاع الأسماع ج ١ ص ٢٢٧، وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٧ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩١ و ١٩٢ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٢٩ و ٤٣٠ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٨ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٣ و ١٠٤ وتفسير القمي ج ٢٠ ص ١٨١ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٢٣ و ٢٠١ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٨ و ٤٥٩.

(٢) راجع: شرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٥ عن البغوي، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٩ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٦ و ٣١٧ عن الشيخين وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٧، ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٠١ والمغازي للواقدي ج ٢

والذي شاتم ابن عبادة هو نباش بن قيس[١].

وقال أسيد بن حضير لكعب: أتسب سيدك يا عدو الله؟! ما أنت له بكفؤ يا ابن اليهودية. ولتولين قريش إن شاء الله منهزمين، وتتركك في عقر دارك؛ فنسير إليك، فننزلك من جحرك هذا على حكمنا[٢].

و «قال موسى بن عقبة: فدخلوا معهم حصنهم؛ فدعوهم إلى الموادعة وتجديد الحلف؛ فقالوا: الآن وقد كسر جناحنا وأخرجهم؟ (يريدون بني النضير) ونالوا من رسول الله (ص)، فجعل سعد بن عبادة يشاتمهم فأغضبوه.

فقال له سعد بن معاذ: إنا والله ما جئنا لهذا، ولما بيننا أكبر من المشاتمة. ثم ناداهم سعد فقال: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير، أو أمر منه.

فقالوا: أكلت أير أبيك.

فقال: غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن».

إلى أن قال: فأمرهم بكتمان خبرهم[٣].

وعند القمي: أنه لما رجع سعد بن معاذ وأسيد إلى النبي وأخبراه

ص ٤٥٨.

ونقل في البداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٤ عن ابن إسحاق عكس ذلك.

(١) راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٢٢٧ عن ابن عقبة، والواقدي، وابن عائذ، وابن سعد.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٧ و ٥٢٨ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٨.

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٤ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠٣.

بنقض قريظة قال (ص): «لعناء، نحن أمرناهم بذلك. وذلك أنه كان على عهد رسول الله (ص) عيون لقريش يتجسسون خبره»[١].

وفي نص آخر: أنهم لما قالوا للنبي: عضل والقارة، قال صلى الله عليه وآله: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»[٢]. أو قال: أبشروا بنصر الله وعونه[٣].

زاد البعض قوله: «إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق، وآخذ المفتاح وليهلكن كسرى وقيصر، ولتنفقنّ أموالهم في سبيل الله.

يقول ذلك حين رأى ما بالمسلمين من الكرب، ثم تقنع إلخ»[٤].

ويقول الحلبي إنه قال: «نصرة الله وعونه، وتقنع بثوبه، واضطجع، ومكث طويلاً، فاشتد على الناس البلاء والخوف، حين رأوه (ص) اضطجع، ثم رفع رأسه وقال: أبشروا بفتح الله ونصره»[٥].

---

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ١٨١ والبحار ج ٢٠ ص ٢٢٣ عنه.

(٢) راجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٧ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٨ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٤ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٠١ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦ و زاد المعاد ج ٢ ص ١١٨ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٤ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٧.

(٣) امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٢٧ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٨ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٩.

(٤) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٨.

(٥) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٧ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٨ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٤ وراجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٩

ثم إنه قد بقيت لنا مع النص المتقدم وقفات.

ونحن نلخصها في المطالب التالية.

النزعة العنصرية لدى اليهود: ـ

أول ما يستوقفنا هنا الطريقة التي أحبط بها حيي مقالة الزبير بن باطا حول نبي تحدثت عنه التوراة، يبعث في مكة، ويهاجر إلى المدينة.

فإنه ضرب على الوتر الحساس لدى اليهود، حين طرح لهم مقولة: أن هذا النبي لا بد أن يكون إسرائيلياً، مستنداً إلى مقولة ترتكز على النزعة العنصرية لدى اليهود، حيث قال لهم:

لا يكون بنو إسرائيل أتباعاً لولد اسماعيل إلخ...

وقد أشرنا إلى هذا الموضوع بصورة أوسع في كتابنا: سلمان الفارسي في مواجهة التحدي.

وفاء اليهود:

وقد اتضح أيضاً: أن اليهودي حين يتلزم بعهده، فإنه لا ينطلق في ذلك من شهامة، ولا كرامة ولا نبل، ولا لأجل أنه يلتزم بشرف الكلمة.. وإنما لأنه يرى أن نقضه له سوف يلحق به ضرراً من نوع ما؛ فإذا اطمأن إلى عدم وجود ضرر في ذلك، فإنه يبادر إليه، دونما

ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٩/ ٢٠٠.

وازع أو رادع.

وقد رأينا: أن كعب بن أسد ينقض العهد حين تخيل أنه سيحقق ما يتمناه، من استئصال محمد (ص) ومن معه، واقتنع بأن القوة التي حشدها الأحزاب كافية في تحقيق هذه الأمنية، وأن المستقبل الرغيد والسعيد سيكون بانتظاره، وأصبح على الأبواب.

طريقة حيي للتأثير على كعب بن أسد:

ويلفت نظرنا هنا الطريقة التي أثار فيها حيي بن أخطب حفيظة كعب بن أسد حتى فتح له، حيث اتهمه بأنه لا يفتح له خوفاً من أن يأكل من طعامه. ففتح له حينئذٍ الباب، الذي كان باب الخزي والخسران، والذل الأبدي، والبوار في الدنيا والآخرة.

ولكن كعباً هذا رغم اعترافه بأنه لم ير من النبي إلا الوفاء والصدق، وغير ذلك فإنه ينقض العهد معه، حباً للدنيا، وطمعاً بها، فكان له الدمار والهلاك.

وحسبك بهذا دلالة على تفاهة تفكير هؤلاء الناس، وسفاهة عقولهم، وتناقضهم السافر في مواقفهم.

دوافع نقض العهد:

أما ما قدمه من امتياز لكعب بن أسد ولبني قريظة ليثير شهيتهم لنقض العهد، والدخول معهم في حرب محمد فهو استئصال محمد ومن معه.

وقد اشترط كعب لنفسه إن لم يتحقق هذا الهدف أن يواجه

حيي بن أخطب معه كل السلبيات التي تنشأ عن عدم استئصال محمد ومن معه، حيث شرط عليه أن يدخل معه حصنه، ويصيبه ما أصابه، فقبل حيي بن أخطب ذلك.

وذلك يوضح لنا صوابية القرار الذي اتخذه الرسول (ص) بتنفيذ حكم سعد بن معاذ في بني قريظة. وهو الحكم الذي أعطاه بنو قريظة أنفسهم موافقتهم المسبقة عليه. بل هم الذين اقترحوا تحكيم سعد بن معاذ فيهم.

وسيأتي بحث هذا الموضوع في غزوة بني قريظة إن شاء الله تعالى.

جهام بلا ماء:

ولم يكن كعب بن أسد يرى في كل تلك الجموع قدرة على تحقيق الهدف الذي تسعى له، أو يشفي الغليل، وما هي إلا رعد وبرق فارغ، وسراب خادع.

ولعل مما ساعد على تكوّن تلك النظرة لديه هو ما جرى في حرب بدر وأحد، وقينقاع، والنضير ، وغيرها. مع رؤيته وجود فرق كبير فيما بين قدرات المسلمين في السابق وفي اللاحق؛ فقد تنامت قدارتهم، واتسع نفوذهم، وتأكدت هيمنتهم على المنطقة بأسرها. كما أن الخطة التي اتبعها رسول الله (ص) في مواجهة الأحزاب قد كانت على مرأى ومسمع من بني قريظة، وهم يعرفون: أنها خطة ناجحة إلى حد كبير، ولا يمكن اختراقها، وتحقيق فجوة فيها بسهولة.

الشعور بالذنب والخيانة:

وإذا كان كعب يعترف بوفاء وصدق محمد، وبسائر المواقف النبيلة، والإنسانية لنبي الإسلام، فإنه يكون قد اعترف ضمناً بالخيانة. وبالغدر، فهل كان حقاً قد شعر بالذنب ويتأنيب الضمير؟!.

لو كان قد شعر بذلك حقاً لبدرت منه بادرة تراجع أو ندم. ولكن الله لا يوفق كل ظلوم كفار، ولن يكون لغادر فلاح، ولا لخائن نجاح. و المصير الذي انتهى إليه بنو قريظة خير شاهد على ذلك.

عدة مبعوثين لمهمة واحدة:

لقد رأينا فيما سبق: أن النبي (ص) قد أرسل أكثر من شخص واحد لكشف خبر بني قريظة. ولعل ذلك يرجع إلى أن الجماعة تكون في مناسبـات مشحونة بالتوتر أكثر تدبراً للأمور في المواقع التي تشهد تصعيداً خطيراً، وعلى درجة كبيرة من الحساسية. ويمكن لبعضهم أن يستعين بالبعض الآخر، ويسدده ويعضده، لو كان ثمة ما يقتضي اتخاذ موقف أو القيام بمبادرة من نوعٍ مّا.

كما أن ذلك يجعل الخبر الذي يأتي به هؤلاء، ليتخذ على أساسه قرارات في غاية الخطورة، ترتبط بمستقبل ومصير أمة من الناس. يجعله أكثر دقة، ووضوحاً، وأبعد عن اللبس، وعن احتمالات تدخل الأهواء في صياغته وفي أدائه. بالإضافة إلى أنه يقطع العذر لمن يريد أن يغدر ويمكر، ثم يجنب نفسه عواقب هذا الغدر و المكر، حتى تلوح له بوادر فشله، وخيبته. إذ لا بد أن يحيق به مكره السيء، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

والملفت للنظر هنا بالذات: أنه (ص) لا يختار لهذه المهمة أناساً عاديين، بل يختار لها الرؤساء والكبراء الذين يحترمهم رؤساء بني قريظة، وقد اختار (ص) أن يكونوا جميعاً من الأنصار، وفيهم خصوص سعد بن معاذ، سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج؛ لكي يلمس اليهود وجود التفاهم والانسجام الكامل، والعميق والراسخ فيما بين هاتين القبيلتين، اللتين لهما تاريخ طويل من الصراع. ثم ليستمعوا من هذين الزعيمين، وخصوصاً من سعد بن معاذ. ما يزيل لهم كل شبهة، ويدفع أي لبس أو تشكيك في حقيقة موقفهما. مع ملاحظة أن بين بني قريظة وبين الأوس حلف وعهد، يلزمهم الوفاء به.

ثم إن هذه البادرة منه صلى الله عليه وآله وسلم ما هي إلا تعبير لهم عن حسن النية، وتدخل في سياق تهيئة الأجواء لهم ليعودوا عن قرارهم الخياني، إذا كانوا يطمعون بوفاء سعد، وقبيلته لهم. وهم الذين يفترض بهم أن يعيشوا معهم بعد رحيل الأحزاب، وعليهم أن يفكروا بأن لا يحرقوا السفن وراءهم، فإن ذلك سوف يحرمهم من السلامة في نهاية المطاف.

طريقة الرمز في نقل المعلومات الحساسة:

وقد طلب (ص) من رسله إلى بني قريظة: أن يستعملوا طريقة الرمز في تأدية المعلومات إليه،إذا كانت تلك المعلومات ذات طابع خاص يميزها بالخطورة والحساسية، وكان للجهر بها أثر سلبي على المعنويات.

كماأن ذلك يفرض أن يكون الذين يتم اختيارهم لمهمات من هذا القبيل لديهم المؤهلات الكافية لاختيار أسلوب الرمز المناسب،

مع قدرتهم على تصنيف المعلومات نفسها وفقاً للخطة التي ترسمها القيادة.

البشائر النبوية بالنصر:

وحين بلغ النبي (ص) خبر نقض بني قريظة للعهد، الذي من شأنه أن يهد العزائم، ويثير حالة من الهلع في صفوف أهل الإسلام؛ فإنه يعلن بالتكبير، الذي يؤذن بالغلبة والفلاح والنجاح، ثم يبشرهم بالنصر الأكيد الساحق، وبالسيطرة على العالم بأسره.

ولكنه (ص) لم يذكر لهم مضمون البشارة إلا بعد أن اضطجع، وتقنع بثوبه، وطال انتظارهم له، واشتد عليهم البلاء، والخوف، فجاءت البشارة لتبخّر ذلك الخوف، وتكشف البلاء. وليفهمهم أن كلامه هذا ليس لمجرد التطمين ورفع المعنويات.

حدة سعد بن عبادة:

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن وصفهم لسعد بن عبادة بالحدة ليس له ما يبرره، ويبدو أن ذلك من تزييفات الحاقدين على سعد، لا قدامه على طلب الخلافة في يوم السقيفة، وهو ذنب يصعب أن يغفره له الآخرون، وإن كان أبو بكر قد استطاع بما لديه من حنكة ودهاء أن يقلب الأمور رأساً على عقب، ويفوز هو بالأمر كما يعلمون.

كما أن سعداً هو والد قيس نصير علي والحسن، والمجاهد بين أيديهما في سبيل الله .

أسيد بن حضير:

وقد ذكر أسيد بن حضير فيما سبق كبديل عن بعض الشخصيات التي أرسلها النبي لكشف خبر بني قريظة.

ثم أعطوه دوراً هاماً جداً، وهو أنه قد أخبر بني قريظة بتفاصيل ما سوف يجري لهم، وقد تحقق ما قال حرفاً فحرفاً، وكأنه يقرؤه في كتاب.

ونحن لا نصدق كل ذلك عن أسيد، الذي كان يحظى بعناية خاصة من قبل بعض التيارات، لأنه كان قريب أبي بكر، وكان له دور هام في توطيد أمر أبي بكر في يوم السقيفة. وكان أحد المهاجمين لبيت فاطمة. وكان للسلطة اهتمام ظاهر به، وسعي لتسطير الفضائل والكرامات له، ومنحه الأوسمة، بسبب وبلا سبب[1].

فضيلة مكذوبة للزبير:

عن عبدالله بن الزبير، قال: كنت يوم الأحزاب، أنا وعمر بن أبي سلمة مع النساء في أطم حسان، فنظرت، فإذا الزبير على فرسه، يختلف إلى بني قريظة، مرتين، أو ثلاثاً، فلما رجعت قلت: يا أبت، رأيتك تختلف!.

قال: رأيتني يا بني؟!.

قلت: نعم.

قال: كان رسول الله (ص) قال: من يأت قريظة، فيأتيني بخبرهم؟!.

---

(١) راجع كتابنا حديث الإفك ـ فصل: الفضائل والسياسة.

فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول (ص) أبويه، فقال: «فداك أبي وأمي»[١].

وفي رواية أخرى: أن عمر بن الخطاب لما أخبر النبي (ص) بنقض بني قريظة للعهد، قال (ص): من نبعث يعلم لنا علمهم؟!.

فقال عمر: الزبير بن العوام.

فكان أول الناس بعث رسول الله (ص) الزبير بن العوام؛ فقال: إذهب إلى بني قريظة، فذهب الزبير فنظر، ثم رجع، فقال: يا رسول الله، رأيتهم يصلحون حصونهم، ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم.

فذلك حين قال رسول الله (ص): إن لكل نبي حوارياً، وحواريي الزبير وابن عمتي.

ثم تذكر القصة إرسال السعدين إلى بني قريظة[٢].

ونقول:

---

(١) المواهب اللدنية ج ١ ص ١١٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٧ وراجع ص ٣٢٧ و ٣٢٨ كلاهما عن الشيخين. وقال الترمذي: حديث حسن والتاريخ الكبير للبخاري ج ٦ ص ١٣٩.
وقول الزبير الأخير موجود في السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥ و ١٠ وكذا في سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦٢ لكنه لم يصرح ببني قريظة، وحدائق الأنوار ج ٢ ص ٥٩٠ عن الصحيحين، وليس فيهما تصريح ببني قريظة أيضاً. وفيه: أنه لما قال له الزبير: أنا. قال: إن لكل نبي حواري، وإن حواريي الزبير.
وراجع: صحيح البخاري كتاب أصحاب النبي، باب مناقب الزبير.

(٢) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٧ وامتاع الأسماع ج ١ ص ٢٢٧.

إن هذه الرواية لا تصح، وذلك للأمور التالية:

أولاً: إنها تخالف سائر الروايات وتناقضها. لأنها مجمعة على أن السعدين هما اللذان جاءا بخبر نقض بني قريظة للعهد.

وحاول البعض توجيه ذلك، ورفع التنافي فقال: «لا منافاة بين ارسال الزبير وارسال هؤلاء، لاحتمال أنهم أرسلوا دفعة، أو بعد ارساله. وخص هؤلاء القوم بالارسال لأنهم حلفاؤهم، فيحتمل أن يرجعوا إلى العهد بعد نقضه حياء من حلفائهم؛ فغلبت عليهم الشقوة»(١).

وقال الحلبي: «ولعل هذا ـ أي ارسال السعدين ومن معهما ـ كان بعد إرسال الزبير إليهم ليأتي بخبرهم، هل نقضوا العهد استثباتاً للأمر»(٢).

ونقول: إن احتمال ارسال الزبير بعد تلك الجماعة ليس له ما يبرره؛ إذ أن إخبار هؤلاء الكبار كان يكفي في ثبوت هذا الأمر لديه (ص).

وأما إرسال الزبير قبلهم، فهو أيضاً في غير محله، إذا كان (ص) عازماً من أول الأمر على إرسال تلك الجماعة، إذ أن إرساله لا يفيد شيئاً في حصول اليقين له (ص)، أما مجرد الإحتمال فقد حصل باخبار عمر له أولاً حسبما تقدم.

وثانياً: أضف إلى ما تقدم: أننا لم نفهم السر في أن الزبير، حين أرسله النبي ليأتيه بخبرهم، قد تردد، إليهم مرتين أو ثلاثاً، ألم

---

(١) السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥.
(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٧.

تكن المرة الأولى كافية لوقوفه على حقيقة أمرهم؟! ولماذا الترديد بين المرتين والثلاث، فهل نسي ولده عبدالله عدد المرات التي رصدها، وسأل أباه عنها؟!.

وثالثاً: إننا لم نعرف وجه تسمية الأطم بـ «أطم حسان»، مع أن النساء كن في أطم بني حارثة.

الا أن يكون قد أراد الاشارة إلى أن جبن حسان قد تجلى في هذا الأطم بالذات، ثم اشتهر به بسبب ذلك ولكن ذلك ـ على كل حال ـ يحتاج إلى اثبات.

ورابعاً: قال ابن عبد البر: «ثبت عن الزبير أنه قال: جمع لي رسول الله (ص) أبويه مرتين: يوم أحد، ويوم بني قريظة، فقال: ارم فداك أبي وأمي.

قال: ولعل ذلك كان في أحد: إن لكل نبي حواري، وإن حواريي الزبير إلخ..»[1].

وخامساً: إن ابن الزبير كان يوم الخندق طفلاً صغيراً، لا يعقل مثل هذه الأمور؛ فلا يصح أن يسأل أباه هذا السؤال، ثم يجيبه أبوه بذلك الجواب الذي لا يدرك مغزاه إلا ذو الحجى، ولا يخاطب به طفل صغير، عمره على أبعد الأقوال أربع سنوات، أو سنتان ونصف السنة ـ كما هو قول الأكثر ـ فضلاً عن القول الذي يذكر: أنه ولد في أحد، أو في الخندق بالذات، ولتوضيح ذلك نقول:

إنهم رغم أنهم يقولون: إن ابن الزبير كان أول مولود ولد في

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٧.

الإسلام من المهاجرين(١) مع وضوح خطأ الرازي في قوله: إنه أول مولود ولد في الإسلام(٢).

ـ رغم ذلك ـ فإنهم قد اختلفوا في تاريخ ولادته، على النحو التالي:

١ ـ فريق يقول: إن أسماء حملت بعبدالله في مكة، وخرجت مهاجرة إلى المدينة، فلما دخلت المدينة نزلت قباء، فولدته بقباء(٣).

٢ ـ وبعضهم أطلق القول في ولادته، فقال: ولد عام الهجرة، أو ما يقرب من هذه العبارة، وبعضهم ذكر ذلك بلفظ قيل(٤).

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٢٣١ والاستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج ٢ ص ٣٠١ و ٣٠٢ وتهذيب الأسماء ج ١ ص ٢٦٦ وسير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٦٣ و ٣٦٥ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٥٤٨ وتلخيصه للذهبي (مطبوع بهامشه) وتاريخ الصحابة ص ١٥٠ وتهذيب الكمال ج ١٤ ص ٥٠٩ وراجع: أسد الغابة ج ٣ ص ١٦١ ومختصر تاريخ دمشق ج ١٢ ص ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٢ والبداية والنهاية ج ٣ ص ٢٣٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٨٩ و ٨٠ والتبيين في أنساب القرشيين ص ٢٥٧ وتهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢١٣ والاصابة ج ٢ ص ٣٠٩ و ٣١٠.

(٢) الجرح والتعديل ج ٥ ص ٥٦ وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ص ١٩٧.

(٣) تاريخ الصحابة لابن حبان ص ١٥٠ والاستيعاب (بهامش الاصابة) ج ٣ ص ٣٠١ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٣١ والتاريخ الكبير ج ٥ ص ٦ وحلية الأولياء ج ١ ص ٣٣٣ ومختصر تاريخ دمشق ج ١٢ ص ١٧١ والتبيين في أنساب القرشيين ٢٥٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٧٩ والثقات ج ٣ ص ٢١٢ والجمع بين رجال الصحيحين ج ١ ص ٢٤٠ ونسب قريش لمصعب ص ٢٣٧.

(٤) راجع: البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٣٠ ووفيات الأعيان ج ٣ ص ٧١ ومستدرك الحاكم وتلخيصه للذهبي ج ٣ ص ٥٤٨ والإصابة ج ٢ ص ٣٠٩

٣ ـ ونجد آخرين يقولون: إنه ولد في شوال السنة الثانية، للهجرة النبوية الشريفة[١].

والقائلون بهذا القول هم الأكثر[٢].

لكن عبارة عددٍ منهم هكذا: هاجرت به أمه وهي حامل؛ فولد بعد الهجرة بعشرين شهراً[٣].

قال العسقلاني: «لا يتجه إلا بتقدير أن يكون قد اقام في بطنها نحو سنتين. ولم أر من صرّح بذلك»[٤].

ولعل هذا هو السبب في أنه قد استظهر أن يكون القول بولادته

وراجع: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٦٣ وأسد الغابة ج ٣ ص ١٦١ وتهذيب الكمال ج ١٤ ص ٥٠٩ وتهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢١٣ وتهذيب الأسماء ج ١ ص ١٦٦ وأنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٧٥.

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة ج ٣ ص ٥٥١ والاصابة ج ٢ ص ٣٠٩ عن الواقدي ومن تبعه، وسير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٦٣ وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ص ١٩٧ وتهذيب الأسماء ج ٢ ص ٢٦٦ والمحبر ص ٢٧٥ و ٢٧٦ وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٢٣١ وراجع: أسد الغابة ج ٣ ص ١٦١ ومختصر تاريخ دمشق ج ١٢ ص ١٧١ عن الزبير بن بكار، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٨٠ عن الواحدي وغيره.

(٢) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢١٤ والاستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج ٣ ص ٥٥١.

(٣) راجع: الاستيعاب (بهامش الإصابة) ج ٢ ص ٣٠١ وتهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢١٣ وراجع: أسد الغابة ج ٣ ص ١٦١ وتهذيب الكمال ج ١٤ ص ٥٠٩ والبداية والنهاية ج ٣ ص ٢٣٠ والمحبر ص ٢٧٥ و ٢٧٦ والجمع بين رجال الصحيحين لابن القيسراني ج ١ ص ٢٤٠.

(٤) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢١٣/٢١٤ وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٨٠.

في أول سنيّ الهجرة أقرب إلى الصحة. وإن كان الاكثر على خلافه[١].

٤ ـ ويؤيد القول بأنه قد ولد بعد الهجرة بعشرين شهراً، وأنه قد ولد في السنة الثانية قولهم: إنه قتل في سنة ثلاث وسبعين، وله اثنتان وسبعون سنة[٢].

٥ ـ إنهم يقولون: إن النعمان بن بشير ولد قبل ابن الزبير بستة أشهر، على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة[٣].

وقال الذهبي: ولد سنة اثنتين[٤].

وقالوا أيضاً: إن النعمان هذا قد ولد قبل وفاة النبي (ص) بثمان سنين وسبعة أشهر. وقيل: ست سنين. والأول أصح. وقال ابن الزبير: النعمان اكبر مني بستة أشهر. وهو أول مولود للانصار بعد الهجرة[٥].

وذلك يعني أن ابن الزبير قد ولد في السنة الثالثة.

٦ ـ إنهم يقولون: إن ابن الزبير يكبر مروان بن الحكم بأربعة

---

(١) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢١٤.

(٢) الاستيعاب (مطبوع بهامش الاصابة) ج ٢ ص ٣٠٣ ومختصر تاريخ دمشق ج ١٢ ص ١٩٨ وج ٢٤ ص ١٩٠ ووفيات الاعيان ج ٣ ص ٧٤ والجمع بين رجال الصحيحين ج ١ ص ٢٤٠ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٥٩ وطبقات ابن سعد ط صادر ج ٥ ص ٤٣.

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٣٠ والاصابة ج ٣ ص ٥٥٩ والاستيعاب (مطبوع بهامش الاصابة) ج ٣ ص ١٥١ وتهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤٤٨ و٤٤٧ والمحبر ص ٢٧٦ وتهذيب الاسماء ج ٢ ص ١٢٩.

(٤) سير اعلام النبلاء ج ٣ ص ٤١١ وتهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤٤٨.

(٥) اسد الغابة ج ٥ ص ٢٢.

أشهر[١] ومروان ولد في الثالثة يوم أحد كما عن مالك، أو في الرابعة، أو يوم الخندق ـ كما عن ابن عبد البر ـ أو في الثانية فراجع ترجمة مروان في كتب السير والتراجم[٢]..

٧ ـ ويقولون ايضاً: كان لابن الزبير حين موت النبي (ص) ثمانية سنين وأربعة اشهر[٣] ولعل قول ابن اسحاق: كان له تسع سنين[٤]. لا ينافي ذلك؛ إذا كان قد قال ذلك على سبيل التقريب، لا التحديد..

٨ ـ قال العسقلاني عن عمر بن أبي سلمة: «ولد بالحبشة في السنة الثانية. وقيل قبل ذلك. وقبل الهجرة إلى المدينة. ويدل عليه قول عبد الله بن الزبير: كان اكبر مني بسنتين الخ»[٥]. وجزم ابن عبد البر بأنه ولد في الثانية، وعند الذهبي: ولد في أواخرها[٦]..

---

(١) سير اعلام النبلاء ج ٣ ص ٤٧٦.

(٢) راجع على سبيل المثال: الاصابة ج ٣ ص ٤٧٧ و٤٧٨ وتهذيب الاسماء ج ٢ ص ٨٧ واسد الغابة ج ٤ ص ٣٤٨ وتهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٩١ و ٩٢ والاستيعاب (مطبوع بهامش الاصابة) ج ٣ ص ٤٢٥ والبداية والنهاية، وتاريخ الأمم والملوك ط دار المعارف ج ٥ ص ٦١١ وطبقات ابن سعد ط صادر ج ٥ ص ٣٦. وفي مختصر تاريخ دمشق ج ٢٤ ص ١٨٤ و ١٧٩: أن عمر مروان حين موت النبي كان ثمانية سنين. وراجع: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٩٢.

(٣) راجع تهذيب الكمال ج ١٤ ص ٥٠٩ وسير اعلام النبلاء ج ٣ ض ٣٦٤، ومختصر تاريخ دمشق ج ١٢ ص ١٧١.

(٤) الاصابة ج ٢ ص ٣٠١ وتهذيب التهذيب ج ٥ ص ٥١٤.

(٥) الاصابة ج ٢ ص ٥١٨ وتهذيب التهذيب ج ٧ ص ٤٥٦.

(٦) الاستيعاب (مطبوع بهامش الاصابة ج ٢ ص ٤٧٥ وراجع: الثقات ج ٣ ص ٢٦٣ والجمع بين رجال الصحيحين ج ١ ص ٣٣٩ والمحبر ص ٢٩٣

٩ ـ وأخيراً، فقد روى البخاري عن عروة: أن الزبير أركب ولده عبد الله يوم اليرموك فرساً وهو ابن عشر، ووكل به رجلاً[١].

وقد كانت وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ أو ١٥ هـ. وعليه الجمهور[٢]. ويدل عليه كتاب الصلح الذي كتبه خالد للنصارى، حينما أراد النهوض الى اليرموك. وقد أرخه بسنة خمس عشرة[٣]. فتكون ولادة ابن الزبير في السنة الثالثة أو الخامسة. وهو ما أيدته بعض الشواهد المتقدمة، خصوصاً قولهم في ولادة مروان.

وقد اعتذر العسقلاني وغيره عن قصة اليرموك هذه: بانها قد جاءت على سبيل الغاء الكسر[٤] ولكنه اعتذار واهٍ، لأن الغاء خمس أو ثلاث سنوات، من أصل خمس عشرة سنة بعيد ومستهجن، خصوصاً إذا كان في مقام التحديد، من أجل اظهار فضيلة وخصوصية خاصة للزبير.

ولو سلمنا، فإنما يقبل هذا الاعتذار بعد ثبوت كون سنّ عبد الله هو عشر سنين. وهو لم يثبت. بل الظاهر خلافه كما قلنا.

وراجع: تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٤٥٦ وتهذيب الاسماء ج ٢ ص ١٦.

(١) صحيح البخاري ج ٣ كتاب المغازي، باب قتل ابي جهل، وسير اعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٦٥.

(٢) عمدة القاري ج ١٧ ص ٩٠ وذكر هذا التاريخ في مصادر كثيرة، فراجع على سبيل المثال: تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٩١ وارشاد الساري ج ٦ ص ٢٥٢ وفتح الباري ج ٧ ص ٢٣٣.

(٣) فتوح البلدان ص ١٣٠ والبداية والنهاية ج ٧ ص ٢١.

(٤) فتح الباري ج ٧ ص ٢٣٣ وعمدة القاري ج ١٧ ص ٩١ وارشاد الساري ج ٦ ص ٢٥٣.

من الذي شاتم بني قريظة:

وقد ذكرت احدى الروايات السابقة: أن ابن اسحاق وبعضاً آخر يقولون: إن سعد بن عبادة هو الذي شاتم بني قريظة، وكان رجلاً فيه حدة.

ونقول:

١ - قد روي عن ابن اسحاق ما يخالف ذلك، وأن الذي شاتمهم هو ابن معاذ.

٢ - إن قول اسيد بن حضير لكعب بن اسد: أتسب سيدك يا عدو الله، يشير إلى أن الذي شاتمهم هو ابن معاذ، لأنه هو الذي كان بينه وبينهم حلف، ويحسن وصفه بأنه سيدهم. أما ابن عبادة فحاله معهم حال سائر الناس.

إلا أن يقال: إنه إنما قال ذلك لاظهار عظمة ابن عبادة وامتيازه عليهم، بالاسلام، وبأنه رئيس قومه.

والذي نستقربه هو أن المشاتمة قد حصلت لكلا الرجلين، فإبن معاذ شتم من قبل كعب بن أسد، وابن عبادة شتم من قبل شاس (نباش) بن قيس حسبما تقدم، ثم قال احدهما للآخر: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة.

عمر عرف بأمر بني قريظة:

ويذكر النص التاريخي: أنه لما نقض بنو قريظة العهد «بلغ عمر بن الخطاب نقض بني قريظة العهد، فأعلم رسول الله (ص) بخبرهم»[1].

(١) راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٧ وبقية المصادر تقدمت تحت عنوان: لا بد من التثبت.

ونقول: إن لم تكن هذه القضية كاذبة، فإننا لا ندري ما السبب في ان ذلك بلغ خصوص عمر بن الخطاب دون النبي، ودون كل المسلمين الآخرين، فهل كان لعمر جواسيس لدى بني قريظة يخبرونه بكل مواقفهم وتحركاتهم؟ أم أنه علم ذلك من جهة المشركين؟.

إننا نعترف بالعجز عن ادراك الحقيقة، وليس في النصوص التي بين أيدينا، ما يكشف لنا عن هذا الأمر..

ولا نريد أن نذكر القارىء بما ذكرناه في غزوة أحد، وبما سيأتي في هذه الغزوة من أن رموز الشرك، كخالد بن الوليد، وضرار بن الخطاب كانوا يتحاشون ايصال الأذى إلى عمر بن الخطاب، ولا ندري سر وسبب ذلك، لا سيما وأنهم يصرحون له بأنهم يتخذون ذلك يداً لهم عنده. هذا بالاضافة إلى قضايا أخرى لا مجال للتذكير بها الآن، رغم أن أهل الشرك إلى أن انقضت غزوة الخندق، كانوا يعتقدون أن بالإمكان اقتلاع الاسلام واستئصاله من جذوره، وكانوا يهتمون بقتل كل من تصل إليه أيديهم، ولا سيما من بني هاشم كحمزة وعبيدة بن الحارث، وعلي وغيرهم. فلماذا يريدون قتل هؤلاء، ولا يريدون قتل غيرهم من رجالات الاسلام؟.

احلاف عبادة بن الصامت:

ويذكر البعض: أنه لما خرج النبي (ص) يوم الأحزاب قال عبادة بن الصامت: يا رسول الله، إن معي خمس مئة رجل من اليهود، وقد رأيت أن يخرجوا معي، فأستظهر بهم على العدو..

فأنزل الله تعالى: لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء، إلا أن تتقوا منهم تقاةً. ويحذركم الله نفسه، والى الله المصير(١).

ونقول:

إن هذا الكلام لا يصح.

أولاً: لأن ظاهر الآية يأبى الانطباق على واقعة من هذا القبيل، فإنها تزجر عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ولم يكن عبادة يريد أن يتخذهم أولياء من دون المؤمنين، بل هو يريد أن يشركهم في الدفاع عن أهل الإيمان، حباً منه بسلامة المؤمنين. فهذا التحذير القوي، واستثناء حالة مصانعتهم تقية. والتنصيص على أنه يواليهم من دون أهل الإيمان يبعد القضية عن أن تكون في شأن عبادة.

وثانياً: من أين يأتي عبادة بخمس مئة يهودي ليقاتلوا معه، فقد أجلي بنو قينقاع وبنو النضير عن ديارهم، ولم يكونوا ليدافعوا عن الاسلام، بل كانوا هم المحرضين للاحزاب على حرب النبي والمسلمين. وبنو قريظة قد نقضوا العهد، وأصبحوا مع الاحزاب.

عريش جديد لأبي بكر:

ويستفاد من كلام الواقدي: أنه قد كان ثمة ما يشبه العريش ـ عريش بدر ـ لأبي بكر فيذكر: أن أبا بكر كان مع النبي (ص) «في قبة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ٥٨ وتفسير الخازن ج ١ ص ٢٢٧.

من أدم مضروبة في أصل الجبل، عند المسجد الذي في أسفل، معه أبو بكر رضي الله عنه، والمسلمون على خندقهم يتناوبون»[1].

فجاء عمر، الى النبي (ص)، وأخبره بنقض بني قريظة للعهد..

لكن قد تقدم: أن ذلك لا يصح، أو على الأقل يشك كثيراً في صحته. وقد تحدثنا في غزوة بدر عن عدم صحة قصة العريش المزعوم لابي بكر والنبي (ص)، فراجع ما ذكرناه هناك..

ولسنا ندري لماذا ترك أبو بكر الناس يتناوبون على خندقهم، أليس هو خندقه أيضاً، ولماذا استثناه رسول الله (ص) ليكون معه، دون كل من عداه، وكيف لم يعترض على ذلك أي من الناس الذين كانوا يقومون بواجباتهم في الحفظ والحراسة وكان النبي (ص) نفسه يفعل ذلك أيضاً.

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٧.



الفصل السابع :

معنويات الجيشين، والرعب والخوف ايام الحصار

الحالة المعنوية لجيش الاحزاب:

لقد حاصر المشركون المسلمين في المدينة مدة طويلة سنتحدث عنها في الفصل التالي، ولا شك في ان جيش الشرك كان مطمئناً الى أنه سوف يحقق في مسيره ذاك لحرب المسلمين نتائج طيبة ومثيرة، وربما حاسمة، وذلك استناداً الى ذلك الحشد الهائل الذي استطاع أن يوفره، والذي لم يسبق له مثيل.

ثم فوجىء بالخطة الدفاعية التي اعتمدها المسلمون في المواجهة، ولكنه لم يفقد الأمل، وحرص على متابعة الاعداد والاستعداد، بحمله بني قريظة على نقض العهد، وذلك على أمل ان يجد الوسيلة لتجاوز عقدة الخندق، للتوصل الى المواجهة الحاسمة، التي كان يأمل.

فكان من الطبيعي ان نجد جيش الأحزاب يتظاهر بالأنفة والشموخ والعنجهية، والاستعلاء والفرح. قال ابن شهر آشوب:

«كان الكفار على الخمر، والغناء، والمدد، والشوكة»[1].

وكيف لا يكونون كذلك، وهم يرون أنفسهم في موقع من يحاصر اعداءه، ويضيق عليهم الخناق. ويتسبب لهم بالمزيد من الألم والأذى والخوف والرعب، مع ما يعانون من جوع وحاجة، وشدة.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٨ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٧٢.

وان كان فيما بعد ـ وبعد قتل علي لطليعة فرسانهم ـ انقلب السحر على الساحر كما سنرى.

وما يهمنا هنا هو بيان حالة المسلمين في مواجهة الأحزاب، فنقول:

المسلمون في مواجهة الأحزاب:

قد تحدث القرآن عن حالة المسلمين بصورة عامة في يوم الأحزاب، وتحدث عن حالات المنافقين ومواقفهم وأساليبهم في هذه المناسبة. وذكر أيضاً حالة أهل الايمان والإخلاص، وميزهم عن غيرهم.

ونحن نذكر هنا الآيات التي تعرضت للفرقاء الثلاثة، فنقول:

الحالة العامة:

لقد كان ثمة حالة من الخوف والرعب تهيمن على الأجواء العامة للمسلمين، الذين لم يستحكم الايمان في نفوسهم وقلوبهم، حتى زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر. قال تعالى: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، مستهم البأساء والضراء، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب﴾**[1].

حيث يذكر المفسرون: أن هذه الآية قد نزلت يوم الأحزاب،

---

(١) سورة البقرة/ ٢١٤.

وقيل: نزلت في أحد[١].

وقد زاد هذا الخوف والرعب باستمرار الحصار، وظهور بعض المناوشات. وقد أشار الله سبحانه الى ذلك، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم، اذ جاءتكم جنود؛ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها. وكان الله بما تعملون بصيرا﴾.

﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾[٢].

يقين أهل الايمان:

أما عن خصوص الثلة المؤمنة الصابرة المجاهدة، فإنهم كانوا مطمئنين الى نصر الله تعالى لهم على أعدائهم. دون أدنى شك أو ريب منهم، فقد قال تعالى: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا ايماناً وتسليماً. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر. وما بدلوا تبديلا﴾.

﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم، ان الله كان غفوراً رحيماً﴾[٣].

---

(١) بحار الأنوار ج ٢٠ ص ١٨٨ عن مجمع البيان ج ٢ ص ٣٠٩ وراجع: الدر المنثور ج ١ ص ٢٤٣ عن عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة. وعن ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي.

(٢) سورة الأحزاب/ ٩ ـ ١١.

(٣) سورة الأحزاب ٢٢ ـ ٢٤.

حالة المنافقين:

أما المنافقون: فإنهم ما زالوا منذ البداية يشككون في قدرة المسلمين على المواجهة، وقد تقدم أنهم حين حفر الخندق أظهروا نفاقهم الذي رافق جميع مراحل المواجهة وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم، فقال:

﴿وإذ يقول المنافقون، والذين في قلوبهم مرض: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وإذ قالت طائفة منهم: يا أهل يثرب لا مقام لكم، فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي، يقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، إن يريدون الا فرارا. ولو دخلت عليهم من أقطارها، ثم سئلوا الفتنة لأتوها، وما تلبثوا بها الا يسيرا. ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل: لا يولون الأدبار، وكان عهد الله مسؤولا﴾.

قل: ﴿لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل، وإذن لا تمتعون إلا قليلا﴾.

قل: ﴿من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم رحمة، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً، ولا نصيراً﴾.

﴿قد يعلم الله المعوقين منكم، والقائلين لإخوانهم: هلم الينا، ولا يأتون البأس إلا قليلاً. أشحةً عليكم، فإذا جاء الخوف، رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم، كالذي يغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد، أشحة على الخير، أولئك لم يؤمنوا، فأحبط الله أعمالهم. وكان ذلك على الله يسيرا﴾.

يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، وإن يأت الاحزاب يودّوا لو أنهم

بادون في الأعراب، يسألون عن انبائكم، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا[١]».

النصوص التاريخية:

قد ظهر من الآيات الشريفة: أن ما كان يثيره المنافقون من شائعات، وما كانوا يتخذونه من مواقف، قد أثر على الحالة العامة، وأسهم في إثارة مشاعر الخوف التي كانت متحفزة، بسبب ما يرونه من حشود هائلة، وبسبب الحصار الذي يعانون منه وترافق مع الحاجة الملحة؛ الأمر الذي بث روح الانهزام، والتخاذل والتردد فيما بين ضعفاء النفوس، وقليلي التدبر.

وقد حملت لنا النصوص التاريخية بعض التفاصيل، التي يحسن الوقوف عندها، الى جانب أخرى يحسن الإلمام بها والإطلاع عليها، والاستفادة منها.

ونحن نذكر هنا بعضاً من ذلك ولا نصرف النظر عن جميع ما لدينا من ملاحظات وتحفظات، بل نذكر بعضاً من ذلك، حسبما يقتضيه المقام، فنقول:

عن جابر بن عبد الله، قال: كان خوفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش، حتى فرج الله ذلك[٢].

وعن أم سلمة: انها قالت: إنها شهدت مع النبي (ص) مشاهد فيها قتال وخوف: المريسيع، وخيبر، والحديبية، والفتح، وحنين،

---

(١) سورة الأحزاب/ ١٢ ـ ٢١.
(٢) المغازي ج ٢ ص ٤٦٨.

ولم يكن من ذلك أتعب لرسول الله (ص) ولا أخوف عندنا من الخندق. وذلك ان المسلمين كانوا في مثل الحرجة، وإن قريظة لانأمنها على الذراري الخ[١].

«وكانوا يبيتون بالخندق خائفين، فإذا أصبحوا أمنوا»[٢].

«واشتد البلاء والحصر على المسلمين، وشغلتهم أنفسهم، فلا يستريحون ليلاً، ولا نهاراً»[٣].

وقال ابن شهر آشوب:

«وكان الكفار على الخمر، والغناء، والمدد، والشوكة. والمسلمون كأن على رؤوسهم الطير لمكان عمرو.

والنبي (ص) جاث على ركبتيه، باسط يديه، باك عيناه، ينادي بأشجى صوت:

«يا صريخ المكروبين، يا مجيب دعوة المضطرين، اكشف همي، وكربي، فقد ترى حالي»[٤].

ويقولون: لما صح عند رسول الله (ص) نقض بني قريظة للعهد ضاق ذرعاً، وخشي أن يفت ذلك في أعضاد المسلمين، فعظم البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم، ومن أسفل منهم، حتى

---

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣١ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٧ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٥.
(٢) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٨.
(٣) دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠٦.
(٤) مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٨ وراجع ج ٣ ص ١٣٤ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٧٢ وراجع ج ٤١ ص ٨٨.

ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق، وكثر الخوض.

وأقام رسول الله (ص) وأصحابه فيما وصف من الخوف والشدة لتظاهر الأعداء عليهم، واتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى كان ما كان من كيد نعيم بن مسعود الخ[١] وستأتي قصة نعيم، وما فيها من هنات وإشكال.

قال ابن الجوزي: «قال علماء السير: كان اشتد الخوف يوم الخندق، وفشل الناس، وخيف على الذراري والأموال»[٢].

وفي نص آخر: «ولما فشا نقض بني قريظة، واشتد الخوف، وعظم عند ذلك البلاء، فبينما هم على ذلك إذ جاءتهم جنود ـ يعني الأحزاب ـ وهم قريش وغطفان، ويهود بني قريظة. . . الى ان قال: فجاء بنو اسد، وغطفان، وفزارة، واليهود من فوقهم، من جهة المدينة، وقائدهم حارث بن عوف، وعيينة بن حصن. وجاء قريش

---

(١) تجارب الأمم ج ١ ص ١٥٠ وأشار الى ذلك في المصادر التالية: تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦١ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٢/١١٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٨ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٤ و٢٠١ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٤/١٦٥ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٠ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٤و ١١١ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٠٢ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٩ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤ والمختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٣٥ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٣ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٢ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٤ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٧/٢٢٨ و٢٨١.

(٢) الوفاص ٦٩٣ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٨ ونهاية الأرب ج ١٧ ص ١٧١.

وكنانة من جانب أسفل الوادي، وقائدهم ابو سفيان بن حرب»[١].

«وقال ابن عباس: كان الذين جاؤوهم من فوقهم بنو قريظة، ومن أسفل منهم قريش وغطفان، كذا في الوفاء.

ومن هيبة كثرتهم، وشدة شوكتهم رعبت قلوب ضعفاء أهل الاسلام، وزاغت أبصارهم»[٢].

وقال القيرواني: «جاءت قريش من هاهنا، واليهود من هاهنا، والمجد من هاهنا. يريد هوازن»[٣].

ومعنى ذلك هو أن المسلمين كانوا محاصرين من جهات ثلاث.

ويقول الطبرسي:

«من فوقكم: من فوق الوادي، من قبل المشرق: قريظة والنضير، وغطفان.

ومن أسفل منكم: أي من قبل المغرب، من ناحية مكة: أبو سفيان في قريش ومن تبعه»[٤]

مواقف المنافقين:

وقال القمي: «لما طال على اصحاب رسول الله (ص) الأمر، واشتد عليهم الحصار. وكانوا في وقت برد شديد، وأصابتهم مجاعة.

---

(١) العبر وديوان المتبدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٠ وراجع: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٧ و٣١٨.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤ وراجع: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص٥.

(٣) الجامع ص ٢٨١.

(٤) مجمع البيان ج ٨ ص ٣٣٩ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ١٩٢ عنه.

وخافوا من اليهود خوفاً شديداً. وتكلم المنافقون بما حكى الله عنهم. ولم يبق أحد من أصحاب رسول الله (ص) إلا نافق إلا القليل.

وقد كان رسول الله (ص) أخبر أصحابه: أن العرب تتحزب ويجيئون من فوق. وتغدر اليهود ونخافهم من اسفل، وإنه ليصيبهم جهد شديد، ولكن تكون العاقبة عليهم.

فلما جاءت قريش، وغدرت اليهود قال المنافقون: ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا. .

وكان قوم لهم دور في أطراف المدينة. فقالوا: يا رسول الله، تأذن لنا أن نرجع الى دورنا، فإنها في أطراف المدينة، وهي عورة، ونخاف اليهود أن يغيروا عليها.

وقال قوم: «هلموا فلنهرب، ونصير في البادية، ونستجير بالأعراب، فإن الذي كان يعدنا محمد كان باطلاً كله»[١].

وقال البيهقي: انه بعد حصارٍ دام قريباً من عشرين ليلة، وبعد حصول قتال دام الى الليل، شغل المسلمين عن صلاة العصر: «فلما اشتد البلاء على النبي (ص) وأصحابه نافق ناس كثير، وتكلموا بكلام قبيح.

فلما رأى رسول الله ما فيه الناس من البلاء والكرب جعل يبشرهم ويقول: والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة. واني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً، وان يدفع الله عز وجل الي مفاتيح الكعبة، وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل.

---

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٦ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٢٩ و٢٣٠.

وقال رجل ممن معه لأصحابه: ألا تعجبون من محمد!! يعدنا أن نطوف بالبيت العتيق، وأن نقسم كنوز فارس والروم، ونحن هاهنا لا يأمن أحدنا أن يذهب الى الغائط، والله ما يعدنا الا غروراً.

وقال آخرون ممن معه: ائذن لنا، فإن بيوتنا عورة.

وقال آخرون: «يا أهل يثرب، لا مقام لكم فارجعوا»[١].

ويقول نص آخر:

«ونجم النفاق من بعض المنافقين. وقال معتب بن قشير: كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر، وأن أموالهما تنفق في سبيل الله، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط: «ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا».

وقال رجال ممن معه: «يا أهل يثرب لا مقام لكم، فارجعوا»[٢].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠٢ وراجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٨. وراجع المصادر التالية: حدائق الأنوار ج ٢ ص ٥٨٧ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠١ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٨ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٨ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٤ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٣ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٨٨ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٠ والمختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٣٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٨ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٧ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥١ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٧ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٢ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٤/١٦٥ والمغازي

من الذي قال: بيوتنا عورة:

تقدم في النصوص التي أوردناها: أن هناك من قال: بيوتنا عورة، من أجل الحصول على إذن من النبي (ص) لهم بترك مواقعهم، والرجوع الى بيوتهم، فمن هم هؤلاء الذين قالوا ذلك يا ترى؟

إن بعض النصوص التاريخية تقول: هم «عبد الله بن أبي وأصحابه.

وقيل: هم بنو سالم من المنافقين.

وقيل: إن القائل لذلك أوس بن قبطي ومن وافقه على رأيه، عن يزيد بن رومان»[1].

وقال ابن الكلبي: إن ابا مليل، سليك بن الأزعر ـ شهد بدراً ـ هو الذي قال يوم الخندق بيوتنا عورة[2].

وقال الديار بكري: «وكان جماعة من المنافقين مثل أوس بن القيظي، ومتابعيه ينفرون جيش الاسلام، ويقولون: ارجعوا الى منازلكم، واعتلوا بأن منازلكم عورة، خالية عن المحافظة، فإنها خارج المدينة، ونحن نخاف أن يظفر بها جيش العدو»[3].

للواقدي ج ٢ ص ٤٥٩/ ٤٥٠ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ١٩٣ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤ وراجع: سعد السعود ص ١٣٨.

(١) مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٧ والبحار ج ٢٠ ص ١٩٣ عنه. وراجع: نهاية الارب ج ٧ ص ١٨١.

(٢) راجع: امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٩.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤ وراجع: المواهب اللدنية ج ١ ص ١٣٣

ويقول نص آخر: «عظم الأمر، وأحيط بالمسلمين من كل جهة. وهمّ بالفشل بنو حارثة، وبنو سلمة، معتذرين بأن بيوتهم عورة، خارج المدينة، ثم ثبتهم الله»[١].

لكن البعض قال: إن المستأذنين هم بعض بني حارثة لا كلهم فراجع[٢].

ويروي لنا الواقدي هذه القضية بنحو أكثر تفصيلاً، فيقول:

إن بني حارثة بعثوا بأوس بن قيظي الى النبي يقولون: إن بيوتنا عورة، وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا. ليس بيننا وبين غطفان أحد يردّ عنا، فأذن لنا فلنرجع الى دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا.

فأذن لهم (ص)، ففرحوا بذلك، وتهيأوا للانصراف.

فبلغ سعد بن معاذ ذلك فقال: يا رسول الله، لا تأذن لهم؛ إنا والله، ما أصابنا واياهم شدة قط إلا صنعوا هكذا؛ فردهم[٣].

والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥.

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٠ وراجع المصادر التالية: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٧ و٢٢٨ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٨ ومجمع البيان ج ٢ ص ٣٤٧ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ١٩٣.

(٢) راجع: جوامع السيرة النبوية ص ١٤٩.

(٣) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٣ وراجع المصادر التالية: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٩ وراجع: امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٩ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٨ والبداية والنهاية ج ٤ ص١٠٤ وليس فيه موقف ابن معاذ: وراجع المصادر التالية، وان لم تشر لموقف ابن معاذ: عيون الأثر ج ٢ ص ٦٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٣ وتهذيب سيرة ابن

من بقي مع النبي (ص) في المواجهة:

قال دحلان: «فجعل المنافقون يستأذنون، ويقولون: بيوتنا عورة، أي من العدو؛ لأنها خارج المدينة، وحيطانها قصيرة، يخشى عليها السرقة؛ فأذن لنا نرجع الى نسائنا، وابنائنا، وذرارينا. فيأذن (ص) لهم.

قيل: ولم يبق معه تلك الليلة إلا ثلاث مئة»[١].

وعن حذيفة: «ان الناس تفرقوا عن رسول الله (ص) ليلة الأحزاب، فلم يبق معه الاثنا عشر رجلاً»[٢].

وقال القاضي النعمان: «وتسلل عن رسول الله صلوات الله عليه وآله اكثر أهل المدينة، فدخلوا بيوتهم كالملقين بأيديهم»[٣].

وتقدم قول القمي: «ولم يبق أحد من أصحاب رسول الله (ص) إلا نافق إلا القليل».

وهذا يؤيد ما سيأتي من أن سبب النصر هو بطولات علي عليه السلام، وما جرى على المشركين من مكابدة ما تثيره الرياح

هشام ص ١٩٢ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠١ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٣٥ و٤٣٦.

(١) السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٠ وستأتي بقية المصادر في الفصل الأخير من هذا الباب تحت عنوان: مهمة حذيفة بن اليمان.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٥٠ و٤٥١ وراجع: تاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤٩/ ٢٥٠ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣١.

(٣) شرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٤.

والأعاصير من متاعب لهم، وما تزرعه من خوف ورعب في قلوبهم. بعد أن آتت النشاطات النبوية لزرع الشكوك فيما بينهم ثمارها، كما سنرى.

وقبل أن نمضي في الحديث عن سائر الوقائع نتوقف قليلاً للإشارة الى الأمور التالية:

الحارث بن عوف:

ذكرت بعض الروايات المتقدمة الحارث بن عوف في المشاركين في حصار المدينة، وقد تقدم أن قومه ينكرون حضوره حرب الأحزاب، فراجع الفصل الأول من هذا الباب.

رهبة الليل

وقد ذكرت بعض النصوص المتقدمة: أن الليل كان بالنسبة لكثير من المسلمين بمثابة كابوس مخيف لما يتوقعونه من مفاجئات لم يحسبوا لها حساباً، ونحن وإن كنا نصدق أن لليل رهبته، ولكن وجود الرسول فيما بينهم، وهو الذي لم يزل يطمئنهم الى نصر الله وعونه، كان ينبغي أن يطمئنهم، ويذهب حالة الخوف والرعب من نفوسهم لو كانوا راسخي القدم في الايمان، والتسليم لله ولرسوله.

خوف الرسول:

وقد تحدثت بعض كلمات المؤرخين عن خوف النبي (ص) في حرب الأحزاب.

ونحن لا نشك في عدم صحة هذه النصوص، ولا أقل من أنها لم تتحرّ الدقة في نقل الوقائع والأحداث، فإن الرسول صلى الله عليه

وآله وسلم كان يبشر المؤمنين بنصر الله وعونه، ابتداء من حفر الخندق، ثم حين نقض بني قريظة لعهدهم، وفي غير ذلك من مناسبات.

فلم يكن هو ليعاني من حالة الرعب والخوف، وهو الذي كان مصدر السكينة والامن والطمأنينة للناس.

بل إننا اذا كنا نرى أن القرآن يتحدث عن المؤمنين بأنهم كانوا على درجة من التسليم والتصديق بوعد الله، وما زادهم مجيء الأحزاب، ورؤيتهم لهم الا ايماناً وتسليماً. فإن النبي الأعظم لن يكون أقل ايماناً منهم.

والذي نراه هو ان النبي صلى الله عليه وآله. قد تعب كثيراً في انجاز المهام، حين صار أصحابه يتركونه، حتى بقي في قلة قليلة منهم. بل إن بعضهم حتى طلحة، وعمر قد تركوه، واختبأوا في حديقة هناك، وقد كشفت عائشة أمرهم، وأحرجتهم بصورة ظاهرة كما ذكرناه في موضعه.

فيمكن أن يكون بعض المؤرخين خلط بين التعب والمعاناة للنبي (ص) وبين الخوف، فنسب اليه الخوف، مع أن الصحيح هونسبة التعب كما قالته ام سلمة، وغيرها.

فليلاحظ ذلك.

اتهام أحد البدريين بالنفاق:

وقد ذكرت النصوص المتقدمة: أن معتب بن قشير هو الذي قال: كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر الخ . . .

مع أن ابن هشام يقول: قيل: لم يكن معتب من المنافقين، وقد شهد بدراً[(١)]:

وقال العسقلاني: «ذكروه في من شهد العقبة. وقيل: إنه كان منافقاً، وأنه الذي قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا. وقيل: انه تاب. وقد ذكره ابن اسحاق في من شهد بدراً»[(٢)].

وقال أبو عمر: «شهد بدراً وأحداً، وكان قد شهد العقبة. يقال: إنه الذي قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا»[(٣)].

ولا نريد تتبع سائر المصادر التي أشارت الى بدرية معتب بن قشير. فكيف نوفق بين وصف القرآن له بالنفاق، وبين بدريته، التي توجب ـ حسبما يزعم هؤلاء ـ أن يغفر له كل ذنب، ويطهر من كل رجس، وقد تحدثنا عن هذا الأمر في غزوة بدر فراجع.

هيكل يخطىء في تصويراته وتصوراته:

قال محمد حسين هيكل: «لأهل يثرب أبلغ العذر إن كان بلغ منهُم الفزع وزلزلت قلوبهم، ولمن قال منهم العذر في أن يقول: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط، وللذين بلغت قلوبهم الحناجر العذر في أن تبلغها. أليس هو الموت الذي يرون آتياً تقدح بالشرر عينه، مصورة في بريق هذه السيوف تلمع في أيدي قريش، وفي أيدي غطفان،

(١) عيون الأثر ج ٢ ص ٦٠.
(٢) الاصابة ج ٣ ص ٤٤٣.
(٣) الاستيعاب (مطبوع بهامش الاصابة) ج ٣ ص ٤٦٢.

وتدب الى القلب مخافته، متسللة من منازل قريظة الغدرة الخائنين»[١].

ونقول:

لقد اشتبه هيكل في تصوره وفي تصويره أيما اشتباه، وذلك لأمور:

الأول: إن الله سبحانه قد حكى طائفة مما ذكر آنفاً عن المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، فقال: «وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: ما وعدنا الله ورسوله الا غروراً. وإذ قالت طائفة منهم: يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي، يقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، إن يريدون إلا فراراً»[٢].

فهل كان المنافقون والذين في قلوبهم مرض على حق في قولهم هذا؟!.

وقد صرح المؤرخون ـ حسبما تقدم وسيأتي أيضاً ـ بأن المنافقين هم الذين قالوا: يعدنا محمد كنوز كسرى الخ.

الثاني: إن هذه الأقوال ـ كما تقدم ـ إنما صدرت بادىء الأمر من المنافقين قبل مجيء الأحزاب، وقبل نقض بني قريظة للعهد، إذ قد صرحت الروايات بأنهم قد قالوا ذلك حين حفر الخندق، توقعاً لمجيء قريش والأحزاب، ثم قالوه بعد اشتداد الحصار. فلو سلمنا لهيكل قوله ذاك، نقول له: ما هو المبرر لرعبهم قبل مجيء الأحزاب، ولم يكن ثمة ما يوجب الخوف إلى هذه الدرجة.

---

(١) حياة محمد ص ٣٢٥ الطبعة الثانية سنة ١٣٥٤ هـ. ق دار الكتب المصرية.
(٢) سورة الأحزاب/ ١٢ ـ ١٣.

الثالث: إننا لا نوافق أن من حقهم أن يقولوا ذلك، حتى لو كان القائلون هم المؤمنون، وذلك لأنهم قد رأوا من الآيات والخوارق، والكرامات للنبي (ص)، وهم يحفرون الخندق الشيء الكثير. فكان من المفروض فيهم أن يتيقنوا بنصر الله سبحانه لهم، وبصدق ما أخبر به نبيهم الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. ولكن لم تكن تلك الكرامات تقتصر على مجرد التصور العقلي لهم. بل كانت تتعدى ذلك لتكون ممارسة حسية لكل فردٍ فردٍ منهم، كما كان الحال بالنسبة لإطعام أهل الخندق جميعاً من وليمة جابر.

الرابع: ان مراجعة الآيات القرآنية تعطينا: أن الذين زاغت ابصارهم وبلغت قلوبهم حناجرهم، وظنوا بالله الظنون هم غير المؤمنين الذين كانوا ثابتين في حصون الإيمان.

لكن هؤلاء المؤمنين قد تأثروا من حالة إخوانهم، فوقعوا في البلاء والزلزال، فقد قال تعالى مخاطباً المسلمين.

«إذ جاؤكم من فوقكم ومن اسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا.

هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا[1]».

فترى أنه تعالى قد تحدث عن المؤمنين بطريقة الحديث عن الغائبين، مع أنه لو كان المراد جميع المسلمين لكان السياق يقتضي أن يقول: «هنالك ابتليتم وزلزلتم».

أضف الى ما تقدم: أنه لو كان الأمر كذلك لم يقل: «هنالك

---

(١) الأحزاب / ١٠ و١١.

ابتلي» بل كان عليه أن يقول: وابتليتم. فكلمة «هنالك» تشير الى أن الابتلاء للمؤمنين قد حصل حينما ظننتم بالله الظنون، وبلغت قلوبكم حناجركم.

على أن من الواضح: أن ظن الظنون بالله لا ينسجم مع الايمان، بل هو ينافيه. وقد تحدث تعالى عن المؤمنين فذكر أنهم لم يظنوا الظنون هنا، بل زاد ايمانهم عمقاً ورسوخاً. فقال تعالى: **﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا ايماناً وتسليما. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا﴾**.

بقي أن نشير هنا الى أن المراد بابتلاء المؤمنين هو أن مسؤولياتهم أصبحت اكبر وأخطر من ذي قبل، وأصبحت كل المصائب والآلام الناتجة عن هذا الحصار، ومن انهزام المسلمين روحياً، والخوف على الذراري والنساء، وما صاحب ذلك من تحمل مشقات وجهد وسهر ـ ان ذلك كله ـ قد انصب على رؤوس ثلة قليلة مجاهدة صابرة، قد لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليدين أو حتى اليد الواحدة.

إذ أن من الغني عن البيان: أن تحقيق وعد الله ورسوله لهم بالنصر، لا يعني أن لا يتحملوا المشقات والمصائب والآلام الكبيرة، وأن لا يبتليهم بالمواجهات الخطيرة، التي تصل الى درجة الاستشهاد بالنسبة الى بعض الأفراد؛ لأن الوعد إنما هو للمجموع العام، ولأهل هذه الدعوة بصفتهم العامة، وإن كان أفراد كثيرون يستشهدون، أو يمتحنون بالمصائب والبلايا والرزايا.

العقد المزعوم مع عيينة بن حصن:

قال ابن المسيب: «حصر رسول الله (ص) وأصحابه بضع عشرة حتى خلص الى كلٍ منهم الكرب.. الى أن قال: فبينما هم على ذلك من الحال أرسل رسول الله (ص) الى عيينة الخ»[١].

وذكر نص آخر: أنه بعد أن حوصر المسلمون، ونقض بنو قريظة العهد، وضاقت الأمور على المسلمين، وأحيط بهم، وهم بالفشل بنو حارثة، وبنو سلمة، بعث رسول الله (ص) الى عيينة بن حصن، والحرث بن عوف: أن يرجعا، ويخذلا الأعراب، ولهما ثلثا ثمار المدينة ـ كما في بعض المصادر ـ لكن أكثر المصادر تقول: ثلث ثمار المدينة.

زاد في نصٍ آخر قوله: «فجرى بينهما المراوضة في الصلح حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح»[٢].

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٧ وراجع المصنف للصنعاني ج ٥ ص ٣٦٧.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٥ وراجع المصادر التالية: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٠ ونهاية الأرب ج ١٧ ص ١٧٢ و١٧٣ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٧ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٠ والإرشاد للمفيد ص ٥١و٥٢ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٢ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٨ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٤ والبحار ج ٢٠ ص ٢٥٢ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٨ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٠ والسيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ٢٣٤ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٢ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٣٠ وأنساب الأشراف ج ١ ص ٣٤٦ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠١.

وشاور ﷺ في ذلك: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة فأبيا، وقالا: يا رسول الله، أشيء أمرك الله به؛ فلا بد منه؟! أم شيء تحبه، فتصنعه، فنصنعه لك؟! أم شيء تصنعه لنا؟!.

قال: بل أصنعه لكم، إني رأيت أن العرب رمتكم عن قوس واحدة.

فقال سعد بن معاذ: قد كنا معهم على الشرك والأوثان، ولا يطمعون منا بتمرة شراءً ولا بيعاً. فحين اكرمنا الله بالاسلام، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟! والله، لا نعطيهم إلا السيف.

فصلب رسول الله (ص)(١).

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٠ وراجع: المصادر التالية: سيرة المصطفى ص ٤٩٩ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥و٦ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠١ و٢٠٢ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٦ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٧ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي الشافعي ج ١٠ ص ١٨٠ وانساب الأشراف ج ١ ص ٣٤٦ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٨ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣١ وراجع: الارشاد للمفيد ص ٥٢ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٨ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٦ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٩ / ١٥٠ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٨ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٩ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٠و١٨١ وكشف الغمة للاربلي ج ١ ص ٢٠٣ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٤و١٠٥ والبحار ج ٢٠ ص ٢٥٢ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٧٢و١٧٣ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٠ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٣٠و٤٣١ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٥ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٤ وتهذيب سيرة ابن هشام ١٩٢و١٩٣ والمصنف للصنعاني ج ٥ ص ٣٦٧و٣٦٨ وشرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٣/ ٢٩٤.

زاد البعض هنا قوله: «فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الآن قد عرفت ما عندكم؛ فكونوا على ما أنتم عليه؛ فإن الله تعالى لن يخذل نبيه، ولن يسلمه حتى ينجز له ما وعده.

ثم قام رسول الله صلى الله عليه وآله في المسلمين، يدعوهم الى جهاد العدو، ويشجعهم، ويعدهم النصر من الله تعالى[1] «وترك ما كان هم به من ذلك»[2].

وقد تفننت بعض الروايات في تصوير وقائع هذه القصة، فهي تقول:

إنه (ص) أرسل الى رئيسي غطفان: عيينة بن حصن، والحارث بن عوف أن يجعل لهما ثلث ثمار المدينة، ويرجعان بمن معهما.

فجاءا متخفيين من أبي سفيان مع عشرة من قومهما الى النبي (ص)، فطلبا نصف ثمار المدينة، فأبى عليهما إلا الثلث، فرضيا. فجرى بينه وبينهم الصلح، وأحضر رسول الله (ص) الصحيفة والدواة، وأحضر عثمان بن عفان، حتى كتب كتاب الصلح، ولم يقع الاشهاد.

وعند الواقدي والمقريزي: أحضرت الصحيفة والدواة ليكتب عثمان الصلح، وعباد بن بشر على رأس رسول الله (ص) مقنع بالحديد.

---

(١) الارشاد للمفيد ص ٥٢ وراجع: كشف الغمة للأربلي ج ١ ص ٢٠٣ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٥٢. ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٨.

(٢) بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٦ وراجع: الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٠و١٨١.

ولما أرادوا أن يكتبوا الشهادة جاء أسيد بن حضير؛ فرأى عيينة بن حصن قد مد رجله بين يدي رسول الله (ص)، وعلم ما جاء له؛ فأقبل الى عيينة وقال:

يا عين الهجرس، أتمدّ رجلك بين يدي رسول الله (ص)؟! فوالله، لولا مجلس رسول الله لأنفذت جنبك بهذا الرمح.

ثم أقبل بوجهه الى النبي فقال: يا رسول الله، إن كان هذا شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من عمله، أو أمراً تحبه، فاصنع ما شئت، ما نقول فيه شيئاً. وإن كان غير ذلك، فوالله ما نعطيهم إلا السيف، متى كانوا يطمعون منا؟!.

فسكت النبي (ص) ولم يقل شيئاً. وعلى حد تعبير الواقدي. فأسكت رسول الله (ص).

فدعا سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فاستشارهما فيه (خفيةً)؛ فقالا مثل ما قال أسيد (وأبوا إعطاء الدنية، فأمره النبي (ص) بشق الكتاب)؛ فاعتذر (ص) بأنه قد رأى العرب رمتهم عن قوسٍ واحدة.

الى أن تقول الرواية: فتناول سعد، أي ابن معاذ الصحيفة، وأخذها من عثمان فمحا ما في الكتاب، ومزق الكتاب.

ثم تذكر الرواية محاورة بين عباد بن بشر وعيينة. ثم تذكر رجوع عيينة والحارث. وعلما: أن لا يد لهم في المدينة، لما رأوا من اخلاص الأنصار، واتفاقهم مع رسول الله. ودخل في أمرهما فتور وتزلزل[1].

---

(١) راجع في النصوص المتقدمة باختصار تارة وبإسهاب أخرى المصادر التالية: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٥/٤٨٦ والمغازي للواقدي ج ٢

وتشير بعض النصوص الى دورٍ لسعد بن الربيع أيضاً[(١)]

نقاط ضعف في هذا الاتفاق:

لقد حفلت هذه القصة بنقاط ضعف كثيرة لا نرى ضرورة للتعرض لها بالتفصيل، ونكتفي هنا بالإشارة الى الأمور التالية.

١ ـ التناقض والإختلاف:

إننا نلاحظ هنا: تناقض واختلاف نصوص هذه الرواية، الأمر الذي يعني أنه لا بد من استبعاد طائفة من هذه النصوص، حتى لا يبقى ثمة تناقض واختلاف فيما بينها. فليلاحظ مثلاً اختلافها. في أنه (ص) اعطاهما ثلث ثمار المدينة، أم الثلثين؟!

وهل كُتِبَ الكتاب، ثم رفض السعدان، أم رفضا ذلك قبل أن يكتب الكتاب. وهل استشار السعدين، أم استشار السعود.

ص ٤٧٧و٤٧٨ وفيه تفصيلات لا مجال لإيرادها. والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٦ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٨ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٧٢ و١٧٣ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٠ وراجع: شرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٦ وتاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ١١٨و١١٩ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٥و٢٣٦ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٠ و٥٣١ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٥ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٩ وراجع: حول هذا العقد المزعوم أيضاً: الرسول العربي وفن الحرب ص ٢٤٦ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٦٠ وج ١٧ وص ١٩٩ وخاتم النبيين ص ٩٣٦و٩٣٢و٩٣٣ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٤و١٦٥ وسيرة المصطفى ص ٥٠٧.

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٨ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٦.

٢ ـ الحارث بن عوف:

وقد تقدم أن البعض ينكر مشاركة الحارث بن عوف في حرب الخندق، وإن كان الواقدي يصر على هذه المشاركة، فراجع فصل: الأحزاب الى المدينة. فقرة: تحفظ تاريخي.

٣ ـ سعد بن الربيع:

قد ذكرت بعض النصوص: أنه قد كان لسعد بن الربيع دور في هذه القضية أيضاً. مع أن سعداً هذا قد استشهد في حرب أحد، وهي قبل الخندق بزمانٍ طويل، فراجع.

٤ ـ استشارة السعود، واعطاء الدنية:

بعض النصوص تقول: إن عيينة بن حصن جاء مهدداً متوعداً، فهي تقول: إنه قال: يا محمد، ناصفنا تمر المدينة، وإلا ملأتها عليك خيلاً ورجالاً.

فقال: حتى استأمر السعود: سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، وسعد بن الربيع، وسعد بن مسعود.

فكلمهم رسول الله (ص) في ذلك؛ فقالوا: لا والله، ما أعطينا الدنية في أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله تعالى بالاسلام.

فرجع الحارث فأخبره، فقال: غدرت يا محمد[1].

فما معنى هذا التهديد والوعيد من عيينة، ألم يملأها حتى الآن خيلاً ورجالاً؟ وهل بقي عنده خيل ورجال غير هؤلاء لم يأت بهم لحرب محمد؟!.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٢.

والملفت في هذا النص: أن جميع الذين يريد النبي (ص) أن يستشيرهم اسمه سعد؛ فما هذه المصادفة العجيبة!! ألم يكن في الأنصار أحد من الرؤساء له اسم آخر؟

وأمر ثالث يلفت النظر هنا وهو أنهم اعتبروا أن ذلك معناه، إعطاؤهم الدنية. فهل كان النبي بصدد أن يعطي الدنية للأعداء؟ ألم يكن يعلم أنهم لم يعطوها في الجاهلية. فكيف وقد جاء الله تعالى بالإسلام؟!.

٥ ـ المراوضة وكتابة كتاب الصلح.

والأمر الذي يصعب علينا تفسيره هو أنه كيف تمت كل هذه المراحل، من دون علم السعدين، أو السعود الأربعة، وغيرهم من زعماء الأنصار، فالنبي (ص) يرسل للأعداء ويستقدمهم، ويأتون اليه. وتجري مراوضة في شأن الصلح، ثم يرسل النبي (ص) وراء عثمان، ويأتي، ويكتب الكتاب ـ كل ذلك يحصل، ولا أحد من زعماء الأنصار يعرف بشيء. حتى يرسل اليهم النبي، ويحضرهم فهل لم يكونوا يحضرون مجلس النبي، إلا أن يحضرهم اليه النبي (ص) نفسه؟!.

وهل صحيح أنهم كانوا يغيبون عنه فترات طويلة هذا المقدار، ولا سيما في حرب الخندق، التي يفترض فيها تواجدهم حوله باستمرار ليتلقوا الأوامر؟!

وكيف غاب جميع من كان رسول الله بحاجة الى استشارتهم، ولم يحضر ولا أحد منهم ولو صدفة. إلا أن أسيد بن حضير حضر بصورة مفاجئة؟!.

٦ ـ العجز والفشل:

ولا ندري بعد هذا كيف يقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أمر لا يثق من قدرته على إنجازه؟ أم يعقل: أنه كان واثقاً من ذلك ثم فوجيء بما احبط سعيه، وخيب أمله؟!

٧ ـ رأي النبي ورأي غيره:

هل صحيح أن للنبي آراء يطلقها من عند نفسه، ولا تنتهي الى الارادة الإلهية؟! وكيف نفهم قوله تعالى: ﴿**وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى**﴾؟!

أم أن هذه الآية تتحدث عن خصوص ما ينطق به من آي القرآن، أو عن أمور يطلب منه تبليغها كالأحكام الشرعية، ونحوها؟! وكيف وبماذا نخصص الآية بما ذكر؟! واذا سلمنا ذلك جدلاً ـ فهل صحيح أن للنبي بعض الآراء التي يخطيء فيها، أم أنه ذو اجتهادٍ صواب دائماً؟!.

وبعدما تقدم لا بد أن نسأل عن الوسائل التي يمكننا أن نفرق فيها بين ما هو رأي واجتهاد له، وبين ما يأتي به من قبل الله سبحانه.

٨ ـ اتهام النبي (ص):

ولا ندري أيضاً: كيف نفسّر قولهم للنبي: «أم شيء تحبه فتصنعه لك» فهل يتصورون أن النبي يمكن أن يقوم بعمل خطير كهذا، لأنه يحب أن يصنع شيئاً لنفسه دونهم؟! وهل هذه إلا إساءة أدب، وسوء ظن خطير برسول الله (ص) يصل الى حد التهمة؟!.

٩ ـ فصلب رسول الله (ص):

ويستوقفنا هنا قولهم: فصلب رسول الله (ص)، فهل كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد ضعف أمام أعدائه، فبدأ يقدم لهم التنازلات ويعطيهم الإمتيازات.

إن نصاً آخر ذكرناه آنفاً يكاد يكون صريح الإيحاء بأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان بصدد التخلي عن جهاد العدو، حيث يقول:

«ثم قام رسول الله (ص) في المسلمين، يدعوهم الى جهاد العدو، ويشجعهم، ويعدهم النصر من الله تعالى» وترك ما كان هم به من ذلك.

١٠ ـ الاحتفاظ بسرية هذا العقد:

كيف استمر هذا الأمر خافياً على أبي سفيان، وكيف لم يسرّ به النبي والمسلمون الى مسامع زعيم قريش، ليكون مثار خلاف فيما بين زعماء الأحزاب أنفسهم، كما جرى لبني قريظة.

فإنه إذا كان الأمر بالنسبة لبني قريظة لم يبعد حدود الإعلام بهدف تدمير حالة الثقة القائمة بينهم وبين المشركين، فإن الأمر هنا أصبح أكثر واقعية، بعد أن قطع المتفاوضون مراحل واسعة باتجاه عقد الإتفاق، حتى لقد كتب الكتاب. وإن لم تقع الشهادة والصلح.

إلا أن يقال: إن تسريب أمر خطير كهذا سوف يكون مضراً بالمسلمين؛ لأنه يعطي للمشركين انطباعاً عن ضعف المسلمين، وانهيار معنوياتهم، الأمر الذي ربما يثير لدى قوى الشرك شهية مواصلة الحصار، ومضاعفة الضغوط للوصول بالمسلمين الى حالة الإنهيار الكامل.

كما أن هذا التسريب لم يكن في صالح زعماء غطفان، لأنه

سوف يعقِّد العلاقات مع حلفائهم، ويثير لهم معهم مشاكل هم في غنى عنها.

أما المنافقون، فلعلهم لم يجدوا في تسريب معلومات كهذه ما يخدم مصالحهم، أو يفيد في إخراجهم من الورطة التي يجدون أنفسهم فيها.

١١ ـ أدب عيينة، وغيرة ابن حضير:

ولا يفوتنا الإلماح الى أن عيينة بن حصن يمد رجليه بين يدي رسول الله (ص)، ولا يزجره النبي، ولا أحد من الصحابة الحاضرين. ولا حتى عمر بن الخطاب، ولا أبو بكر، الذين لم نسمع لهما ذكر في هذه القضية ولا في غيرها إلا في مواقع ما كنا نحب أن نراهم فيها.

والأهم من ذلك: أن علياً أيضاً لا يعترض. ويبقى الجميع ينتظرون قدوم أسيد بن حضير ليقف هو فقط ذلك الموقف الغيور والنبيل والشجاع. حتى إنه يتهدد عيينة بأن ينفذ جنبه بهذا الرمح لولا احترامه مجلس رسول الله (ص).

ولا بد من تسطير الفضائل لأسيد. هذا لأنه من المهاجمين لبيت فاطمة، ومن موطدي الأمر لأبي بكر، والقائمين به. لما بينهما من قرابة. ولأمور أخرى لا مجال للإفاضة فيها الآن.

١٢ ـ فأسكت رسول الله (ص):

والأكثر غرابة هنا: ما ذكره الواقدي في هذا السياق من جرأة على مقام النبوة الأقدس. حين ذكر أنه بعد أن قال أسيد بن حضير ما قال:

«فأسكت رسول الله».

يا لها من جرأة قاسية، وإهانة وقحة لنبي الإسلام، من قبل أناسٍ لا يرون الا مصالحهم، ولا يهمهم إلا تمشية سياساتهم، حتى ولو على حساب كل القيم والمثل الاسلامية والانسانية.

هذا كله عدا عن ظهور نبرات فيها ظلال ثقيلة من الاعتداد بالنفس والتحدي في كلمات اسيد في مواجهة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. فراجع كلماته وتأمل.

هذا ما أحببنا الالماح اليه في هذا المجال، ولننظر الآن ماذا يقول الآخرون الذين يهتمون بالتبرير، ويبرعون في التصوير، فنقول.

المساس بشرف الإسلام:

قد حاول البعض شرح ما جرى، بطريقته الخاصة، فهو يقول: «على الرغم من المجاعة التي قاساها المسلمون، والضيق الذي الم بهم من جراء الحصار المتطاول، والسهر، والحراسة الموصولين؛ فقد رأوا أن في القبول بمثل هذا الذل جرحاً لكرامتهم.

وقال الأنصار الذين عنتهم هذه المساومة المقترحة مباشرة: انهم لم يدفعوا أي جزية إليهم حتى في الجاهلية؛ فكيف يطيقون الإذعان لهم، خاصة وأن في الأمر مساساً بشرف الإسلام نفسه»[١] .

وليت شعري كيف يقدم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على أمر فيه مساس بشرف الإسلام؟! إلا أن يكون (ص) لم يدرك أن الأمر ينطوي على المخاطرة بهذا الشرف الراسخ، والعز الباذخ؟! أو

---

(١) حياة محمد ورسالته ص ١٦٨.

أن شرف الاسلام لم يكن يعنيه كثيراً، وكان يعنيهم هم وحدهم دونه؟!

استفادات وتوجيهات:

١ ـ لقد استفادوا من هذا الحدث فوائد وعوائد، فقد: قال أبو زهرة: «قد أفاد عرض الصلح أمرين عظيمين.

أولهما: أن النبي (ص) علم عزمة أصحابه، وأنهم يريدون لقاءهم.

ثانيهما: أن ذلك أطمع غطفان ومن معهما من القبائل، والطمع اذا سكن حلّ العزيمة. وقد ترتب عل ذلك الإطماع أنهم تململوا بطول الحصار. وجرى بينهم وبين القرشيين خلاف، وهموا أن يعودوا من حيث جاؤا»[١].

وقال: «إن ذلك يثير طمعهم، ويفت في عضدهم، وإن كان أمر الصلح لم يبت فيه، ولكن بابه مفتوح لم يغلق»[٢].

وقال: إنه (ص) أراد «أن يخذل المشركين بعضهم عن بعض بإثارة الطمع في بعضهم، فيتخلون عن باقيهم»[٣].

ولعل هذا هو ما يرمي إليه البعض، حين اعتبر أن هذا الصلح يهدف الى «صرفهم عن قريش، ليفت ذلك في عضدهم، فيرجعوا أيضاً».

---

(١) خاتم النبيين ص ٩٣٣.
(٢) خاتم النبيين ص ٩٣٦.
(٣) خاتم النبيين ص ٩٣٢.

«وقد تجلت حنكته السياسية في مساومته غطفان لزلزلتها عن موقفها الى جانب قريش»[١].

وقال: «لما فاوض الرسول غطفان، وأطمعهم في ثلث غلة المدينة، ثم عدل عن ذلك، ورفضه، توهمت غطفان: أن مركزه قد تحسَّن، وأنه مقبل على حرب الأحزاب وإجلائهم.

ومما زاد هذا الوهم تحقق غطفان من عدول بني قريظة عن مناصرة الأحزاب، وعزمها على تقديم سادات قريش وغطفان الى الرسول ليقتلهم»[٢].

وثمة هدف آخر له (ص)، وهوأنه كان يريد أن يطمئن الى ما يتمتع به أصحابه من قوة معنوية واعتماد على نصر الله وتوفيقه، لأنه لم يكن يحب أن يسوق أصحابه الى حرب أو مغامرة لا يجدون في أنفسهم شجاعة لخوضها، أو لا يؤمنون بجدواها، ولذلك عرض عليهم رأيه، وأبلغهم أنه ليس تبليغاً من الله تعالى[٣].

وبعد أن ذكر البعض: أن النبي (ص) كان «يعرف حق المعرفة: أن دوافع غطفان للغزو هي مادية قبل أي شيء آخر»[٤] قال:.

«وقد حققت هذه المناورة السياسية أغراضها على الرغم من أنها لم تنته الى اتفاق مكتوب كما علمنا؛ ذلك أن كل المصادر التاريخية تجمع: أنه لم يكن لغطفان أي دورٍ عسكري بعد هذه المقابلة التي

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ١١٩ و١٢٠.

(٢) تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ١٢٠ هامش.

(٣) فقه السيرة للبوطي ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٤) الرسول العربي وفن الحرب ص ٢٤٦.

أكدت لهم اصرار رجال الثورة الاسلامية على القتال في سبيل عقيدتهم. ولكنهم ظلوا مرابطين في معسكراتهم حتى أمرهم القائد أبو سفيان بالإنسحاب وفك الحصار»[١].

٢ ـ وأما بالنسبة للدلالات لهذا الحدث، فهم يقولون: .

أ: إنها محصورة في مجرد مشروعية مبدأ الشورى في كل ما لا نص فيه[٢].

ب: إنها تدل أيضاً على «جواز اعطاء المال للعدو لمصلحة المسلمين. وقد صالح معاوية ملك الروم على الكف عن ثغور الشام بمالٍ دفعه إليه، ذكره أبو عبيد» قال السهيلي: قيل: كان مئة ألف دينار[٣].

ج: وزعم البعض أن هذا الحدث يدل على أنه يجب على المسلمين أن يدفعوا الجزية الى غير المسلمين اذا اقتضت الحاجة. وعلى جواز صرف المسلمين اعداءهم عن ديارهم باقتطاع شيء من أرضهم أو خيراتهم لهم.

وقد ناقش ذلك البعض بما حاصله: .

أولاً: إن الرأي المعروض للإستشارة، لا يعتبر دليلاً تشريعياً. لأن المقصود بالإستشارة مجرد استطلاع ما في النفوس، فهي ممارسة لعملٍ تربوي بحت. والذي يحتج به من تصرفاته (ص) وأقواله هو

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٨.

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٣٠٠ ـ٣٠٢.

(٣) شرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٦ عن البغوي. وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦٥ والروض الأنف ج ٣ ص ٢٧٨.

خصوص ما لم يرد اعتراض عليه من كتاب الله تعالى. أما ما كان في حدود الاستشارة والرأي، فلا يعتبر دليلاً بحال.

ثانياً: «لسنا ندري ما الصلة بين الجزية، وما يمكن أن يتصالح عليه فريقان متحاربان.

إن قلت: إن اضطر المسلمون ـ بسبب ضعف طارىء ـ الى التخلي عن بعض أموالهم حفظاً لحياتهم، وحذراً من استئصال شأفة المسلمين، أليس لهم أن يفعلوا ذلك؟!.

فالجواب: إن قد تستلب أموال المسلمين، ويغنمها اعداؤهم. ولكن ليس ذلك عن اختيار من المسلمين، ولا لأجل تشريع ذلك فتوائياً. وإنما هو الجاء واكراه لهم. والأحكام الشرعية لا يخاطب بها المكره، ولا المُلجأ، ولا الصبي ولا المجنون.

فهذه الحالة التي هي من وراء حدود التكليف لا ينتزع فيها حكم تكليفي، يختار على اساس الرأي والمصلحة والمراوضة[١]».

هذا ما ذكره ذلك البعض هنا، ولنا فيه ومعه مناقشات ووقفات نجملها في النقاط التالية: .

مناقشة سريعة:

أ: قول أبي زهرة: إن إطماع غطفان نشأ عنه تململهم بطول الحصار، لا ندري كيف نفهمه، إذ ما هو الربط بين اطماعهم، وبين تململهم.

---

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٣٠٠ ـ ٣٠٢.

ب: كما أن ما ذكره من حدوث خلافات بين قريش، وبين غطفان لا ندري من أين جاء به، وعن أي مصدر نقل ذلك؟!.

ج: هل كان النبي (ص) جاهلاً بعزمة أصحابه، وبمقدار استعدادهم للقاء عدوهم؟ إن ما لدينا من وصف دقيق لحالتهم، ومن نصوص سجلت لنا مواقفهم وتصرفاتهم لا تترك مجالاً للشك في حقيقة النوايا، ودرجة الاستعداد عندهم للقاء عدوهم، سلباً أو إيجاباً. ولا في مستوى القوة المعنوية والاعتماد على نصر الله لدى أصحابه.

د: ما معنى قوله إن أمر الصلح لم يبت فيه، وبابه مفتوح لم يغلق. ألم يغلق السعدان باب هذا الصلح.. وبتًّا الأمر فيه؟!.

هـ: لا ندري كيف توهمت غطفان أن مركز النبي قد تحسّن حين عدل عن الصلح، وهم قد رأوا بأم أعينهم سبب العدول عن الصلح، وأنه ضغوط تعرضّ لها، ورفض من أصحاب الثمار أنفسهم، ولم يطرأ أي شيء على الحالة العسكرية، ولا على التحالفات القائمة بين الفرقاء من كلا الجانبين.. فكيف تتوهم غطفان أن مركز النبي (ص) قد تحسّن الى درجة أنه مقدم على حرب الأحزاب واجلائهم.

و: وأما أن هذه المناورة قد جعلت غطفان تحجم عن الاضطلاع بأي دور عسكري خوفاً من مقاومة المسلمين. ولكنهم ظلوا في معسكراتهم حتى أمرهم أبو سفيان بالانسحاب.

فهو كلام عجيب وغريب، فإن دور غطفان العسكري لا يقل عن دور غيرهم فالكل يحاصرون المسلمين، والكل يتناوبون على

الخندق. وسيأتي حديث أم سلمة عن هجوم خيل غطفان على بعض نواحي الخندق. وأن غطفان قد شاركت في الهجوم الشامل على المسلمين الذي فوت على المسلمين بعض صلواتهم كما سيأتي..

ز: الشورى فيما لا نص فيه:.

وأما بالنسبة للشورى فيما لا نص فيه، فلا يصح استفادتها من هذا المورد إذ أن المفروض: أنه (ص) قد قضى في المورد بالصلح؛ فما معنى اعتراض أسيد بن حضير عليه؟! ونقض ما كان قد أبرمه؟!.

ثم إن مبدأ الشورى إنما يعمل به قبل اتخاذ القرار، فما معنى أن يستشير النبي (ص) بعد اتخاذه القرار، واستقدام عيينة واصحابه؟!.

ح: ولا يصغى بعد هذا لما ذكره البوطي، من أن ما صدر من النبي لم يخرج عن حدود الاستشارة والرأي، فلا يعتبر دليلاً تشريعياً على جواز اعطاء الجزية للمشركين.

فإن ما صدر عن النبي (ص) كان أكثر من مجرد استشارة في هذا الأمر، بل قد تعداه الى استقدام عيينة، ثم استدعاء عثمان وكتابة الكتاب.

ط: وأما بالنسبة لغنيمة الأعداء لأموال المسلمين بسبب ضعف طارىء، فإن ذلك لا يغير الحال، بل يبقى عنوان غنيمة أموال المسلمين بالكره عنهم.

ولو اضطروا لإعطاء الجزية، فإن اكراههم على ذلك لا يرفع عنوان الجزية عن اعطائهم ذاك. بل هي جزية سواء كان من يعطيها مختاراً أو مضطراً لأجل الحفاظ على وجوده وحياته.

ي: ثم ان البوطي قد خلط بين المكره والمضطر، فإن

الاضطرار الى شيء لا يرفع الحكم التكليفي، والإكراه غير الاضطرار، فطلاق المكره وهو الذي تخضع ارادته لإرادة الغير، لا يصح. أما طلاق المضطر، وبيعه، فلا إشكال فيه، كمن اضطر لبيع بيته بثمن زهيد لأجل علاج ولده.

فالخلط بين المكره والمضطر في غير محله..

المشورة وقيمة رأي النبي (ص)

قال المعتزلي: «كيف يقول المرتضى: إنه صلى الله عليه وآله لم يكن محتاجاً الى رأي أحد، وقد نقل الناس كلهم رجوعه من رأي إلى رأي عند المشورة، نحو ما جرى يوم بدر من تغير المنزل لما أشار عليه الحباب بن المنذر. ونحو ما جرى يوم الخندق من فسخ رأيه في دفع ثلث تمر المدينة الى عيينة بن حصن ليرجع بالأحزاب عنهم؛ لأجل ما رآه سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة من الحرب، والعدول عن الصلح، ونحو ما جرى في تلقيح النخل بالمدينة، وغير ذلك»[١]؟!.

ونقل عن الاسكافي في ردّه على الجاحظ قوله: «ولقد كان أصحاب النبي (ص) يشيرون عليه بالرأي المخالف لما كان أمر به وتقدم فيه، فيتركه ويعمل بما أشاروا به، كما جرى يوم الخندق في مصانعته الأحزاب بثلث تمر المدينة؛ فإنهم أشاروا عليه بترك ذلك، فتركه.

وهذه كانت قاعدتهم معه، وعادته بينهم[٢]».

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي ج ١٧ ص ١٩٩.
(٢) المصدر السابق ج ١٣ ص ٢٦٠.

ونقول:

وقد ناقشنا في كل ما استشهد به المعتزلي والاسكافي حول تغير رأي النبي، وخطأه في آرائه في قصة تأبير النخل، ثم قصة مشورة الحباب في بدر فراجع. وقصة عيينة في الخندق قد ظهر عدم امكان قبولها بأي وجه، فلا معنى لإعتراض المعتزلي على السيد المرتضى فيما قاله.

الصحيح والمقبول في هذه القضية:

ولا نمنع أن يكون ثمة عمل ذكي من قبل النبي (ص) من خلال اطلاق اشاعة عن أمر كهذا من شأنها أن تحدث فجوة في جدار الثقة الذي يحمي جسم جيش الشرك وصفوفه من التصدع تماماً كما كان الحال بالنسبة لما فعله (ص) بين قريظة وقريش وجيش الشرك كما سيأتي. ولكن الرواة حرفوا هذه القضية، ونسجوا حولها من خيالهم الشيء الكثير، ثم استفاد المصطادون في الماء العكر من ذلك، فنفثوا سمومهم للنيل من الشخصية النبوية الشريفة. ثم لتبرير ما صدر من معاوية من عملٍ ذليلٍ مخزٍ، حين قبل أن يعطي ملك الروم مئة الف دينارٍ ذهباً، ليتفرغ لحرب سيد الوصيين علي أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، بهدف الإجهاز على آخر حصون الاسلام المنيعة، وإعادة حكم الجاهلية.

بل لقد وجدنا في كلمات الزبير بن باطا ما يشهد على أن غطفان هي التي أرسلت الى النبي (ص) تعرض عليه أن يعطيها بعض ثمار المدينة مقابل الانسحاب من المواجهة معه، فأبى (ص) أن يعطيها إلا

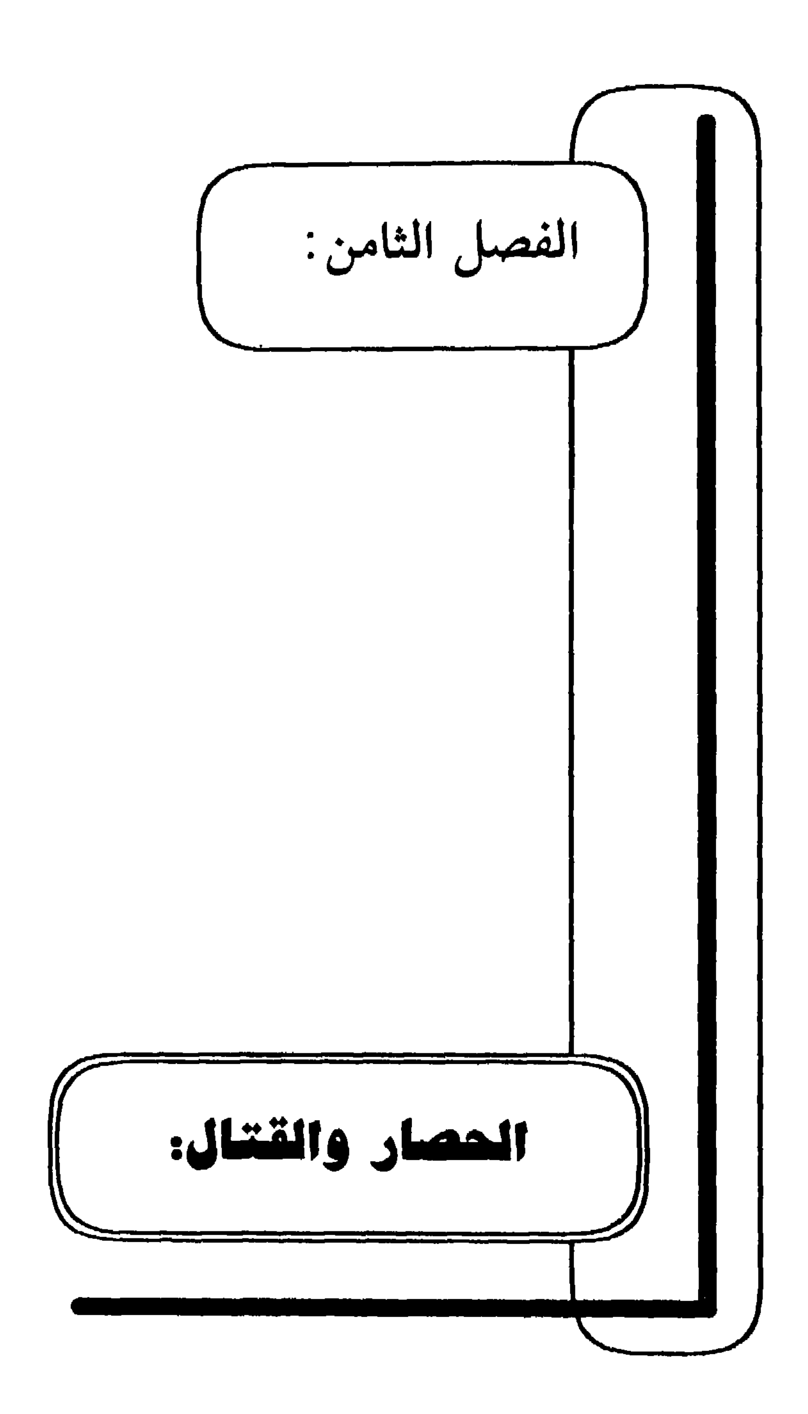
السيف، يقول الزبير بن باطا وهو يحاول اقناع أصحابه بعدم طلب الرهن من قريش:

«وهذه غطفان تطلب الى محمد أن يعطيها بعض ثمار المدينة، فأبى أن يعطيهم إلا السيف»[١]

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤٣ و٥٤٤.





الفصل الثامن:

الحصار والقتال:

بداية الحديث:

من الواضح: أن وجود الخندق قد أفشل خطة الأحزاب، وشل حركتهم، ولكنهم لم يفقدوا الأمل، فقد كان الأمل لا يزال يراودهم بإمكانية أن يجدوا فرصة، ويحدثوا ثغرة تمكنهم من توجيه ضربة قاسية للوجود الإسلامي، ولو بالتعاون مع يهود بني قريظة، الذين يتواجدون في مؤخرة الجيش الاسلامي، مع علم المشركين بالحالة الصعبة التي كان يعاني منها المسلمون خصوصاً من حيث التموين، ووسائل الدفاع والصمود، مع وجود المنافقين الذين يمكن التعاون مع بعضهم أيضاً لإحداث إرباكات خطيرة داخل الجيش الاسلامي.

وقد تحدثنا في الفصل السابق عن معنويات كلا الجيشين، بالإضافة الى موضوعات أخرى، ونتحدث الآن عن الحصار، وعن بعض الأحداث التي حصلت فيه، فنقول، وعلى الله نتوكل، ومنه نستمد العون والقوة:

مدة الحصار:

قد تقدم أن المشركين أحاطوا بالمسلمين حتى جعلوهم في مثل الحصن من كتائبهم، وأخذوا بكل ناحية[1] وقد استمر هذا الحصار مدة طويلة. اختلف فيها المؤرخون وهل كانت خمسة عشر يوماً[2] أو

---

(١) راجع: السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٩.

(٢) راجع: شذرات الذهب ج ١ ص ١١ والتنبيه والاشراف ص ٢١٦ وراجع=

عشرين يوماً[١].

أو أكثر من عشرين يوماً[٢].

أو شهراً[٣] أو قريباً من شهر[٤].

= سيرة مغلطاي ص ٥٦ ومرآة الجنان ج ١ ص ٩ و١٠ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٩ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦٢ وبه جزم الواقدي، وابن سعد، والبلاذري، والنووي في الروضة والقطب وانساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٥ وراجع: بهجة المحافل ج ١ ص ٢٧١ وراجع: المواهب اللدنية ج ١ ص ١١٥ وراجع: تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٥ والبحار ج ٢٠ ص ٢٢٨ عنه والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٤٠ و٤٩١ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩٢ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٢.

(١) وفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠١ عن ابن عقبة وراجع فتح الباري ج ٧ ص ٣٠١ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤ و٤٩٠ و٤٩٢ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٤. وراجع: امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٩ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص٥٦٢ والمغازي للواقدي ج ١ ص ٤١٩.

(٢) راجع هذا القول في شذرات الذهب ج ١ ص ١١ وتاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦٢ وفيه: بضع وعشرون. وكذا في اعلام الورى ص ٩١ وكذا في مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٨. ومرآة الجنان ج ١ ص ١٠. لكن ظاهر عدد منهم: أنهم يتكلمون عن مدة ما قبل قتل عمرو بن عبد ود. وكذا في مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٢ و٢٥٢ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٣٠٩.

(٣) التنبيه والاشراف ص ٢١٦ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ قسم ٢ ص ٣٠ لكنه قال: ولم تكن حرب وراجع: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٢ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٨.

(٤) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ قسم ٢ ص ٣٠ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤و٤٩٢. وراجع: امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٩ وسبل الهدى =

أو تسعة وعشرين ليلة[١].

وقيل: سبعة وعشرن[٢].

ولعل احدهما: (السبعة، والتسعة) تصحيف للآخر، فلا يخالفه.

وبعض آخر يقول: أربعة وعشرين يوماً[٣].

ونذكر أخيراً قول من قال: بضع عشرة ليلة أو يوماً[٤].

=والرشاد ج ٤ ص ٥٦٢ وحدائق الأنوار ج ١ ص ٥٢ وج ٢ ص ٥٨٧ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٠ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٨ ونهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٥ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٧١ وجوامع السيرة النبوية ص ١٤٩ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٥ وراجع سعد السعود ص ١٣٨.

(١) البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٧.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤ و٤٩٢.

(٣) سيرة مغلطاي ص ٥٦ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦٢ والوفا ص ٦٩٤ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤ و٤٩٢ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٢ وراجع: المواهب اللدنية ج ١ ص ١١٥ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٤.

(٤) راجع: الوفا ص ٦٩٤ وامتاع الاسماع ج١ ص٢٣٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٤ وكشف الغمة للاربلي ج ١ ص ٢٠٢ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٠ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٨ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٨ والارشاد للمفيد ص ٥١ وتاريخ مختصر الدول ص ٩٥ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦٢ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٧٥ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٩١ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩٠ وانساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٥ وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠١ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٨ إلا أن يقال: إن ذلك ناظر الى فترة ما

ونقول:

الصحيح هو أن الحصار قد دام شهراً كاملاً بل أكثر، فقد قال ضرار بن الخطاب يوم الخندق في جملة ابيات له:

فأحجرناهم شهراً كريتاً ... وكنا فوقهم كالقاهرينا
نراوحهم ونغدو كل يومٍ ... عليهم في السلاح مدججينا[1]

احجرناهم: حصرناهم. وشهراً كريتاً: تاماً كاملاً.

بل لقد ذكر عبد الله بن الزبعرى: أن مدة الحصار قد دامت اكثر من شهر، وبلغت أربعين يوماً. فهو يقول:

حتى اذا وردوا المدينة وارتدوا ... للموت كل مجرب قضاب
شهراً وعشراً قاهرين محمدا ... وصحابه في الحرب خير صحاب[2]

إذن، فلا يمكن قبول قولهم: إن الحصار دام مدة خمسة عشر يوماً، أو عشرين أو بضع عشر ليلة، أو ما الى ذلك.

الحراسة:

وقد كانت الحراسة المستمرة واليقظة الدائمة من الأمور الضرورية. وكان المسلمون يقومون بها باستمرار. وكانت حراستهم

قبل المفاوضة على ثلث ثمار المدينة، أو ما قبل قتل عمرو بن عبد ود، كما هو صريح عدد من المصادر الآنفة الذكر. وإن كان ظاهر الواقدي وغيره خلاف ذلك.

(١) راجع: السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٣٦٦.

(٢) السيرة البوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٦٩ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٦.

تتركز على الأمور الرئيسية بالدرجة الأولى، وهي.

١ ـ مركز القيادة (النبي ص).

٢ ـ العسكر.

٣ ـ الخندق.

٤ ـ المدينة.

٥ ـ الرصد لتحركات العدو.

٦ ـ النساء والذراري وتعاهدهم في الآطام.

٧ ـ أبواب الخندق.

وقد ذكرت هذه الأمور وغيرها من تفاصيل في النصوص التاريخية، والحديثية، التي نختار منها ما يلي: .

أ: قال النويري وغيره: «كان رسول الله (ص) يبعث سلمة بن اسلم في ماءتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاث مئة يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير. وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قريظة. وكان عباد بن بشر على حرس قبة رسول الله (ص) مع غيره من الأنصار، يحرسونه كل ليلة»[١].

وكانت المدينة تحرس حتى الصباح، يسمع فيها التكبير حتى

---

(١) نهاية الارب ج ١٧ ص ١٧١/ ١٧٢ وراجع المصادر التالية: عيون الأثر ج ٢ ص ٥٨ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٤و٥ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٨ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٨.

يصبحوا خوفاً[١].

ب : وفي بعض المصادر: «وجعل المسلمون يتحارسون في عسكرهم»[٢].

ج : وقال النويري: «ورسول الله (ص)، والمسلمون وجاه العدو، لا يزولون، يعتقبون خندقهم ويحرسونه. والمشركون يتناوبون الخ..»[٣].

ويفصل لنا الواقدي ذلك فيقول: إن المسلمين كانوا «على خندقهم يتناوبون، معهم بضعة وثلاثون فرساً. والفرسان يطوفون على الخندق ما بين طرفيه، يتعاهدون رجالاً وضعوهم في مواضع منه الى أن جاء عمر (ر ض)، فقال: يا رسول الله، بلغني أن بني قريظة قد نقضت الخ...»[٤].

وتقدم أنه (ص) كان قد جعل للخندق أبواباً، وجعل على الأبواب حرساً.

وقال الواقدي: «كانوا يطيفون بالليل حتى الصباح، يتناوبون. وكذلك يفعل المشركون أيضاً، يطيفون بالخندق حتى يصبحوا»[٥].

«ورسول الله (ص) والمسلمون قبالة عدوهم، لا يستطيعون

---

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣١ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٧.
(٢) انساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٣.
(٣) نهاية الارب ج ١٧ ص ١٧١ و١٧٢ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٨.
(٤) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٧.
(٥) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٤.

الزوال عن مكانهم، يعتقبون خندقهم يحرسونه»[١].

وأسيد بن حضير كان يحرس في جماعة على الخندق أيضاً[٢].

د: وتقول عائشة: «كان في الخندق موضع لم يحسنوا ضبطه، إذ أعجلهم الحال. وكان يخاف عليه عبور الأعداء منه. وكان النبي (ص) يختلف ويحرسه بنفسه. ثم تذكر قصة حراسة سعد بن أبي وقاص لذلك الموضع في تلك الليلة[٣].

وكان النبي (ص) بنفسه في الليالي يحرس بعض مواضع الخندق[٤]. وسيأتي حديث أم سلمة في ذلك في موضع آخران شاء الله تعالى.

هـ: وكان عباد بن بشر ـ كما يدّعون ـ ألزم الناس لقبة رسول الله (ص) يحرسها[٥].

وذكروا الزبير بن العوام في جملة من حرس النبي (ص) يوم الخندق[٦].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٨.
(٢) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٠ وستأتي بقية المصادر حين الحديث عن القتال، وتناوب المشركين على الخندق.
(٣) راجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٣ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٩ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤/٤٨٥ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٩ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٤.
(٤) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤، وتقدم حديث عائشة في ذلك.
(٥) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٤ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٠ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٤.
(٦) عيون الأثر ج ٢ ص ٥٨ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٦٣ وقد أطلق كلامه في أن الزبير كان حارس النبي (ص) في الخندق وكذا في السيرة

بل جاء أن عباد بن بشر، والزبير بن العوام كانا على حرس رسول الله (ص)[١].

وقد ظهر من بعض النصوص المتقدمة: أن المسلمين كانوا يتناوبون الحراسة[٢]، أو حراسة نبيهم[٣].

و : كان بنو واقف قد جعلوا ذراريهم ونساءهم في أطمهم. وكانوا يتعاهدون أهليهم بأنصاف النهار، فينهاهم النبي (ص)؛ فإذا ألحّوا أمرهم (ص) أن يأخذوا السلاح، خوفاً عليهم من بني قريظة، فإنهم على طريقهم[٤].

«وكان كل من يذهب منهم إنما يسلكون على سلع، حتى يدخلوا المدينة، ثم يذهبون الى العالية[٥].

وقال (ص) للنساء حين جعلهن في أطم بني حارثة: «إن لم يكن أحد فالمعن بالسيف»[٦].

ز : حراسة العسكر ورصد العدو: .

الحلبية ج ٣ ص ٣٢٧ والمواهب اللدنية ج ١ ص ٢١٧ والغدير ج ٧ ص ٢٠٢ عنهما وعن عيون الأثر ج ٢ ص ٣١٦ وشرح المواهب للزرقاني ج ٣ ص ٢٠٤.

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٩.

(٢) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٠ وتقدمت نصوص أخرى أيضاً.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٩ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٥.

(٤) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥١ و٤٧٤ وراجع: امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٤.

(٥) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٤.

(٦) وفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠١ عن الطبراني، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٩.

أما بالنسبة لحراسة العسكر ورصد تحركات العدو، فإن القمي يقول:

«كان رسول الله صلى الله عليه وآله أمر أصحابه أن يحرسوا المدينة بالليل. وكان أمير المؤمنين عليه السلام على العسكر كله بالليل يحرسهم، فإن تحرك أحد من قريش نابذهم.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يجوز الخندق، ويصير الى قرب قريش، حيث يراهم؛ فلا يزال الليل كله، قائماً وحده يصلي، فإذا أصبح رجع الى مركزه.

ومسجد أمير المؤمنين هناك معروف، يأتيه من يعرفه، فيصلى فيه، وهو من مسجد الفتح الى العقيق أكثر من غلوة نشابة»[1].

وقفات مع ماتقدم:

ونقول:

إن الحذر من العدو، وسد المنافذ في وجهه، وحرمانه من فرصة تسديد ضربة هنا وضربة هناك، بهدف ارباك صفوف الجيش الإسلامي، أو إحداث ثغرات خطيرة فيه. وهو الذي كان بأمس الحاجة الى التماسك والتقوي ببعضه البعض - إن ذلك - هو أولى مهمات القيادة الحكيمة والواعية، التي تريد أن تصل الى أهدافها بأقل قدر ممكن من الخسائر، وأعلى درجة من الانضباطية والإنسجام.

ومن الواضح: أن الأساليب الأمنية التي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينتهجها كانت ولا تزال كسائر أفعاله، وأقواله، ومواقفه

---

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٦ والبحار ج ٢٠ ص ٢٣٠ عنه.

مصدر إلهام، لكل المؤمنين والواعين، الذين رأوا في هذا النبي الكريم اسوة وقدوة لهم. في كل الحالات والظروف.

وقد تمثل النشاط الأمني للمسلمين في غزوة الخندق ـ بعد إيجاد الموانع الطبيعية، التي يصعب على العدو اختراقها مثل حفر الخندق. وتشبيك سائر المنافذ بالبنيان ـ في الأمور التالية: .

١ ـ جعل الحرس على أبواب الخندق، بطريقة يصعب على العدو ايجاد مواضع نفوذٍ فيها، حين جعل الحرس من فئات شتى، ومتنافسة، يرقب بعضهم بعضاً، حيث اختار من كل قبيلة رجلاً لهذه المهمة، كما تقدم بيانه.

٢ ـ إن من الواضح: أن جعل الحرس في نقاط ثابتة ربما يهيء للعدو فرصة للتخطيط للنفوذ الى الداخل، بطريقة يتحاشى معها الصدام بنقاط الحراسة، أو حتى امكانية التفاتها الى حقيقة ما يجري. فكانت الطريقة الأفضل والأمثل هي أن تنضم اليها دوريات للحراسة، غير خاضعة لقيد الزمان ولا المكان. الأمر الذي يضيع على العدو الإحساس بالأمن والنجاح والفلاح في أية محاولة يبادر اليها، ويقدم عليها. فكان (ص) يبعث بالحرس على المدينة خوفاً من بني قريظة، وكان يتجولون فيها، ويظهرون فيها التكبير.

٣ ـ بديهي أن التعرض للنساء يمثل ضربة روحية قاسية للمسلمين والمقاتلين، الذي قد يصل الى درجة الإحباط لدى البعض، ويدفع البعض الآخر الى التحرك بصورة غير واعية، ولا مسؤولة، الأمر الذي يؤثر على درجة الانضباط والتماسك.

والنبي (ص) يعرف: أن العدو لن يتأخر عن تسديد ضربة في هذا الاتجاه لو سنحت له الفرصة، ويعتبر ذلك من الأهداف

الإستراتيجية والهامة له. فكان تجميع النساء والأطفال في الآطام من شأنه ان يسهل امر حمايتهم من أي اعتداء، مع كونه يهيء للمسلمين جواً من الطمأنينة وتمركزاً في مواضع الاهتمام والتحرك لودهم أمر..

كما أنه لا بد من الإحتياط للأمر، وعدم الإكتفاء بالحراسة الثابتة والمتنقلة. فوضع فيما بينه وبين النساء رمزاً يمكن الاستفادة منه لإفشال أية محاولة تستهدفهن وحين يريـن أن الحالة الأمنية غير مؤاتية، مع عدم وجود أحد يمكن الاعتماد عليه في المواجهة ودفع غائلة العدو.

قال (ص) لهن: «إن لم يكن أحد فالمعن بالسيف».

ويلاحظ هنا: أنه (ص) قد اعتمد هذا الأسلوب، ولم يطلب منهن الصراخ والاستغاثة ونحوها مما يمثل إثارة عاطفية للمقاتلين والمسلمين، وقد ينشأ عنها حالة من التضعضع والإرباك وانشغال الخواطر الى درجة الإخلال بالنشاط الحربي المطلوب، في مواجهة أحزاب الشرك في الجهة الأخرى.

٤ ـ وغني عن القول أخيراً: أن بني واقف كانوا يخطئون في ترددهم الى أهليهم بأنصاف النهار بلا سلاح، فقد يطمع ذلك العدو فيهم، وقد يفاجؤهم العدو وهم على غير استعدا فتقع الكارثة.

أضف الى ذلك أنه لا بد من الإبتعاد عن النساء والأطفال في أيام الحرب، لأن ذلك يثبط من عزائم المقاتلين ويشدهم الى الأرض، ويمنعهم من السمو في تفكيرهم وفي طموحاتهم وتصبح التضحيات واقتحام الأهوال، والصبر على المكاره اكثر صعوبة عليهم، وأشد وقعاً على نفوسهم، ويهيؤهم نفسياً للإبتعاد عن مواطن الخطر، أو التعب والضرر، ولو كان ذلك بتوطين أنفسهم على مواجهة عار

الهزيمة، وخزي عصيان أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٥ ـ ونلمح في النص المتقدم اصراراً من بني واقف على زيارة نسائهم وعوائلهم في الاطم الذي كانوا فيه رغم نهي النبي (ص) لهم. وربما يكون أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم بحمل السلاح يرمي الى الإيحاء غير المباشر لهم بأجواء الحرب، والاحتفاظ بدرجة من الاستعداد الروحي والنفسي لها، بالإضافة الى أن ذلك هو مقتضى العمل بالحيطة والحذر، وهما الأمران المطلوبان في ظروف كهذه بصورة اكيدة وقاطعة. ولا أقل من ان ذلك يفيد في نطاق التعليم والتأسي لكل من يأتي بعده صلى الله عليه وآله وسلم.

٦ ـ والأهم من ذلك هو حراسة العسكر، الذي كان يتولاه علي عليه السلام، هذا العسكر الذي كان بأمس الحاجة الى بعض الشعور بالأمن والراحة في هذه الأجواء المثقلة بالهموم والشدائد، المشحونة بالخوف الذي يصل لدى الكثيرين الى حد الرعب. حتى لقد بلغت القلوب الحناجر، وظنوا بالله الظنون الباطلة والسيئة.

وقد كانت ادنى حركة في أي موقع في أطراف ذلك العسكر كفيلة باحداث ارباك خطير في ذلك العسكر كله.

فكانت هذه الحراسة ضرورية لهذا الجيش، الذي يطمئن الى أنه لن يؤخذ والحالة هذه على حين غرة، بل هناك من يبصر له وينذره في الوقت المناسب.

٧ ـ وكان لا بد من رصد جيش الأعداء أيضاً، لأن حراسة المعسكر، وإن كانت تعطي قدرة الى حد ما على التصدي، إلا أن معرفة تحركات العدو، وحجمها، واتجاهها في وقت مبكر يعطي هو الآخر، فرصة أكبر للمواجهة بالأساليب وبالمستوى الملائم، ويمنع

من العجلة والتشويش في اتخاذ الاجراءات المؤثرة في دفع غائلة هذا العدو.

وكان علي عليه السلام، يقوم بدور الراصد لكل تحركات الأعداء، وكان هو العين الساهرة في المواقع المتقدمة في خط المواجهة. التي لم يكن ليجرؤ علها أحد سواه، كما ظهر من تجربة المسلمين مع عمرو بن عبد ود.

٨ ـ وبعد، فرغم ان الله قد وفق لبقاء المسجد الذي يشهد لجهاد وتضحيات علي عليه السلام، وكان هذا المسجد معروفاً، ويقصده المؤمنون للصلاة فيه، فإننا لا نكاد نجد لعلي عليه السلام ذكراً في هذا المجال.

ولا ندري إن كان هذا المسجد قد استطاع ان يصمد طويلاً أمام حقد الحاقدين على كل ما يمت لعلي وأهل بيته بصلة، حتى انتهى ميراث هذا التجني الوقح والغبي الى من يطلق عليهم اسم: الوهابيين الذين لا تزال تظهر في كلماتهم وفي أفعالهم بوادر كثيرة تدل على حقد وكراهية وامتهان، ليس فقط لقدسية على وأهل البيت عليه وعليهم السلام، بل وحتى لمقام النبوة الأقدس بالذات.

وقد أسلفنا بعضاً مما يشير الى ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب. ولا بأس بمراجعة الجزء الثالث من كتابنا دراسات وبحوث في التاريخ والاسلام، بحث: ادارة الحرمين الشريفين في القرآن الكريم.

فضائل موهومة لسعد ولعائشة:

رووا عن عائشة ما ملخصه: إنه كان في الخندق موضع لم

يحسنوا ضبطه، إذ أعجلهم الحال، وكان (ص) يختلف اليه ويحرسه بنفسه، خوفاً من عبور المشركين منه.

ورجع مرة من الخندق. وكانت تدفئه عائشة في حضنهاـ فإذا دفيء خرج الى تلك الثلمة.

قالت: فبينا رسول الله في حضني قد دفيء، وهو يقول: ليت رجلاً صالحاً يحرس الليلة هذا الموضع (أو قال: يحرسني. أو: يحرس هذه الثلمة الليلة)؛ إذ سمع قعقعة السلاح، فقال: من هذا؟!

قال: سعد بن أبي وقاص.

فأمره أن يحرس هذا الموضع: فذهب سعد يحرسه، فنام النبي (ص) حتى نفخ. وكان اذا نام نفخ(١).

ونقول:

إننا نشك في صحة هذه القصة، ونعتقد أن المقصود بها هو تسجيل فضيلة لسعد، ولعائشة على حد سواء. وسبب شكنا هو ما يلي: .

أولاً: اذا كان في الخندق موضع لم يحسنوا ضبطه، فلماذا لا يبادرون الى ضبطه، وما المبرر لأن يترك ليكون مصدر خوف للمسلمين من عبور المشركين منه.

---

(١) راجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٣ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٩ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤/ ٤٨٥. وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٩ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٤ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٩/ ٢٣٠.

مع أن سلمان حين رأى مكاناً يمكن أن تطفره الخيل، قال لأسيد بن حضير، بعد أن ردوا عمرو بن العاص الذي كان في حوالي مئة رجل يريدون العبور من ذلك الموضع، قال سلمان لاسيد:

«إن هذا مكان من الخندق متقارب، ونحن نخاف تطفره خيلهم، وكان الناس عجلوا في حفره. وبادروا فباتوا يوسعونه، حتى صار كهيئة الخندق. وأمنوا أن تطفره خيلهم»[١].

فلماذا يبادر سلمان للأمر باصلاح ذلك الموضع، فيتم ما أراده في ليلة، ولا يبادر النبي (ص) الى مثل ذلك؟!.

وثانياً: لماذا يتمنى (ص): «أن يأتي رجل صالح ليحرس ذلك الموضع في تلك الليلة» ألم يكن بإمكانه أن يأمر جماعته بحراسة ذلك الموضع؟! والناس كلهم تحت امره، ورهن إشارته؟!.

وثالثاً: حين كان يرجع الى عائشة لتدفئه في حضنها!! من الذي كان يحرس تلك الثلمة؟! فلو أن العدو استطاع أن يتسلل منها في ذلك الوقت ألم يكن النبي (ص) هو الذي فرط في هذا الأمر، وتسبب به؟!.

ولا نريد أن نسجل تحفظنا على دعوى: أن عائشة كانت تدفىء النبي (ص) في حضنها!!.

ولا على حديث: أنه (ص) نام حتى نفخ. وكان اذا نام نفخ!!

---

(١) راجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٥ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٠.

نساء النبي في غزوة الخندق:

يقول البعض: «كان النبي يعقب بين نسائه، فتكون عائشة أياماً. ثم تكون أم سلمة. ثم تكون زينب بنت جحش.

فكان هؤلاء الثلاث اللاتي يعقب بينهن في الخندق. وسائر نسائه في أطم بني حارثة، ويقال: كن في «المسير» (النسر) أطم في بني زريق، وكان حصناً. ويقال: كان بعضهن في فارع، وكل هذا قد سمعنا»[١].

ونقول:.

إننا نشك في صحة ذلك.

أولاً: لقد صرحت أم سلمة بقولها: «كنت مع رسول الله (ص) في الخندق فلم أفارق مقامه كله. وكان يحرس الخ...»[٢].

وثانياً: لا يمكننا أن نقبل بأن يصدر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ترجيح وميل لبعض زوجاته على حساب البعض الآخر، إذ لماذا يعقب بين خصوص هؤلاء: دون سائر زوجاته.

ولم نسمع أن احداهن تنازلت عن حقها لرفيقاتها في غزوة الخندق، وإن كان ذلك محتملاً في حد ذاته.

والذي نظنه: أنه لو صح حديث ذلك البعض، فالسبب في ذلك هو أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن عنده سوى هؤلاء الثلاث،

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٥٤ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٨ وامتاع الاسماع ج ١ ص٢٢٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٤.

(٢) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٤.

بالإضافة الى سودة بنت زمعة، التي كانت مسنة، وكانت قد وهبت ليلتها الى عائشة. فلا بد من مراجعة تاريخ زواجه (ص) بزوجاته.

ونظن أن النتيجة ستكون هي ما ذكرناه. فمن أراد التوسع فعليه أن يقوم بذلك.

المواجهة بين الفريقين:

«وأمر رسول الله صلوات الله عليه وآله المسلمين بالثبات في مكانهم، ولزوم خندقهم... ونظر المشركون الى الخندق فتهيبوا القدوم عليه؛ فجعلوا يدورون حوله بعساكرهم، وخيلهم، ورجلهم. ويدعون المسلمين: .

ألا هلم للقتال والمبارزة.

فلا يجيبهم أحد الى ذلك. ولا يرد عليهم فيه شيأ، ولزموا مواضعهم كما أمرهم رسول الله صلوات الله عليه وآله؛ قد عسكروا في الخندق، وأظهروا العدة، ولبسوا السلاح. ووقفوا في مواقفهم.

وتهيب المشركون أن يلجوا الخندق عليهم.

فلما طال ذلك، ونفذت أكثر أزوادهم، اجتمعوا الخ[1].

ثم يذكر ما جرى لعمرو بن عبد ودّ.

القتال بين المسلمين والمشركين:

تقول النصوص التاريخية.

---

(١) شرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٢ ملخصاً.

«وصار المشركون يتناوبون؛ فيغدو أبو سفيان في أصحابه يوماً، ويغدو خالد بن الوليد يوماً، ويغدو عمرو بن العاص يوماً، ويغدوا هبيرة بن أبي وهب يوماً، ويغدوا عكرمة بن ابي جهل يوماً، ويغدوا ضرار بن الخطاب يوماً؛ فلا يزالون يجيلون خيلهم، ويفترقون مرة، ويجتمعون أخرى، ويناوشون أصحاب رسول الله (ص)، أي يقربون منهم، ويقدمون رجالهم فيرمون.

ومكثوا على ذلك المدة المتقدمة.

ولم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصا[١]». وذكر البعض: أن ذلك كان في أكثر الأيام[٢].

«وكان المشركون يتناوبون الحرب، لكن الله تعالى لم يمكنهم من عبور الخندق؛ فإن شجعان الصحابة كانوا يمنعونهم بالنبال والأحجار»[٣] واستمر الأمر على ذلك «حتى عظم البلاء، وخاف الناس

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥. وراجع: نهاية الارب ج ١٧ ص ١٧١ / ١٧٢ وراجع المصادر التالية: امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٠ و٢٣١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨ و٥ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٠ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٨ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٨.

والفقرة الأخيرة موجودة أيضاً في المصادر التالية: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤ وحدائق الأنوار ج ٢ ص ٥٩٠ والإرشاد للشيخ المفيد ص ٥١ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٨ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٢ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٠ والسيرة النبوية لإبن كثير ج ٣ ص ٢٠٠ و٢٠١ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠١ و٣٠٧ عن ابن اسحاق.

(٢) حبيب السير ج ١ ص ٣٦٣.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤.

خوفاً شديداً»[١].

لكن البعض يذكر: أن الحرب كانت «ثلاثة أيام بالرمي بغير مجالدة ولا مبارزة»[٢] سوى ما كان من قتل الفرسان الذين عبرو الخندق.

وكان أبو سفيان في خيل يطيفون بمضيق من الخندق، فراماهم المسلمون حتى رجعوا[٣].

وفي مرة أخرى: كان عمرو بن العاص في نحو الماءة يريدون العبور من الخندق من مكان تطفره الخيل، فراماهم أسيد بن حضير، ومن معه من الحرس بالنبل والحجارة حتى ولُّوا.

وكان مع المسلمين في تلك الليلة سلمان، فقال لأسيد: إن هذا مكان من الخندق متقارب، ونحن نخاف تطفره خيلهم. وكان الناس عجلوا في حفره.

وبادروا فباتوا يوسعونه، حتى صار كهيئة الخندق، وأمنوا أن تطفره خيلهم[٤].

«وكان عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد كثيراً ما يطلبان غرة

---

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣١ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٨.
(٢) راجع: مرآة الجنان ج ١ ص ١٠ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٢ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٦ وتاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦٢ وراجع: تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠.
(٣) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٠.
(٤) راجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٥ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٠.

ومضيقاً، من الخندق يقتحمانه، فكان للمسلمين معهما وقائع في تلك الليالي»[١].

وقال ضرار بن الخطاب:

نـراوحهـم ونغـدو كـل يـومٍ   عليهم في السلاح مدججينا[٢]

«ثم إن خالد بن الوليد كرّ بطائفة من المشركين، يطلب غرة للمسلمين، أي غفلتهم؛ فصادف أسيد بن حضير على الخندق في ماءتين من المسلمين، فناوشوهم. أي تقاربوا منهم ساعة، وكان في أولئك المشركين وحشي، قاتل حمزة رضي الله عنه؛ فزرق الطفيل بن النعمان، فقتله.

ثـم بعـد ذلـك صـاروا يـرسلـون الطـلائـع بـالليـل، يطمعـون فـي الغـارة، أي فـي الإغـارة فـأقـام المسلمـون فـي شـدة مـن الخوف»[٣].

لكن صاحب تجارب الأمم يقول. تفرق ذلك الجمع من غير قتال إلا ما كان من عدة يسيرة اتفقوا على الهجوم على الخندق، يحكى: ان فيهم عمرو بن عبد ودّ فقتلوا[٤].

إلا أن يكون المراد: أنه لم يكن قتال بالسيوف والرماح، أما الرمي بالنبل والحصا فليس محط نظره.

---

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٠ وراجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٥ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٦٦.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٣.

(٤) تجارب الأمم ج ٢ ص ١٥٣.

ملاحظة:

وقبل أن نمضي في الحديث نلفت نظر القارىء الى هذا الإهتمام الظاهر بإبراز دور اسيد بن حضير، الذي قلنا: إن السياسة كانت تهتم بشأنه، وتعمل على تكريس وتكديس الفضائل له، مكافأةً له على هجومه على بيت فاطمة، وقيامه بدور فاعل في تشييد خلافة قريبه أبي بكر.

كلام العلامة الحسني:

وذكر العلامة الحسني: أن المشركين الفوا ثلاثة كتائب لمحاربة المسلمين، فأتت كتيبة أبي الأعور السلمي من فوق الوادي، وكتيبة عيينة بن حصن من الجنب، ووقف أبو سفيان ومن معه في الناحية الثانية من الخندق[1].

لكننا قدمنا في فصل: الأحزاب الى المدينة: أن أبا الأعور لم يكن له أي دور في الخندق. وأن أباه هو الذي شارك فيها.

روايات مشبوهة

عن محمد بن مسلمة قال: كنا حول قبة رسول الله (ص) نحرسه، ورسول الله (ص) نائم نسمع غطيطه اذ وافت أفراس على سلع، فبصربهم عباد بن بشر، فأخبرنا بهم. قال: فأمضي الى الخيل. وقام عباد على باب قبة النبي (ص) آخذاً بقائم السيف ينظرني. فرجعت فقلت: خيل المسلمين أشرفت عليها سلمة بن اسلم بن

(١) سيرة المصطفى ص ٤٩٩.

حريش، فرجعت الى موضعنا.

ثم يقول محمد بن مسلمة: كان ليلنا بالخندق نهاراً حتى فرجه الله[1].

وعن محمد بن مسلمة: أن خالد بن الوليد تلك الليلة أقبل في مئة فارس، من جهة العقيق حتى وقفوا بالمذاد وجاه قبة النبي (ص) فنذرت بالقوم؛ فقلت لعباد بن بشر ـ وكان على حرس قبة النبي (ص) وكان قائماً يصلي ـ أتيت، فركع، ثم سجد. وأقبل خالد في ثلاثة نفر هو رابعهم، فأسمعهم يقولون: هذه قبة محمد، إرموا. فرموا، فناهضناهم حتى وقفنا على شفير الخندق، وهم بشفير الخندق من الجانب الآخر.

فترامينا، وثاب الينا أصحابنا، وثاب اليهم أصحابهم، وكثرت الجراحة بيننا وبينهم.

ثم اتبعوا الخندق على حافتيه وتبعناهم، والمسلمون على محارسهم. فكلما نمر بمحرس نهض معنا طائفة، وثبت طائفة، حتى انتهينا الى راتج؛ فوقفوا وقفة طويلة، وهم ينتظرون قريظة، يريدون أن يغيروا على بيضة المدينة، فما شعرنا إلا بخيل سلمة بن اسلم يحرس. قد أتت من خلف راتج. فلاقوا خالداً فاقتتلوا واختلطوا؛ فماكان إلا حلب شاة حتى نظرت الى خيل خالد مولية. وتبعه سلمة بن اسلم حتى ردّه من حيث جاء.

فأصبح خالد وقريش وغطفان تزري عليه وتقول: ما صنعت شيئاً في من في الخندق، ولا في من أصحر لك.

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٨.

فقال خالد: أنا أقعد الليلة، وابعثوا خيلاً حتى انظر أي شيء تصنع»[١].

ونقول:

إن هذه الرواية موضع ريب وشك، لأن إصحار سلمة بن اسلم ومن معه لخالد ومن معه واختلاطهم بهم يصعب تصديقه، لأن عبور سلمة وأصحابه الى الجانب الآخر من الخندق أو مجيئهم من خلف راتج، من طرف الخندق، الى جهة المشركين ينطوي على مخاطرة كبرى لما فيه من تعريض أنفسهم للإبادة الحتمية على يد ألوف المقاتلين من المشركين الذين كانت تعج بهم المنطقة.

ويلفت نظرنا هنا: أن الرواية لم تشر الى مبادرة خالد لمطاولة هذه الجماعة القليلة، ثم طلب المدد من الجيش الذي هوأحد قواده. وقد كان عليه أن ينتهزها فرصة ذهبية نادرة ليلحق بالمسلمين نكبة هائلة ومروعة.

ثم إن تلك الرواية قد تحدثت عن أن خالداً كان في مئة فارس، ولكنه حين أراد أن يرمي قبة النبي (ص) كان في ثلاثة نفر هو رابعهم.

وحين ترامى خالد وأصحابه، ومحمد بن مسلمة وأصحابه اين كان عنه أصحابه، حتى يقول الراوي ـ وهو محمد بن مسلمة ـ وثاب الينا أصحابنا، وثاب اليهم أصحابهم.

وما معنى قوله: ثم اتبعوا الخندق على حافتيه وتبعناهم. فهل كان خالد وأصحابه على حافتي الخندق، الأمر الذي يعني أن خالداً ومن معه قد عبروا الخندق الى جهة المسلمين، أو العكس.

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٦.

ثم إننا لا ندري مدى صحة هذه الرواية التي لم يروها لنا إلا محمد بن مسلمة، الرجل الذي كانت تهتم السلطة في اعطائه الأدوار الحساسة، لأنه كان من أعوانها. ولكن الغريب في الأمر: أننا نجد المؤرخين لم يعيروا هذه الرواية أي اهتمام رغم أهمية وحساسية المعلومات التي تدعيها فيما يرتبط بحرب الخندق.

دعوى قتل طليعة للنبي:

وعن مالك بن وهب الخزاعي: أن رسولالله (ص) بعث سليطاً وسفيان بن عوف الأسلمي طليعة يوم الأحزاب، فخرجا حتى اذا كانا بالبيداء التفت عليهما خيل لأبي سفيان؛ فقاتلا حتى قتلا؛ فأتي بهما رسول الله (ص)، فدفنا في قبر واحد.

فهما الشهيدان القرينان(١).

ونحن نشك في صحة ذلك. لما يلي:

أولاً: بالنسبة لسنده، قال البزار: «لا نعلم روى مالك إلا هذا»(٢).

وقال: الهيثمي: «فيه جماعة لم أعرفهم». وقريب من ذلك عند

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥١٤ وكشف الاستار عن مسند البزار ج ٢ ص ٣٣٢ / ٣٣٣ ومجمع الزوائد ج ٦ ص ١٣٥ واسد الغابة ج ٤ ص ٢٩٧ عن أبي نعيم وأبي موسى والاصابة ج ٣ ص ٣٥٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥ وراجع: الرسول العربي وفن الحرب ص ٢٤٥.

(٢) كشف الاستار عن مسند البزار ج ٢ ص ٣٣٣.

العسقلاني[١].

وثانياً: إن من الواضح: أن سفيان بن عوف الأسلمي وهو الغامدي، هو الذي كان يغير على أطراف علي، ويرتكب الجرائم، ويهتك الحرمات، وقد ذكره أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «وان اخا غامد إلخ. .» وكان من قواد معاوية الاساسيين، وكان يعظمه. وقد مات سنة اثنتين أو ثلاث، أو أربع وخمسين[٢].

ولنا أن نحتمل أن تكون دعوى صحابية سفيان هذا قد جاءت لأجل اعطائه بعض المصونية والشأن الرفيع، حفاظاً على سيده معاوية من جهة، وإضعافاً لموقف علي من جهة ثانية، وتبريراً لمواقفه المخزية، وجرائمه الخطيرة التي ارتكبها بحق المسلمين الذين اغار عليهم وقتلهم، وهتك حرماتهم من جهة ثالثة.

حديث أم سلمة

عن أم سلمة قالت: كنت مع رسول الله (ص) في الخندق، فلم أفارقه مقامه كله. وكان يحرس بنفسه في الخندق. وكنا في قر شديد، فإني لأنظر اليه قام فصلى ما شاء الله أن يصلي في قبته، ثم خرج فنظر ساعة، ثم قال: هذه خيل المشركين تطيف بالخندق، من لهم؟.

ثم نادى: يا عباد بن بشر.

قال: لبيك.

---

(١) مجمع الزوائد ج ٦ ص ١٣٥ والاصابة ج ٣ ص ٣٥٨.
(٢) راجع: الاصابة ج ٢ ص ٥٦ وراجع: تهذيب تاريخ دمشق ج ٦ ص ١٨٣ ـ ١٨٥ وغير ذلك من كتب التراجم.

قال: أمعك أحد؟.

قال: نعم، أنا في نفر من أصحابي حول قبتك.

قال: فانطلق في أصحابك، فأطف بالخندق؛ فهذه خيل المشركين تطيف بكم، يطمعون أن يصيبوا منكم غرة. اللهم ادفع عنا شرهم، وانصرنا عليهم. واغلبهم، لا يغلبهم غيرك.

فخرج عباد في أصحابه، فإذا هو بأبي سفيان في خيل المشركين يطيفون بمضيق الخندق؛ فرماهم المسلمون بالحجارة والنبل، فرجعوا منهزمين.

ثم جاء عباد الى النبي فوجده يصلي، فأخبره: قالت أم سلمة: فنام حتى سمعت غطيطه[1].

ويستوقفنا في هذا الحديث:

١ ـ قول أم سلمة أنها كانت مع رسول الله في غزوة الخندق. وأنها لم تفارقه فيها أصلاً. وهذا يكذب ما يقوله البعض: من أنه (ص) كان يعقب بينها وبين عائشة وزينب بنت جحش.

٢ ـ عبارة أم سلمة: فنام حتى سمعت غطيطه. لا ندري مدى صحة حصول الغطيط منه (ص)، ونحن نتوقع منه خلاف ذلك. فإن الغطيط من المنفرات التي يتنزه عنها النبي.

٣ ـ قولها: وكنا في قر شديد. قد تقدم في الفصل الأول ما يوجب الشك في هذا الأمر.

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٤. ولا بأس بمراجعة: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص٥٢٩ و٥٣٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص٣٢٤ وامتاع الاسماع ج ١ ص٢٢٩و٢٣٠.

٤ ـ لا ندري كيف لم يلتفت عباد بن بشر ومن معه الى خيل المشركين وهي تطيف بالخندق، وكيف رآها النبي (ص) دونهم؟

فهل علم (ص) ذلك عن طريق الوحي؟! إن ظاهر الرواية هو أنه (ص) علم ذلك بواسطة عينه الباصرة.

٥ ـ أين كان سائر المسلمين عن حراسة خندقهم، ألم يكونوا يتناوبون عليه يحرسونه، ويطوفون به.

لكن ذلك لا يعني أن تكون الرواية كاذبة من أساسها، فلعل النبي (ص) قد نبه المسلمين لمحاولة تسلل من المشركين لم يكونوا قد التفتوا اليها، لإنشغالهم بحديث فيما بينهم.

حديث آخر ينسب لأم سلمة:

عن أم سلمة قالت: والله، إني لفي جوف الليل في قبة النبي (ص)، وهو نائم، الى أن سمعت الهيعة، وقائل يقول: يا خيل الله (وكان رسول الله قد جعل شعار المهاجرين: يا خيل الله) ففزع (ص) بصوته، وخرج من القبة، فإذا نفر من الصحابة عند قبته يحرسونها منهم عباد بن بشر. فقال (ص) ما بال الناس؟

قال عباد: يا رسول الله هذا صوت عمر بن الخطاب، الليلة نوبته، ينادي: يا خيل الله، والناس يثوبون اليه، وهو من ناحية حسيكة، ما بين ذباب ومسجد الفتح.

فأمر (ص) عباداً أن يأتيه بالخبر. فذهب ثم رجع الى النبي (ص) فقال: يا رسول الله، هذا عمرو بن عبد في خيل المشركين، معه مسعود بن رخيلة في خيل غطفان، والمسلمون

يرامونهم بالنبل والحجارة.

قالت: فدخل (ص) فلبس درعه ومغفره وركب فرسه، وخرج معه أصحابه، حتى أتى تلك الثغرة، فلم يلبث ان رجع وهو مسرور، فقال: صرفهم الله، وقد كثرت فيهم الجراحة.

ثم دخل (ص) فنام، فسمعوا هائعة أخرى، فانتبه (ص) فأخبروه أنه ضرار بن الخطاب فلبس (ص) درعه ومغفره وركب فرسه الى تلك الثغرة، وعاد في وقت السحر، وهو يقول: رجعوا مفلولين قد كثرت فيهم الجراحة[1].

ونقول:

قد يمكن للبعض أن يشكك في صحة هذه الرواية، على اعتبار: أن الروايات الأخرى قد تحدثت عن هزيمة عمر بن الخطاب أمام ضرار، وأنه كاد أن يقتله، ثم كف عنه، لأنه كان لا يقتل قرشياً قدر عليه، كما سيأتي.

كما أن الطبري وغيره يذكرون: أنه قد اختبأ هو وطلحة وغيرهما في بستان إبان حرب الخندق. كما سيأتي عن قريب.

ولكن هذا التشكيك يمكن دفعه بأن عمر لم يواجه حرباً بنفسه هنا، بل واجهها بغيره، أي بواسطة المسلمين الذين تصدوا للمشركين، وليس بالضرورة أن يصل به الرعب والخوف الى حدّ الهزيمة من ساحة الحرب، حتى حين يكون المتحاربون هم الآخرون.

غير أن ما يلفت نظرنا هنا هو ما نراه بوضوح من محاولات

---

(١) راجع المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٦ و٤٦٧ وراجع امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٠و٢٣١ وراجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٥.

جادة لإيجاد دورٍ ما لأشخاص بأعيانهم، كان لهم دور سلطوي بعد وفاة رسول الله (ص)، أو دور في تركيز دعائم السلطة بعده (ص) أو مناوأة آل ابي طالب بشكل أو بآخر. فنجد الإهتمام بإبراز دور ما لأبي بكر، ولعمر، وللزبير، ولمحمد بن مسلمة، ولسلمة بن اسلم، وعباد بن بشر، وسعد بن أبي وقاص، وأسيد بن حضير.

والمطلع على تاريخ هؤلاء يجد أنهم كانوا على العموم من المناوئين لعلي وأهل البيت عليهم الصلاة والسلام، ومنهم من هو من أركان الحكم وأعوانه، أو من المشاركين في الإعتداء على الزهراء، حين قيامهم بعدة هجمات على بيتها صلوات الله وسلامه عليها.

إصابة سعد بن معاذ بسهم:

ويذكر المؤرخون: أنه كان للمشركين رماة يقدمونهم إذا غدوا متفرقين، أو مجتمعين بين أيديهم وهم حبان بن العرقة، وأبو أسامة الجشمي في آخرين.

فتناوشوا يوماً بالنبل ساعة، وهم جميعاً في وجه واحد، وجاه قبة رسول الله (ص). ورسول الله (ص) قائم بسلاحه على فرسه؛ فرمى حبان بن العرقة سعد بن معاذ بسهم، فأصاب أكحله. وقال: خذها وأنا ابن العرقة. فقال رسول الله (ص): عرق الله وجهك بالنار (أو قال له سعد نفسه ذلك). ويقال: بل رماه أبو أسامة الجشمي، وقيل: خفاجة بن عاصم[١].

---

(١) راجع النص المتقدم في امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣١و٢٣٢ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٨ و٤٦٩ وراجع قسماً مما تقدم في المصادر التالية: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٧

وقال سعد: اللهم إن ابقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها؛ فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك، وأخرجوه وكذبوه. اللهم إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم؛ فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية[1].

والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٨ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٢ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٤٠ وراجع ص ٢٤١ وشرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٨ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٣ وجوامع السيرة النبوية ص ١٥١ واعلام الورى ط دار المعرفة ص ١٠١ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢١ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٠٦ / ٢٠٧ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٨ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨ وأنساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٧ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٧٠ و١٧١ ودلائل النبوة ص ٤٣٦ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٠ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٣ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٨ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠٤ و ٤٤١ و٤٤٢.

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٧ وراجع: الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٢ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٤٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٨ و٢٣٩ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٣١ و٢٣٢ و٢٠٧ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٤ وتاريخ الخميس ج ١ ص٤٨٨ ودلائل النبوة ص ٤٣٦ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٠ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٣ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤٠ والبدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٨ وبهجة المحافل وشرحه ج ١ ص ٢٦٧و٢٦٨ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٣ وجوامع السيرة النبوية ص ١٥١ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٧٠ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٧و٢٠٨ وسير اعلام النبلاء ج ١ ص ٢٨١و٢٨٢ وراجع مسند أحمد ج ٦ ص ١٤١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢١ وصحيح البخاري ج ٣

أضاف البعض هنا قوله: فلما قال سعد ما قال إنقطع الدم[١].

حديث عائشة حول سعد:

وتقول عائشة ـ كما روي ـ إن ابن معاذ مر عليها، وهي في الحصن، حصن بني حارثة، وكان من أحرز حصون المدينة ـ وذلك قبل أن يفرض علينا الحجاب[٢] ـ وعليه درع مقلصة قد خرجت منها أذرعه كلها. وفي يده حربة يَرْقَدُ (يرقل) بها، وهو يقول:

لبث قليلاً يشهد الهيجا حمل ماأحسن الموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه: الحق بنيّ فقد ـ والله ـ أخرت.

فقالت لها عائشة: والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي عليه. قالت: وخفت عليه حيث أصاب السهم منه.

فقالت أم سعد: يقضي الله ما هو قاض.

فقضى الله أن أصيب يومئذٍ[٣].

ص ٢٣.

(١) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٢ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٨ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٢٨ وج ٣ ص ٤٤١.

(٢) هذه العبارة ذكرها الواقدي، والديار بكري، وابن سيد الناس، وابن هشام، وابن كثير، والكلاعي، وابن اسحاق والبيهقي فراجع/الهامش التالي.

(٣) راجع فيما تقدم ـ وان اختلفت في بعض الألفاظ ـ المصادر التالية: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٥ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٧ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٦٥و٢٦٦ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٨ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢

ونقول:

إننا نرجح أن يكون أبو أسامة الجشمي هو الذي قتل ابن معاذ، وذلك.

أولاً: لأن بعض المصادر تذكر لأبي اسامة الجشمي أبياتاً فيها أنه هو الذي رمى سعداً فأصابه، فقد قال مخاطباً عكرمة، ومشيراً الى قتله سعداً:

اعكرم هلا لمتني اذ تقول لي ... فداك بآطام المدينة خالد

الست الذي ألزمت سعداً مريشة ... لها بين أثناء المرافق عاند

قضى نحبه منها سعيداً فأعولت ... عليه مع الشمط العذارى النواهد

الأبيات[1].

ثانياً: ذكرت الروايات: أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يوم أحد حبان بن العرقة بسهم فوقع في ثغرة نحره (أو في نحره) فوقع على ظهره وبدت عورته، فضحك (ص) حتى بدت نواجذه.

فهل عاش حبان من جديد؟ أو لم يمت من سهم أصابه في نحره!! ـ وعاش ـ حتى رمى سعد بن معاذ في اكحله في الخندق[2]؟.

ص ٢٤٠ والروض الأنف ج ٢ ص ١٩٢ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٤٠ / ٤٤١ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٩ وسير اعلام النبلاء ج ١ ص ٢٨١ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٢و٦٣ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٨ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٧.

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٨.

(٢) امتاع الاسماع ج ١ ص ١٣٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٧و٢٢٩ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٢٠١ ط دار الكتب العلمية.

إلا أن تكون قصة أحد قد صنعها محبوا سعد بن أبي وقاص لإثبات فضيلة له، وذلك عن هؤلاء غير بعيد، فقد رأيناهم يفعلون ذلك في كثير من المواضع. ثم سرعان ما ينسيهم الله ذلك، فتظهر الحقيقة على ألسنتهم من جديد، ويكذبون أنفسهم من حيث لا يشعرون.

الإختلاف في من قتل سعد بن معاذ:

وأما الاختلاف في قاتل سعد بن معاذ؛ فهو يعود ـ فيما يظهر لنا ـ إلى ان اللذين كانوا يرمون باتجاه سعد والمسلمين كانوا اكثر من واحد، فاختلطت السهام، واستطاع كل منهم أن يدعي لنفسه؟ أنه تمكن من قتل سيد قبيلة الأوس في المدينة وهو ـ باعتقادهم ـ شرف عظيم أراد كل منهم أن يخص نفسه به. مع أنه في الحقيقة غاية الخزي والعار، لو كانوا يعلمون.

سعد في خيمة رفيدة:

وأمر (ص) بنقل سعد حينما جرح الى خيمة رفيدة، التي كانت أقامتها في مسجد النبي (ص) لمداواة الجرحى. زاد القمي قوله: وكان يتعاهده بنفسه[١].

---

(١) عيون الأثر ج ٢ ص ٧٢ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٥٠ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٠٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٧ وشرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٧٢ عن البغوي والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٦ وجوامع السيرة النبوية ص ١٥٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٢١ ونهاية الإرب ج ١٧ ص ١٩١.

والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٣٣ وتاريخ الاسلام للذهبي

ونستفيد من ذلك: إمكانية أن تتولى المرأة مداواة الجرحى.

وقد تحدثنا عن ذلك بشيء من التفصيل في كتابنا: الآداب الطبية في الاسلام، فنحن نرجع القارىء الذي يريد التوسع إليه.

اصابة أبي بن كعب في اكحله:

وتذكر بعض الروايات عن جابر: أن أبي بن كعب، رمي يوم الأحزاب على اكحله؛ فكواه رسول الله (ص). وعنه، أي عن جابر: بعث رسول الله (ص) الى أبي بن كعب طبيباً فقطع منه عرقاً، ثم كواه عليه[(١)].

ونحن نتساءل عن السبب الذي لم يقدم لأجله النبي على معالجة سعد بن معاذ، بهذه الطريقة حتى يشفى. أم أنه عالجه، لكن لم يفده العلاج لأن جراحته تختلف عن جراحة أبي؟!

هل فرّ عمر وطلحة في غزوة الخندق؟

والذي يثير فينا العجب هنا أننا نجد عائشة تروى لنا ما يدل على

(المغازي) ص ٢٦٧ وسير اعلام النبلاء ج ١ ص ٢٨٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٨ وفتح الباري ج ٧ ص ٣١٧ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٨٨ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٣٢ والاستيعاب بهامش الاصابة ج ٤ ص ٣١١ والمفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٨ ص ٣٨٧ والتراتيب الادارية ج ٢ ص ١١٣ وج ١ ص ٤٦٢و٤٥٣ / ٤٥٤ والاصابة ج ٤ ص ٣٠٢و٣٠٣ عن ابن اسحاق، وعن البخاري في الأدب المفرد. وفي التاريخ بسند صحيح والمستغفري، وأبي موسى.

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٩ عن مسلم. كذا في المشكاة.

فرار جماعة من الصحابة في حرب الخندق، واختبائهم في حديقة هناك. قال الطبري: «حدثنا سفيان بن وكيع قال: حدثنا محمد بن بشر، قال حدثنا محمد بن عمرو. قال: حدثني أبي عن علقمة، عن عائشة قالت:

خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فوالله إني لأمشي إذ سمعت وئيد الأرض خلفي ـ يعني حسّ الأرض ـ فالتفت فإذا أنا بسعد، فجلست الى الأرض، ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس ـ شهد بدراً مع رسول الله (ص)، حدثنا بذلك محمد بن عمرو ـ يحمل مجنّه، وعلى سعد درع من حديد، قد خرجت أطرافه منها. قالت: وكان من أعظم الناس وأطولهم.

قالت: فأنا أتخوف على أطراف سعد؛ فمربي، يرتجز ويقول:

لبث قليلاً يدرك الهيجا حمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

قالت: فلما جاوزني قمت، فاقتحمت حديقة فيها نفر من المسلمين، فيهم عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه تسْبِغَة له ـ قال محمد: والتسبغة: المغفر لا ترى الا عيناه ـ فقال عمر: إنك لجرية، ما جاء بك؟ ما يدريك؟ لعله يكون تحوّز، (تحرف) أو بلاء.

فوالله ما زال يلومني حتى وددت أن الأرض تنشق لي فأدخل فيها، فكشف الرجل التسبغة عن وجهه؛ فإذا هو طلحة.

فقال: إنك قد اكثرت. أين الفرار، وأين التحوز (التحرف) إلا الى الله عز وجل[١].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٤١ ودلائل النبوة لأبي نعيم ص ٤٣٥و٤٣٦ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٦٦ وسير اعلام النبلاء ج ١

ونقول:

إن طلحة يتضايق من جهر عمر بالفرار أمام عائشة. ثم لما رأى أنه يكرر ذلك لها. يستنكر أن يكون هذا فراراً، ويعتبره فراراً الى الله عز وجل.

ونلفت النظر هنا: الى تجاهل جل المؤرخين لهذه الرواية، رغم أنهم يرون في الطبري المثل الأعلى لهم، وهم ينقلون عنه ويعتمدون عليه. ولعله هو بالإضافة الى سيرة ابن هشام، يأتي على رأس القائمة في أي مراجعة للسيرة، أو تسجيل أي حدث، أو موقف منها.

كما أننا لا نستبعد: أن تكون هذه هي القضية الصحيحة، لا قضية عائشة مع أم سعد.

ثم إننا لا ننسى أن نسجل هنا تساؤلاً يبقى حائراً، وهو أنه كيف سوغت عائشة لنفسها أن تخرج من الحصن الذي وضعها النبي (ص) فيه، مع خطورة الموقف وحساسيته المتناهية، ومع عدم إذن النبي (ص) لها بذلك، إذ لو كانت مأذونة منه (ص) لأحتجت به على عمر، ولم تصبر على هذا التقريع المرّ الذي واجهها به، حتى إنها لتود أن تنشق لها الأرض، فتدخل فيها.

ولعل مما يؤيد فرار الكثيرين يوم الخندق: ما سيأتي في حديث حذيفة حينما ارسله النبي (ص) لكشف خبر قريش، حيث ذكر أنه لم يبق مع النبي سوى اثني عشر رجلاً فقط[1].

ص ٢٨٤ والطبقات الكبرى ج ٣ قسم ٢ ص ٣ وكنز العمال ج ١ ص ٢٨٠ عن ابن عساكر.

(١) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣١ وتلخيصه للذهبي بهامشه وصححاه ودلائل

والرواية الأخرى تقول: إن الناس تفرقوا ولم يبق من العسكر غير ثلاثة مئة[1].

من بطولات سعد:

ويقولون: «كان يوم الخندق رجل من الكفار معه ترس، وكان سعد رامياً. وكان الرجل يقول كذا وكذا بالترس، يغطي جبهته، فنزع له سعد بسهم، فلما رفع رأسه رماه سعد لم يخطىء هذه منه، يعني جبهته، فانقلب وأشال برجله، فضحك النبي (ص) حتى بدت نواجذه، يعني من فعله بالرجل»[2].

ونقول:

إننا نشك في صحة ذلك.

أ : إن الذين قتلوا من المشركين معروفون. وستأتي أسماؤهم، واسماء الذين قتلوهم. وهم عمرو بن عبد ود، وولده حسل. وقد قتلهما علي أمير المؤمنين عليه السلام. ونوفل بن عبد الله، قتله علي عليه السلام أيضاً، وقيل. بل قتله الزبير، وسيأتي أنه غير صحيح. ومنبه بن عثمان، أو عثمان بن أمية بن منبه. أصابه سهم غرب فمات منه بمكة. وسيأتي ذلك مع مصادره في الفصل الأخير من هذا الباب.

فأين ذلك الرجل الذي قتله سعد بسهم؟!.

النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٥٠و٤٥١ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤٩ / ٢٥٠.

(١) سيأتي ذلك في الفصل الأخير من هذا الباب.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٨ عن الترمذي في الشمائل.

إلا أن يقال: إنه قد اصابه في جبهته، وانقلب وأشال برجله، لكنه لم يمت.

ب : إن هذه الرواية هي ـ تقريباً ـ نفس الحكاية التي تحكى لسعد مع حبان بن العرقة في غزوة أحد. إلا أنها ذكرت: أن هذا كان يتلاعب بترسه، فرماه سعد في جبهته.

وقد أشرنا غير مرة الى أننا نجد اهتماماً خاصاً بتسطير الفضائل لسعد لتعويضه عن فراره في المواطن. ولرد الجميل له على مواقفه المؤيدة للسلطة التي اغتصبت مقام الخلافة بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم. وقد أشرنا ال ذلك في غزوة أحد حين الكلام عن بطولات سعد الموهومة، فراجع.

بطولات وهمية للزبير:

روى البيهقي من طريق حماد بن زيد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير، قال:

جعلت يوم الخندق مع النساء والصبيان في الأطم (يعني حصناً) ومعي عمر بن أبي سلمة؛ فجعل يطأطيء لي؛ فأصعد على ظهره؛ فأنظر اليهم كيف يقتتلون. وأطأطيء له فيصعد فوق ظهري؛ فينظر.

قال: فنظرت الى أبي، وهو يحمل مرة هاهنا، ومرة هاهنا، فما يرتفع له شيء إلا أتاه.

فلما أمسى جاءنا الى الأطم. قلت: يا أبه، رأيتك اليوم وما تصنع.

قال: ورأيتني يا بني؟!.

قلت: نعم.

قال: أما إن رسول الله قد جمع لي أبويه. قال: فدا لك أبي وأمي[1].

ونقول:

قد قدمنا في فصل: غدر بني قريظة: أن عبد الله بن الزبير كان آنئذٍ طفلاً صغيراً جداً، ولم يكن بحيث يمكن أن يصدر منه ذلك فقد كان عمره أقل من سنتين على ما يظهر - فراجع ما قدمناه.

هذا بالإضافة الى أننا لم نفهم معنى لما يدعيه ابن الزبير من حملات لأبيه هنا، وحملات هناك، ونحن نعلم أن ذلك لم يحدث في الخندق، بل الذي كان هو المراماة بالنبل والحصا في بعض الأحيان. أما قضية المبارزة فإنما كانت بين علي وعمرو بن عبد ود، كما سيأتي.

هذا بالإضافة الى أن هذا الحديث زبيري سنداً ومتناً، ولم نجد من روى لنا هذه المواقف البطولية للزبير في حرب الأحزاب.

قدامة بن مظعون في حرب الخندق:

«عن نافع، عن ابن عمر، قال: بعثني خالي عثمان بن مظعون

(١) راجع: دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٣٩و٤٤٠ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٦ / ٢٠٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٧ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٦.

لآتيه بلحاف. فأتيت النبي (ص)، فاستأذنته ـ وهو بالخندق ـ فأذن لي، وقال لي:

من لقيت منهم فقل لهم: إن رسول الله (ص) يأمركم أن ترجعوا.

قال: فلقيت الناس فقلت لهم... الى أن قال ابن عمر: والله ما عطف علي منهم اثنان أو واحد»[١].

ونقول:

أ: إن هذه الرواية موضع ريب؛ لأن عثمان بن مظعون، قد توفي قبل الخندق بزمان، فإنه أول من مات بالمدينة من المهاجرين. وذلك بعد بدر في السنة الثانية من الهجرة الشريفة.

وقد احتمل البعض أن يكون المقصود هو قدامة بن مظعون فراجع[٢].

ب: قد يقال: إن هذه الرواية تدل على أن طائفة من الناس قد فروا يوم الخندق، وفقاً لما تقدم من فرار جماعة فيهم عمر وطلحة، وقد اختبأوا في حديقة هناك، فاكتشفتهم عائشة. وسيأتي أيضاً: أن الناس قد تفرقوا عن النبي حتى بقي في ثلاث مئة. بل في اثني عشر رجلاً كما في رواية القمي والحاكم في المستدرك بسند صححه هو والذهبي.

لكن قد يجاب عن ذلك بأن من الممكن أن تكون الرواية ناظرة

---

(١) عيون الأثر ج ٢ ص ٥٦ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٩ بإسناد صحيح عن الطبراني.
(٢) عيون الأثر ج ٢ ص ٥٦.

الى حالة المسلمين لما بلغهم فرار المشركين، فإنهم تركوا النبي وقصدوا المدينة لا يلوون على شيء. وسيأتي ذلك في آخر فصل: نهاية حرب الخندق.

إلا أن هذا الجواب لا يكفي، إذ لا معنى لطلب النبي من الناس الرجوع الى مواقعهم، بعد ذهاب الأحزاب.

ج : إن هذه الرواية تشير الى أنه قد كان ثمة دقة في التنظيم، وهيمنة قيادية، قد فرضت عدم تغيب أي عنصر مشارك في الحرب الا بإذن من الرسول مباشرة، الأمر الذي يتيح للقيادة أن تبقى على اطلاع تام بحجم وفعالية القوة التي تعمل تحت قيادتها، فتتمكن من التخطيط الدقيق والسليم وفي نطاق وحدود القدرات المتوفرة لديها. والاستئذان هذا كان من الجميع حتى من المنافقين لأعذار مختلفة.

القتال بين المسلمين وبين بني قريظة:

قد ذكرت النصوص التاريخية عدة موارد يقال: إنها حصلت فيها مناوشات فردية بين المسلمين واليهود. وذكرت أيضاً حوادث محدودة في نطاق التدبير العسكري فيما بين الفريقين.

بالإضافة الى تحركات عامة في دائرة التفاهم لشن هجوم مشترك على المسلمين. ونذكر هذه الأمور في ضمن النقاط التالية:

ألف : التفكير بمباغتة المدينة:

قال الديار بكري: «واستعان بنو قريظة من قريش ليبيتوا المدينة فعلم به النبي (ص) ـ فبعث سلمة بن الأسلم في ماءتي رجل، وزيد بن

حارثة في ثلاث مئة رجل حتى حرسوا حصون المدينة ومحلاتها»[١].

ويفصل ذلك البعض، فيقول: همت بنو قريظة أن يغيروا على بيضة المدينة ليلاً، فأرسلوا حيي بن أخطب الى قريش أن يأتيهم منهم الف رجل، ومن غطفان الف فيغيروا بهم.

فجاء الخبر بذلك رسول الله (ص)؛ فعظم البلاء، وبعث سلمة بن اسلم في مئتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاث مئة يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير. ومعهم خيل المسلمين، فإذا أصبحوا أمنوا.

فكان أبو بكر يقول: لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان. ولقد كنت أوفي على سلع؛ فأنظر الى بيوت المدينة ؛ فإذا رأيتهم هادين حمدت الله عز وجل؛ فكان مما ردّ الله به بني قريظة عما أرادوا: أن المدينة كانت تحرس»[٢].

ونقول:

إنه ربما يستفاد من قوله تعالى: ﴿**إذ جاؤكم من فوقكم ومن اسفل منكم**﴾ أن بني قريظة قد تحركوا لقتال المسلمين، أو لمحاصرتهم. أو عملوا على ذلك بطريقة أو بأخرى.

هذا، ولم تذكر لنا الرواية سبب عدم استجابة قريش وغطفان

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٤.

(٢) راجع المصادر التالية: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٢٦٠ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٨ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٤و٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٨.

لطلب بني قريظة، ولا الطريقة التي علم بها رسول الله بإرسال بني قريظة تلك الرسالة الى الأحزاب.

كما أننا لا نكاد نطمئن الى آن النبي (ص) لم يبادر الى حراسة المدينة إلا بعد أن علم بعزمهم على تبييت المدينة؛ فإن النبي لم يكن ليغفل عن حراسة المدينة من أول يوم خرج فيه لحفر الخندق ومواجهة الأحزاب بل من أول ساعة.

أضف الى ذلك كله: أن تخصيص خمس مئة مقاتل لحراسة المدينة، أي ما ربما يزيد على نصف جيش المسلمين، ثم الإكتفاء بالنصف أو بأقل من ذلك ـ حسبما تقدم عن عدة المسلمين ـ ليواجهوا جيش الأحزاب ـ ان هذا ـ قد يكون امراً مبالغاً فيه. ولعله كان يرسل مئتين على التناوب، فتارة يرسل سلمة وتارة يرسل زيداً، وهكذا.

ب : قصة خوات بن جبير واليهودي:

وبعث (ص) خوات بن جبير لينظر غرة لبني قريظة، أو خللاً من موضع؛ فكمن لهم؛ فنام، فحمله رجل منهم وقد أخذه النوم. فأفاق؛ فعرف أن حامله طليعة لبني قريظة؛ فأمكنه الله من الرجل وقتله، ولحق بالنبي (ص) وأخبره، بعد أن كان (ص) قد عرف بالقضية من جهة جبرئيل[1].

ونقول:

إننا لا ندري لماذا يفضل ذلك اليهودي حمل عدوه على ظهره؟! ولا يبادر الى قتله، والتخلص منه. والذي نعلمه في حالات كهذه هو

---

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٨ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٠و٤٦١.

أن يكون نوم من ينام قلقاً وغير مستقر، حتى إن النائم ليتنبه لأدنى حركة أو لمسة له، ونجد أن هذا اليهودي يحمل هذا النائم ويرفعه الى كتفه ولا يشعر به.

ثم كيف عرف خوات بن جبير أن حامله طليعة لبني قريظة؟! هذا مالم تصرح لنا الرواية به.

وإذا اغمضنا النظر عن ذلك، فإن اهتمام النبي بالعمل الاستخباري في حروبه ظاهر للعيان.

ولكن طلب الغرّة لبني قريظة والخلل من موضع، انما يتناسب مع التخطيط لمهاجمتهم، وذلك لم يكن متيسراً، أو فقل لم يكن مطروحاً للتداول به والتخطيط له في غزوة الخندق.

فلعل رسول الله (ص) كان يمهد لغزوهم حين فراغه من الأحزاب، فكان ارسال الطلائع تمهيداً لذلك.

ج: تحركات، وتحرشات:

وخرج نباش (ولعل الصحيح: شاس) بن قيس في عشرة من اليهود يريد المدينة، ففطن بهم نفر من أصحاب سلمة بن اسلم، فرموهم حتى هزموهم[1].

ومرّ سلمة في من معه، فأطاف بحصون يهود، فخافوه، وظنوا: أنه البيات.

ومن الواضح: أن هؤلاء اليهود لا يشكلون خطراً جدياً على

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٢٩ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٢.

المسلمين، إلا من حيث أنهم طليعة للعدو وتريد أن تحصل على معلومات تفيد في توجيه ضربة عسكرية للمسلمين، أو من حيث أنهم يريدون الحصول على مكاسب مادية، لظنهم أن المسلمين في غفلة عن بعض المواقع التي يمكنهم التسلل اليها للحصول على ما يمكن الحصول عليه منها.

أو من حيث إحداث بلبلة في صفوف المسلمين، حين يشعرون أن نساءهم في معرض خطر أكيد من قبل الأعداء.

ومن الملفت للنظر أيضاً هذا الرعب من قبل اليهود لمجرد رؤيتهم سلمة بن اسلم يطيف بحصونهم، مع أنهم يظنون أنهم مانعتهم حصونهم.

د : قتل مغامر:

روى الطبراني بسند رجاله ثقات عن رافع بن خديج قال: لم يكن حصن أحصن من حصن بني حارثة، فجعل النبي (ص) النساء والصبيان والذراري فيه.

وقال لهن: إن لم يكن أحد فالمعن بالسيف. فجاءهن رجل من بني (ثعلبة) حارثة بن سعد، يقال له نجدان. أحد بني جحاش على فرس، حتى كان في أصل الحصن، ثم جعل يقول لهن: انزلن اليّ خير لكن.

فحركن السيف، فأبصره أصحاب رسول الله (ص)؛ فابتدر الحصن قوم فيهم رجل من بني حارثة يقال له: ظفر بن رافع. فقال: يا نجدان ابرز. فبرز اليه. فقتله، وأخذ رأسه فذهب به الى

النبي (ص)[١].

ولنا ملاحظة على هذا النص، وعلى نص سابق شبيه به، وهو أنه (ص) قد قال لهن: إن لم يكن أحد فالمعن بالسيف، فهل هذا يعني: أن يلمعن بالسيف لايهام الأعداء وجود اسلحة معهم؟!

الجواب: قد يكون لا، لأن هذا لو صح لكان الأنسب ان يقول لهن، فالمعن بالسيوف، إلا أن يكون المقصود هو جنس السيف، لا السيف الواحد.

والظاهر أنه (ص) يريد أن يلمعن بالسيف لو تعرضن لأي هجوم من الأعداء ليعرف المسلمون بالأمر، لينجدوهم بالرجال. ومعنى ذلك هو أن موضع النساء كان قريباً من جيش المسلمين، وفي مقابلهم. كما أن هذه الطريقة لن تنفعهم إلا في وقت النهار، وحيث تكون السماء صافية والشمس طالعة لا مطلقاً. إذ في الليل وحيث لا شمس لا يلمع السيف.

صفية وحسان بن ثابت واليهودي:

روى الزبير بن العوام: أن صفية كانت في حصن فارع (وفي نص آخر: في حصن حسان بن ثابت) مع نساء النبي (ص). وكان معهن حسان بن ثابت، فرقى يهودي الحصن حتى أشرف عليهن، فقالت صفية: يا حسان، قم إليه حتى تقتله. وفي نص آخر: ان اليهودي جعل يطوف بذلك الحصن. فخافت صفية أن يدل على عورة الحصن.

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٩ عن الوفاء عن الطبراني ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠١/٣٠٢ عن الطبراني وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٤.

قال: لا والله، ما ذاك فيّ؛ ولو كان فيّ لخرجت مع رسول الله (ص).

قالت صفية: فاربط السيف على ذراعي. ثم تقدمت اليه حتى قتلته، وقطعت رأسه، فقالت له: خذ الرأس وارم به على اليهود.

قال: وما ذاك فيّ.

فأخذت الرأس فرمت به على اليهود. فقالت اليهود: قد علمنا: انه لم يك يترك أهله خلوفاً، ليس معهم أحد.

ويذكر نص آخر: أنها طلبت منه أن يسلبه فرفض.

ونص آخر يذكر: أنها قتلته بواسطة عمود. وفي غيره: قتلته بفهر. وتذكر رفض حسان لسلبه، ولا تذكر حديث قطع رأسه(١).

---

(١) راجع المصادر التالية: وفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٢ عن البزار. وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٤و٥٢٥ عن ابن اسحاق، والواقدي، وأبي يعلى، والبزار بسند حسن عن الزبير، والطبراني بسند رجاله رجال الصحيح عن عروة مرسلاً وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٤١و٢٤٢ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٦ واسد الغابة ج ٢ ص ٦ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٩ عن الوفاء، والهيثمي، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٧ ومسند أحمد والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٤٢و٤٤٣ وامالي الشيخ الطوسي ص ٢٦٧و٢٦٨ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٤٥ والاكتفاء للكلاعي ؛ ٢ ص ١٧١ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٨و٢٠٩ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤٠ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨١ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٩ وأنساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٧ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٣ وغرر الخصائص الواضحة ص ٣٥٨.

وقد «زاد أبو يعلى: فأخبر بذلك رسول الله (ص) فضرب لصفية بسهم، كما يضرب للرجال»[١].

لكن نصاً آخر يقول: إن غزال بن سموأل أقبل مع عشرة من اليهود نهاراً فجعلوا يستترون ويرمون الحصن. «وقد حاربت قريظة، ورسول الله (ص) في نحر العدو، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم الينا اذا أتاهم آت»[٢].

ونقول:

يلفت نظرنا في هذه الرواية أمور عدة، نذكر منها:

ألف : جبن حسان:

قال البلاذري والواقدي: «كان حسان رجلاً جباناً»[٣].

وقال ابن الأثير: «كان حسان من أجبن الناس حتى إن النبي (ص) جعله مع النساء في الآطام يوم الخندق[٤]».

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٥.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٤و٥٢٥ وراجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٢و٤٦٣ وسيرة المصطفى ص ٥٠٥و٥٠٦ وراجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٤٢و٤٤٣ وراجع: الاكتفاء ج ٢ ص ١٧١.

(٣) انساب الإشراف ج ١ ص ٣٤٧ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٦٢و٤٦٣ وفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٢ و٣٠٣ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٩.

(٤) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٩ وراجع: شرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ١٥ وراجع: الروض الأنف ج ٣ ص ٢٨١ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٢ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦٤ واسد الغابة ج ٢ ص ٦.

وقال الحلبي: «وهذا يدل على ما قيل: إن حسان بن ثابت كان من أجبن الناس كما تقدم»[١].

وقد صرحوا بأن حساناً لم يشهد مع رسول الله (ص) مشهداً قط لأنه كان جباناً[٢].

وكان حسان ضارباً وتداً في ناحية الأطم، فإذا حمل اصحاب النبي (ص) على المشركين حمل على الوتد فضربه بالسيف، وإذا أقبل المشركون ترك الوتد كأنه يقاتل قرناً. كان يرى انه يجاهد جبناً عن القتال[٣].

وقال الاسكافي: «لو كان الضعيف والجبان يستحقان الرياسة بقلة بسط الكف، وترك الحرب وان ذلك يشاكل فعل النبي، لكان أوْفر الناس في الرياسة، واشدهم لها استحقاقاً حسان بن ثابت»[٤].

و «قال ابن الكلبي: كان حسان بن ثابت لسناً شجاعاً، فأصابته علة، أحدثت فيه الجبن، فكان لا ينظر الى قتال ولا يشهده»[٥].

وقالت صفية: «كنت أعرف انكشاف المسلمين وانا على الأطم برجوع حسان الى اقصى الأطم»[٦].

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٧.
(٢) المعارف ص ٣١٢ ط سنة ١٩٦٠ م وغرر الخصائص الواضحة ص ٣٥٨ وأسد الغابة ج ١ ص ٦.
(٣) كنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٦.
(٤) شرح النهج للمعتزلي الشافعي ج ١٣ ص ٢٨٢.
(٥) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص٥٦٤.
(٦) شرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ١٦ والمغازي للواقدي ج ١ ص ٢٨٨.

وكلام ابن الكلبي هذا يدل على عدم صحة ما ردّ به السهيلي وغيره على هذا بحجة أنه لو صح أنه كان جباناً لهجاه به الشعراء، لأنه كان يهاجيهم كضرار وابن الزبعري. فلعل حسان ـ لو صح أنه كان مع النساء في الأطم ـ كان معتلاً بعلة منعته من شهود القتال[1].

أضف الى ذلك: أن المؤرخين قد حكموا على حسان بالجبن بصورة مطلقة معللين ابقاءه مع النساء بذلك، الأمر الذي يظهر منه أن جبنه كان معروفاً لديهم، لا أنهم استندوا في ذلك إلى خصوص هذه الرواية.

وأما لماذا لم يعيِّر الشعراء حساناً بالجبن، فقد قال الزرقاني:

«إن ابن اسحاق لم ينفرد به، بل جاء بسند متصل حسن كما علم؛ فاعتضد حديثه. وقال ابن السراج: سكوت الشعراء عن تعييره بذلك من أعلام النبوة لأنه شاعره (ص)[2]».

ونزيد نحن على ذلك: أن هجاءهم لحسان لا مبرر له، وإنما هم يريدون هجاء الاسلام ورسول الاسلام، وجماعة المسلمين، ولا يهمهم حسان كشخص من قريب ولا من بعيد.

وهذا بالذات هو ما يطغى على شعرهم المتبادل فيما بينهم.

---

(١) راجع: الروض الأنف ج ٣ ص ٢٨١ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٢و٣٠٣ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٩ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦٤.

(٢) هامش السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٤٠ تحقيق الابياري، والسقا، وشلبي.

ب: قصة حسان في الخندق أم في أحد:

وقد رويت قصة جبن حسان، وقتل صفية لليهودي في غزوتي أحد والخندق معاً[١].

وقد تقدمت هذه الرواية في غزوة أحد أيضاً.

ونرجح أنها كانت في الخندق لأن اليهود إنما غدروا في الخندق[٢]. وهذا هو ما رجحه السمهودي أيضاً استناداً الى ذلك، والى أن الطبراني قد روى بسند رجاله رجال الصحيح عن عروة مرسلاً: أنها كانت في الخندق، وممن ذكر القصة في الخندق ابن اسحاق أيضاً[٣].

ج: تأثير هذه القضية على اليهود

قد ذكرت بعض النصوص المتقدمة: أن قتل صفية لليهودي قد جعل اليهود يعتقدون: أن النبي قد جعل أناساً لحماية النساء والذرية، وليحفظوا مؤخرة الجيش عن أن تتعرض لأي عمل حربي، حيث قالت اليهود: إنه لم يك يترك أهله خلوفاً، ليس معهم أحد.

وذكر في نص سابق، أن عشرة من اليهود، «جعلوا يستترون ويرمون الحصن، ورسول الله (ص) في نحر العدو، ولا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم الينا إذا أتانا آت».

---

(١) وفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٢ وراجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٢٨٨ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٥ ص ١٥ /١٦.

(٢) وفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٣ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٩.

(٣) المصدران السابقان.

ولكننا نشك في صحة ذلك؛ إذ قد كان ثمة حرس للمدينة يبلغ حوالي خمس مئة مقاتل. وقد كان يكفي لرد هؤلاء العشرة عشرة مثلهم، فضلاً عن المئات.

ثم إن وصول عشرة من بني قريظة الى مكان قريب من الجيش الاسلامي وفي قبال ذلك الجيش مع احتمالهم أن يكون ثمة حرس يعتبر مجازفة منهم، لا نرى أن اليهود يقدرون عليها.

وقلنا: إن موضع النساء قريب من جيش المسلمين، لأن النبي كما تقدم قد طلب من النساء أن يلمعن بالسيف إذا تعرضن لأي مكروه.

فلماذا لم يلمعن بالسيف كما صنعن في قصة أحد بني جحاش، الذي تم التخلص منه بهذه الطريقة بالذات.

إلا أن يكون الناس في ذلك الوقت قد شغلتهم الحرب حتى لا يستطيع أحد منهم، ولا حتى مفرزة صغيرة بمقدار خمسين فارساً: أن تنجد النساء والأطفال.

ونحن لا نظن أن النبي (ص) لم يحسب حسابه لساعات كهذه، وترك الأمر يتطور الى أن يصل الى هذه الدرجة من الخطورة.

ولهذا فنحن نعتقد: أن هذه مبادرة من صفية رحمها الله لمواجهة رجل تسلل الى موضع قريب، وقد نجحت في المهمة التي أحبت أن تبادر لإنجازها، ثم زاد الآخرون ما شاؤوا على ذلك إكراماً لولدها الزبير، ولآل الزبير، ولعل هذه الزيادات لا تبعد كثيراً عن نشاطات عروة ونظرائه ممن يسيرون في نفس الخط الذي هو فيه.

د: ربط السيف على الذراع وتناقض الرواية:

ولا ندري كيف يربط السيف على الذراع، ولا ندري أيضاً كيف يمكن تفسير هذه الاختلافات والتناقضات لنصوص هذه الرواية، فإن ذلك مما يضعف وثوقنا بها أيضاً.

غنيمة المسلمين من المشركين:

وقال ابو سفيان لحيي بن أخطب: قد نفدت علافتنا فهل عندكم من علف؟!.

فقال حيي: نعم.

فكلم كعب بن اسد، فقال: مالنا مالك، فأرسل المشركون اليهم عشرين بعيراً، فحملوها لهم شعيراً، وتمراً وتبناً، وخرجوا بها الى قريش؛ فلما كانوا بصفنة. وهم يريدون أن يسلكوا العقيق، جاؤا جمعاً من بني عمرو بن عوف، وهم يريدون منازلهم بأنصاف النهار، يطلبونهم. وهم عشرون رجلاً. فيهم أبو لبابة، وعويم بن ساعدة ومعن بن عدي، خرجوا لميت مات منهم في أطمهم ليدفنوه.

فناهضوا الحمولة، وقاتلهم القرشيون ساعة، وكان فيهم ضرار بن الخطاب، فمنع الحمولة، ثم جُرِحَ وجَرَح، ثم اسلموها، وكثرهم المسلمون، وانصرفوا يقودونها، حتى أتوا بني عمرو بن عوف، فدفنوا ميتهم، ثم ساروا الى رسول الله (ص) بها.

فكان أهل الخندق يأكلون منها؛ فتوسعوا بذلك، وأكلوه حتى نفد، ونحروا من تلك الإبل أبعرة في الخندق، وبقي منها ما بقي حتى دخلوا به المدينة.

فلما رجع ضرار بن الخطاب أخبرهم الخبر، فقال أبو سفيان: إن حيّاً لمشؤوم، ما أعلمه إلا قطع بنا. ما نجد ما نتحمل عليه اذا رجعنا(١).

ولكننا نسجل تحفظاً هنا، ينطلق من كلام ابي سفيان هذا، فان حيياً لم يقطع بهم. كما أن هذه الغنيمة لم تكن خيلاً ولا ابلاً بل كان شعيراً وتمراً وتبناً، وبعض الابل، فما معنى قوله: ما نجد ما نتحمل عليه إذا رجعنا.

الجن الذين في المدينة:

وكان رجال يستأذنون أن يطلعوا الى أهليهم، فيقول (ص) إني أخاف عليكم بني قريظة، فإذا الحوا يأمرهم بأخذ السلاح معهم.

«وكان فتى حديث عهد بعرس؛ فأخذ سلاحه وذهب؛ فإذا امرأته قائمة بين البابين؛ فهيأ لها الرمح ليطعنها، فقالت؛ اكفف حتى ترى ما في بيتك؛ فإذا بحية على فراشه، فركز فيها رمحه، فاضطربت، وخر الفتى ميتاً. فما يدري أيهما كان أسرع موتاً.

فقال رسول الله ـ لما أخبر بذلك ـ إن بالمدينة جنا قد اسلموا؛ فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام؛ فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان»(٢).

والذي يلفت نظرنا في هذا النص.

---

(١) القصة في: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٩ / ٥٤٠ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٤ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩٢ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٣.

(٢) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٤ / ٢٣٥ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٨ والمغازي ج ٢ ص ٤٧٥.

الف: لماذا يؤاذنونه ثلاثة أيام، لا أقل ولا أكثر؟! فإن الجن إذا كان مؤمناً، فإنه لا يعتدي على الناس، ولا يأخذ فراش الناس، ويكون فيه.

ب: لماذا يبادر الى طعن زوجته بالرمح اذا رآها بين البابين ألم يكن بوسعه أن يسألها عن سبب كونها في ذلك المكان؟ وهل وجودها في هذا المكان دليل خيانة وانحراف؟!

ج: هل الجن قادر على مواجهة الانسان بهذه الصورة؟ وهل لم يكن بوسع تلك الحية الجنية أن تتخلص من رمح ذلك الفتى؟! وهل اذا مات الجن يبقى جسده ماثلاً للعيان؟ ويكون من لحم ودم؟!.

اشتباك مع الإخوة

وخرجت طليعتان للمسلمين ليلاً، فالتقيا، ولا يشعر بعضهم ببعض، ولا يظنون إلا أنهم العدو، فكانت بينهم جراحة وقتل، ثم نادوا بشعار الإسلام:

حم، لا ينصرون.

فكف بعضهم عن بعض، وجاؤا، فقال رسول الله (ص): جراحكم في سبيل الله، ومن قتل منكم فإنه شهيد.

فكانوا بعد ذلك اذا دنا المسلمون بعضهم من بعض نادوا بشعارهم[١].

---

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٤ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٧و٥٣٨ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢١.

لعن الله الراكب، والقائد، والسائق:

قال سبط بن الجوزي: إن الامام الحسن عليه السلام قال لمعاوية: «نظر النبي (ص) إليك يوم الأحزاب، فرأى أباك على جمل يحرض الناس على قتاله. وأخوك يقود الجمل، وأنت تسوقه، فقال:

«لعن الله الراكب، والقائد والسائق»[١].

آية قرآنية في خوات بن جبير:

محمد بن اسماعيل، عن الفضل بن شاذان، وأحمد بن ادريس، عن محمد بن عبد الجبار، جميعاً عن صفوان بن يحيى، عن ابن مسكان، عن أبي بصير، عن أحدهما عليهما السلام في قول الله تعالى: ﴿**أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم**﴾ الآية[٢]، فقال: نزلت في خوات بن جبير الأنصاري، وكان مع النبي (ص) في الخندق وهو صائم، فأمسى وهو على تلك الحال. وكانوا قبل أن تنزل هذه الآية اذا نام أحدهم حرم عليه الطعام والشراب.

فجاء خوات إلى أهله حين أمسى، فقال: هل عندكم طعام؟! فقالوا: لا، لا تنم حتى نصلح لك طعاماً.

فاتكأ فنام؛ فقالوا له: قد فعلت؟

قال: نعم.

---

(١) تذكرة الخواص ص ٢٠١ والغدير ج ١٠ ص ١٦٩ عنه.

(٢) البقرة ١٨٧.

فبات على تلك الحال؛ فأصبح ثم غدا الى الخندق، فجعل يغشى عليه، فمر به رسول الله (ص)؛ فلما رأى الذي به أخبره كيف كان أمره. فأنزل الله عز وجل فيه الآية:

﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾[١].

والحديث صحيح السند. كما هو ظاهر. لكن صرح في رسالة المحكم والمتشابه بأن ذلك كان حين حفر الخندق في شهر رمضان المبارك. وان اسم الرجل هو مطعم بن جبير.

ونقول:

١ ـ الذي نعرفه في رجال الصحابة هو جبير بن مطعم، لا العكس.

٢ ـ قد وصفت رواية القمي والسيد المرتضى خوات بن جبير بأنه كان حينئذٍ شيخاً كبيراً ضعيفاً.

مع أنهم يقولون: إن خوات بن جبير قد توفي سنة اربعين، أو اثنتين واربعين وهو ابن أربع وسبعين سنة[٢]، ومعنى ذلك هو أنه كان

---

(١) الكافي ج ٤ ص ٩٩ وتفسير نور الثقلين ج ١ ص ١٤٤و١٤٥ وتفسير القمي ج ١ ص ٦٦ ومن لا يحضره الفقيه ط. جماعة المدرسين ج ٢ ص ١٣٠ / ١٣١ والوسائل ج ٧ ص ٨٠ و٨١ ورسالة المحكم والمتشابه ص ١٠ والبحار ج ٢٠ ص ٢٤١/ ٢٤٢ وتفسير البرهان ج ١ ص ١٨٦و١٨٧ عن الكافي والقمي، وعن تفسير العياشي. ومجمع البيان ج ١ ص ٢٨٠.

(٢) راجع: الاصابة ج ١ ص ٤٥٨ وسير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٣٣٠ واسد الغابة ج ٢ ص ١٢٦ وراجع تهذيب التهذيب ج ٣ ص ١٧١ والطبقات

يوم الخندق في عز شبابه، وغاية نشاطه وقوته. وقيل: كان سنه حين توفي احدى وسبعين سنة[١] عن ابن نمير.

وإن كان الاستيعاب قد سجل أربعاً وتسعين سنة[٢]، ولعلها تصحيف سبعين، فإن الاشتباه بينهما كثير.

٣ ـ إن الرواية تقول: إنها نزلت في خوات، لكن روايات أخرى ذكرت: أنها نزلت في صرمة بن قيس أو غيره[٣].

٤ ـ الرواية تقول: إن المسلمين كانوا إذا نام أحدهم قبل أن يفطر حرم عليه الطعام والشراب الى الليلة القابلة ـ وهذا هو المروي بكثرة عجيبة ـ من طرق غير أهل البيت.

ونقول:

إن هذه كانت طريقة أهل الكتاب. وقد نزلت الآية لِردْع المسلمين عنها[٤] فلعل بعض المسلمين بسبب انبهاره قد انساق وراء أهل الكتاب في ذلك فنزلت الآية لتردعهم عنه، وقال رسول الله (ص) أيضاً: فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب اكلة السحر[٥].

الكبرى لابن سعد ط صادر ج ٣ ص ٤٧٨و٤٧٧ وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ص ١٠٨.

(١) تهذيب التهذيب ج ٣ ص ١٧١.

(٢) الاستيعاب (مطبوع بهامش الاصابة) ج ١ ص ٤٤٤ وكذا في تهذيب الاسماء ج ١ ص ١٧٩.

(٣) الدر المنثور ج ١ ص ١٩٧و١٩٨ عن مصادر كثيرة.

(٤) الدر المنثور ج ١ ص ١٩٨ عن عبد بن حميد.

(٥) الدر المنثور ج ١ ص ١٩٨ عن ابن أبي شيبة وأبي داود، والترمذي، والنسائي.

الفصل التاسع :

ضربة علي يوم الخندق:
تعدل عبادة الثقلين

عبور الخندق:

يقول المؤرخون: إنه بعد أن جرح سعد بن معاذ أجمع رؤساء المشركين أن يغدو جميعاً، وجاؤا يريدون مضيقاً يقحمون منه خيلهم الى النبي، فوجدوا مكاناً ضيقاً أغفله المسلمون، فلم تدخله خيولهم؛ فعبره عكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله المخزومي، وضرار بن الخطاب الفهري، وهبيرة بن أبي وهب وعمرو بن عبد ود. وزاد المفيد رحمه الله: مرداساً الفهري. وزاد البعض: حسل بن عمرو بن عبد ود في من عبر الخندق أيضاً.

ووقف سائر المشركين وراء الخندق[1].

---

(١) راجع: المصادر التالية: امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٢ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٢و٥٣٣. والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٥ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٧٣ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٠ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٢٨٦ والارشاد للمفيد ص ٥٢ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٨ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ١٩٧و١٩٨و٢٠٣ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨١ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٩ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٢ و٢٥٣ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦١ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٥ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٣ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٣٦و٤٣٧ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٦ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٢ وجوامع السيرة النبوية ص ١٥٠ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٣٠٢ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٨و٢٣٩ وراجع: الوفاء ص ٦٩٣ وراجع العبر وديوان

ويقول القاضي النعمان: إن النبي (ص) أمر علياً بأن يمضي بمن خف معه ليأخذ الثغرة عليهم، وقال: «فمن قاتلكم عليها فاقتلوه»[١].

فخرج علي أمير المؤمنين عليه السلام في نفر من المسلمين، حتى أخذ الثغرة وسلمها اليهم.

وتقدم عمرو، فلما رأى المسلمين، وقف هو والخيل التي معه، وقال:

هل من مبارز[٢].

وكان ذلك كما يقول القاضي النعمان بعد شهر من الحصار[٣] وقال غيره غير ذلك، كما ذكرناه في موضع آخر.

وصفهم لعمرو:

قالوا: وكان عمرو قد بلغ تسعين سنة. وقد حرم الدهن حتى

المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٠.

(١) شرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٤.

(٢) راجع المصادر التالية: مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٨ والارشاد للمفيد ص ٥٢ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٧و٢٠٣ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨١ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٣٩ واعلام الورى ط دار المعرفة ص ١٠٠ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٠٢و٢٥٣ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٧ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦١ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٥ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٣ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٣٧ والبدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٨ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٦ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٢ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٩.

(٣) شرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٣.

يثأر بمحمد وأصحابه. وذلك أنه في بدر قد اثبتته الجراحة، وارتث فلم يشهد أُحداً[١].

ونعتقد: أنهم يبالغون في مقدار عمر عمرو، ولعله بهدف بيان أنه كان في هذا الوقت قد ضعف وشاخ ولم يعد قتله بذلك الأمر المهم. ولكن جبن المسلمين عن مواجهته ـ كما سنرى ـ وهم جيش بأكمله، وكذلك ما قاله النبي (ص) في حق قاتله، وغير ذلك مما سيأتي، يبطل كيد الخائنين، إن شاء الله تعالى.

وقالوا أيضاً:

كان عمرو بن عبد ود فارس قريش[٢]. وكان يعد بألف فارس[٣]، ويسمى فارس يليل[٤]؛ لأنه أقبل في ركب من قريش حتى

---

(١) راجع المصادر التالية، فقد تعرضت لذلك كله أو بعضه: إمتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢١٨ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٣ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨١ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٠ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٦ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦١ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٣٧ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٦ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٢و٦٣ وج ١٥ ص ٨٥و٨٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٢ و٢٠٣ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٩ والوفاء ص ٦٩٣ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٠.

(٢) مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٢ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٣٧.

(٣) مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٦ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦١ وينابيع المودة ص ٩٥.

(٤) مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٣ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٣و٢٢٦ وج ٤١ ص ٨٨

اذا هو بيليل، وهو واد قريب من بدر عرضت لهم بنو بكر في عدد؛ فقال لأصحابه: امضوا. فقام في وجوه بني بكر حتى منعهم من أن يصلوا اليه، فعرف بذلك[١].

وكان «من مشاهير الأبطال، وشجعان العرب»[٢].

وعن علي عليه السلام: «وفارسها (أي قريش) وفارس العرب يومئذٍ عمرو بن عبد ود يهدر كالبعير المغتلم... الى أن قال: والعرب لا تعدّ لها فارساً غيره»[٣].

وسيأتي: أن مسافع بن عبد مناف يبكي عمرواً، ويقول:

عمرو بن عبد كان أول فارس ... جزع المذاد، وكان فارس يليل

وقال أبو زهرة: «كان ـ كما قيل ـ لهم يهزم في مبارزة قط»[٤].

«وكان أشد من فيهم وأنجدهم، يعرف له ذلك جميعهم»[٥].

وكان عمرو يلقب بعماد العرب، وكان في مئة ناصية من الملوك، وألف مقرعة من الصعاليك[٦].

وتفسير القمي ج ٢ ص ١٨٣ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٥.

(١) مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٢ وج ٤١ ص ٨٨ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٥.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٦.

(٣) الخصال ج ٢ ص ٣٦٨ والبحار ج ٢٠ ص ٢٤٤ والاختصاص ص ١٦٧ وشرح الأخبار ج ١ ص ٢٨٧.

(٤) خاتم النبيين ج ٢ ص ٩٣٨.

(٥) شرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٣.

(٦) مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٤ والبحار ج ٤١ ص ٨٨ عنه.

المواجهة بين عمرو والمسلمين

وذكر القمي (ره): أنه لما جاء الفرسان الى الخندق ليعبروه كان (ص) قد صف أصحابه بين يديه، فلما طفروا الخندق. صاروا قبال رسول الله (ص) سباشرة، والمسلمون خلف ظهر النبي (ص).

رواية مشكوكة:

وادعى بعضهم: أن بعض المهاجرين قال لرجل من اخوانه بجنبه: أما ترى هذا الشيطان عمرو؟! لا والله لا يفلت من يديه أحد؛ فهلموا ندفع إليه محمداً ليقتله، ونلحق نحن بقومنا، فأنزل الله على نبيه في ذلك الوقت قوله:

قد يعلم الله المعوقين منكم، والقائلين لإخوانهم هلم الينا، ولا يأتون الباس إلا قليلاً، أشحة على الخير... الى قوله: وكان ذلك على الله يسيراً[1].

وصرح في موضع آخر: أن هذه الآية نزلت في عمر بن الخطاب لما قال لعبد الرحمان بن عوف: هلم ندفع محمداً الى قريش ونلحق بقومنا: يحسبون الأحزاب لم يذهبوا إلخ...[2].

ونقول:

إن هذه الرواية موضع شك وريب.

أولاً: إن مضمون الآيات لا ينسجم مع هذا الحدث الذي تقول

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٢و١٨٣ والبحار ج ٢٠ ص ٢٢٥.
(٢) تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٨ والبحار ج ٢٠ ص ٢٣٢.

الرواية: إن الآية نزلت لأجله، ولا يتطابق معه، بل هي لا تشير اليه لا من قريب ولا من بعيد.

وثانياً: ما معنى قوله: هلموا ندفع اليه محمداً ليقتله ونلحق نحن بقومنا؟ فهل إن محمداً، الذي معه سائر المهاجرين والأنصار أصبح الآن خاضعاً لابن عوف ولرفيقه، وأصبحا هما أصحاب القرار في أمره؟!

وثالثاً: ولو أنهما جهرا بهذا القول، ألم يكونا يخافان بأس علي وصولته، فضلاً عن غيره من أصحابه المخلصين؟!

أخذ الثغرة على عمرو وأصحابه

وقد لاحظنا: أن علياً عليه السلام قد بادر الى أخذ الثغرة التي عبر منها الفرسان، عليهم، حتى لا يمكنهم الرجوع منها، وليمنع بقية قوى الأحزاب من عبورها لمساعدة عمرو ومن معه.

وهذه المبادرة تعتبر من وجهة نظر عسكرية هي الاجراء الأمثل والأفضل لأنها أيضاً قد أدت الى محاصرة المجازفين، والسيطرة على الموقف، وافشال خطتهم.

ولكن علينا: أن لا نهمل التذكير بأن هؤلاء الذين جاؤا مع علي عليه السلام، وأخذوا الثغرة على عمرو ومن معه، ما كانوا ليجرؤا على الوقوف في مواقعهم لولا وجود علي الى جانبهم، ثم اطمئنانهم الى أنه سيكون هو الذي ينجدهم لو تعرضوا لأي مكروه من قبل عدوهم عمرو وأصحابه.

فإنما الى علي عليه السلام استندوا، وعلى مبادرته لحمايتهم،

والدفاع عنهم اعتمدوا، يدلنا على ذلك: أن المسلمين كانوا كأن على رؤسهم الطير خوفاً وفرقاً من عمرو كما سنرى.

طلب البراز، وخروج علي لعمرو:

لما وقف عمرو وأصحابه على الخندق قالوا: والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها، فقال عمرو:

يــا لــك مــن مكيــدة مــا أنكــرك ‏ ‏ ‏ ‏ لا بــد للملهــوب مــن أن يعبــرك

ثم زعق على فرسه في مضيق، فقفز به الى السبخة، بين الخندق وسلع[1].

وجعلوا يجيلون خيلهم فيما بين الخندق وسلع، والمسلمون وقوف لا يقدم أحد منهم عليهم.

وجعل عمرو بن عبد ود يدعو للبراز وكان قد أعْلَم ليُرى مكانُه ـ ويعرِّض بالمسلمين، فقال (ص) على ما في الروايات: من لهذا الكلب؟ فلم يقم اليه أحد. فلما أكثر قام علي عليه السلام، فقال: أنا أبارزه يا رسول الله، فأمره بالجلوس، انتظاراً منه ليتحرك غيره.

وأعاد عمرو النداء والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، لمكان عمرو، والخوف منه، وممن معه، ومن وراءه.

فقال عمرو: أيها الناس، إنكم تزعمون: أن قتلاكم في الجنة، وقتلانا في النار؟ أفما يحب أحدكم أن يقدم على الجنة، أو يقدم عدواً له الى النار؟.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٨.

فلم يقم إليه أحد. فقام علي عليه السلام دفعة ثانية، وقال: أنا له يا رسول الله، فأمره بالجلوس.

فجال عمرو بفرسه مقبلاً مدبراً. وجاءت عظماء الأحزاب، ووقفت من وراء الخندق، ومدت أعناقها تنظر، فلما رأى عمرو: أن أحداً لا يجيبه قال:

ولقد بححت من النداء ... بجمعهم هل من مبارز
ووقفت مذ جبن المشجع ... موقف القرن المناجز
إني كذلك لم أزل ... متسرعاً قبل الهزاهز
إن الشجاعة في الفتى ... والجود من خير الغرائز

فقام علي عليه السلام، فقال: يا رسول الله ائذن لي في مبارزته. فلما طال نداء عمرو بالبراز، وتتابع قيام أمير المؤمنين عليه السلام، قال له رسول الله: ادن مني يا علي فدنا منه، فقلده سيفه(ذا الفقار)، ونزع عمامته من رأسه، وعممه بها، وقال: إمض لشأنك.

فلما انصرف قال: اللهم أعنه عليه[1].

ولكن ابن شهر آشوب قال: إن عمرواً جعل يقول: هل من مبارز؟! والمسلمون يتجاوزون عنه.

---

(١) راجع المصادر التالية: شرح النهج للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٣و٦٤ والإرشاد للمفيد ص ٥٩و٦٠ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦١ وإعلام الورى ص ١٩٤و١٩٥ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٠و٤٧١ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦١ وراجع: مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٥ والبحار ج ٤١ ص ٨٨و٨٩ وج ٢٠ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨و٢٠٣و٢٠٥و٢٥٤ ـ ٢٥٦ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٨١ ـ ١٨٥ وكشف الغمة ج ١ ص ٢٠٤ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٦و٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٩.

فركز رمحه على خيمة النبي (ص)، وقال؛ ابرز يا محمد.

فقال (ص): من يقوم الى مبارزته فله الإمامة بعدي.

فنكل الناس عنه.

الى أن قال: روي أنه لما قتل عمرو أنشد علي (ع):

ضربته بالسيف فوق الهامة ... بضربة صارمة هدامة
أنا علي صاحب الصمصامة ... وصاحب الحوض لدى القيامة
أخو رسول الله ذي العلامة ... وقال إذ عممني عمامة
أنت الذي بعدي له الامامة[1]

وعند الحسكاني عن حذيفة قال: فألبسه رسول الله (ص) درعه ذات الفضول. وأعطاه سيفه ذا الفقار. وعممه بعمامته السحاب على رأسه تسعة اكوار، ثم قال: تقدم.

فقال النبي لما ولّى: اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوق رأسه، ومن تحت قدميه[2].

ويضيف البعض: أنه رفع عمامته، ورفع يديه الى السماء بمحضر من أصحابه، وقال: اللهم إنك أخذت مني عبيدة بن الحرث يوم بدر، وحمزة بن عبد المطلب يوم أحد، وهذا أخي علي بن أبي طالب. رب لا تذرني فرداً، وأنت خير الوارثين[3].

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٥ والبحار ج ٤١ ص ٨٨.
(٢) مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٣ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٠٣ وج ٤١ ص ٨٨. وشواهد التنزيل طـ سنة ١٤١١ هـ.ق. ج ٢ ص ١١ وينابيع المودة ص ٩٥ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٥.
(٣) راجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١٩ ص ٦١ وج ١٣ ص ٢٨٣ / ٢٨٤

وتصور لنا رواية عن علي عليه السلام الحالة حين عبور الفرسان الخندق فهو يقول: «وفارسها وفارس العرب يومئذٍ عمرو بن عبد ود، يهدر كالبعير المغتلم، يدعو الى البراز، ويرتجز، ويخطر برمحه مرة، وبسيفه مرة، لا يقدم عليه مقدم، ولا يطمع فيه طامع، فانهضني إليه رسول الله (ص)، وعممني بيده، وأعطاني سيفه هذا، ـ وضرب بيده الى ذي الفقار ـ فخرجت إليه نساء أهل المدينة بواك اشفاقاً علي من ابن عبد ودّ، فقتله الله عز وجل بيدي، والعرب لا تعدّ لها فارساً غيره[1]».

ونحن نشك في الفقرة التي تذكر خروج نساء المدينة بواكي إلى رسول الله (ص).

ويذكر البعض: أنه (ص) «أدناه، وقبله، وعممه بعمامته، وخرج معه خطوات كالمودع له، القلق لحاله، المنتظر لما يكون منه. ثم لم يزل (ص) رافعاً يديه الى السماء، مستقبلاً لها بوجهه، والمسلمون صموت حوله ـ كان على رؤوسهم الطير الخ»[2].

برز الإسلام كله إلى الشرك كله:

وقال (ص) حينئذٍ: برز الإسلام أو الايمان كله، إلى

وكنز الفوائد للكراجكي طـ دار الأضواء ج ١ ص ٢٩٧. وراجع: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٦ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٧، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٩ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢١٥ وكنز العمال ج ١٢ ص ٢١٩ وج ١٠ ص ٢٩٠ ومناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ٢٢١.

(١) الخصال ج ٢ ص ٣٦٨ والبحار ج ٢٠ ص ٢٤٤ وشرح الأخبار ج ١ ص ٢٨٧و٢٨٨ والاختصاص ص ١٦٦.

(٢) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٨٥.

الشرك كله[١].

فخرج له علي وهو راجل، وعمر فارساً، فسخر به عمرو. ودنا منه علي[٢] ومعه جابر بن عبد الله الأنصاري رحمه الله، لينظر ما يكون منه ومن عمرو[٣].

وصرحت بعض الروايات بأن النبي (ص) قد قال لأصحابه: أيكم يبرز الى عمرو وأضمن له على الله الجنة؟ فلم يجبه منهم أحد هيبة لعمرو، واستعظاماً لأمره. فقام علي ثلاث مرات والنبي يأمره بالجلوس[٤].

وحسب نص ابن اسحاق، وغيره من المؤرخين:

خرج عمرو بن عبد ودّ، وهو مقنع بالحديد؛ فنادى: من يبارز؟! . . .

فقام علي بن أبي طالب، فقال: أنا (له) يا نبي الله.

فقال: إنه عمرو، إجلس.

ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز؟ فجعل يؤنبهم، ويقول: أين

---

(١) راجع: كشف الغمة ج ١ ص ٢٠٥ وينابيع المودة ص ٩٤و٩٥ واعلام الورى ص ١٩٤ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٦ وشرح نهج البلاغة ج ١٣ ص ٢٦١و٢٨٥وج ١٩ ص ٦١ والطرائف ص ٦٠ وكنز الفوائد للكراجكي ص ١٣٧ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٣ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٥و٢٧٣وج ٤١ ص ٨٨ وج ٣٩ ص ١ ونهج الحق ص ٢١٧.

(٢) امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٢.

(٣) راجع الارشاد للمفيد ص ٥٩و٦٠ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦١ وكشف الغمة ج ١ ص ٢٠٤ واعلام الورى ص ١٩٤.

(٤) كنز الفوائد للكراجكي ص ١٣٧.

جنتكم التي تزعمون انه من قتل منكم دخلها؟ أفلا تبرزون اليّ رجلاً؟!.

فقام علي فقال: أنا يا رسول الله.

فقال: اجلس.

ثم نادى الثالثة؛ فقال:

ولقـــد بححـــت مـــن النـــداء ... لجمعهـــم هـــل مـــن مبـــارز
ووقفـــت إذ جبـــن المشجّـــع ... مـــوقـــف القـــرن المنـــاجـــز
ولـــــذاك انـــــي لـــــم أزل ... متســـرعـــاً قبـــل الهـــزاهـــز
إن الشجـــاعـــة فـــي الفتـــى ... والجـــود مـــن خيـــر الغـــرائـــز

قال: فقام علي رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، أنا له.

فقال: إنه عمرو.

فقال: وإن كان عمرواً.

فأذن له رسول الله (ص)، فمشى إليه حتى أتاه وهو يقول:

لا تعجلـــن فقـــد أتـــاك ... مجيـــب صـــوتـــك غيـــر عـــاجـــز
ذو نيـــــة وبصيـــــرة ... والصـــدق منجـــا كـــل فـــائـــز
إنـــي لأرجـــو أن أقيـــم ... عليـــك نـــائحـــة الجنـــائـــز
مـــن ضـــربـــة نجـــلاء يبقـــى ... ذكـــرهـــا عنـــد الهـــزاهـــز

وفي الديوان المنسوب لعلي عليه السلام بيتان آخران هما:

ولقـــد دعـــوت الـــى البـــراز ... فتـــى يجيـــب الـــى المبـــارز
يعليـــك ابيـــض صـــارمـــاً ... كـــالملـــح حتفـــاً للمبـــارز

فقال له عمرو: من أنت؟.

قال: أنا علي.

قال: ابن عبد مناف؟.

قال: انا علي بن أبي طالب.

فقال: يا ابن أخي، من أعمامك من هو أسنّ منك؛ فإني اكره أن أهريق دمك.

فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك.

فغضب، فنزل، وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضباً، واستقبله علي بدرقته، فضربه عمرو في درقته، فقدها، وأثبت فيها السيف، وأصاب رأسه فشجّه.

وضربه علي على حبل عاتقه فسقط، وثار العجاج، فسمع رسول الله التكبير، فعرفنا أن علياً قد قتله؛ فثم يقول علي:

أعلـي تقتحـم الفـوارس هكـذا ... عنـي وعنهـم أخـروا أصحـابـي

الأبيات:

الى أن قال: وخرجت خيولهم منهزمة، حتى اقتحمت الخندق[1].

---

(١) راجع المصادر التالية: البداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٦ عن البيهقي في دلائل النبوة، عن ابن اسحاق.
وراجع: السيرة النبوية لإبن كثير ج ٣ ص ٢٠٤ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٣ والبحار ج ٢٥ ص ٢٠٣و٢٠٤و٢٣٩وج ٤١ ص ٨٩ وراجع: مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٥و١٣٦.
وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٦ / ٤٨٧ وعيون الأثر ج ١ ص ٦١و٦٢ والروض الأنف ج ٣ ص ٢٧ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٣٨ / ٤٣٩

الخصال الثلاث وقتل عمرو:

وقد ذكرت بعض النصوص: أن علياً لما بارز عمرواً عرض على عمرو خصلتين، وهما: الاسلام، فرفضه، أو النزال، فاعتذر بالخلّة بينه وبين أبي طالب، أو بغير ذلك[1].

لكن بعض الروايات ذكرت: أنه عرض عليه ثلاث خصال.

فهي تقول:

قال علي لعمرو: يا عمرو، إنك كنت تقول في الجاهلية: لا

وراجع أيضاً: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٦و٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٩و٣٢٠ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٦١ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٧و١٦٨ وراجع: ديوان أمير المؤمنين علي عليه السلام ص ٦٧ ومستدرك الحاكم ج٣ ص٣٢ و٣٣والمناقب للخوارزمي ص١٠٤ وراجع: ينابيع المودة ص ٩٥و٩٦ وراجع أيضاً كنز الفوائد للكراجكي ص ١٣٧.

(١) راجع عرض الخصلتين على عمرو، ثم قتل علي عليه السلام له في المصادر التالية:
الارشاد للمفيد ص ٥٨، وكشف الغمة للاربلي ج ١ ص ٢٠٣و١٩٨و١٩٩ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨١ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٤٠. وراجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٥ والبحار ج ٢٠ ص ٢٥٣و٢٥٤ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٦و٧ وبهجة المحافل وشرحه ج ١ ص ٢٦٦و٢٦٧ ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٧٣و١٧٤ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٨ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٦و١٦٧ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦١ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٦ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٣و١٩٤ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٣٦و٤٣٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٩ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣٢ وشرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٥.

يدعوني أحد الى واحدة من ثلاث إلا قبلتها.

قال: أجل.

قال علي: فإني أدعوك الى أن تشهد ان لا إله الا الله، وأن محمداً رسول الله، وتسلم لرب العالمين.

قال: يا ابن أخي، أخر عني هذه.

قال: وأخرى، ترجع الى بلادك؛ فإن يك محمد صادقاً كنت اسعد الناس به، وإن يك كاذباً كان الذي تريد. وفي نص آخر: كفتهم ذؤبان العرب أمره.

قال: هذا ما لا تحدث به نساء قريش أبداً، وقد نذرت ما نذرت، وحرمت الدهن[1]. قال: فالثالثة؟.

قال: البراز.

فضحك عمرو، وقال: إن هذه لخصلة ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومني عليها، فمن أنت؟!.

قال: أنا علي بن أبي طالب.

قال: يا ابن أخي، من أعمامك من هو أسن منك، فإني اكره أن أهريق دمك.

فقال علي رضي الله عنه: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك.

فغضب عمرو، فنزل عن فرسه وعقرها، وسل سيفه كأنه شعلة

---

(١) زاد في نص القمي: ولا تنشد الشعراء في اشعارها انه جبن ورجع، وخذل قوماً رأسوه عليهم. وعند المعتزلي: إذن تتحدث نساء قريش عني: أن غلاماً خدعني.

نار، ثم أقبل نحو علي مغضباً، واستقبله علي بدرقته.

ودنا أحدهما من الآخر وثارت بينهما غبرة، فضربه عمرو. فاتقى علي الضربة بالدرقة، فقدها، وأثبت فيها السيف، وأصاب رأسه، فشجه. الخ.

أما المفيد وغيره فقالوا: إن عمرواً قال لعلي: إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك، وقد كان أبوك لي نديماً.

وعند الواقدي: «فأنت غلام حدث إنما أردت شيخي قريش: أبا بكر وعمر.

فقال علي (ع): لكني أحب أن أقتلك، فأنزل إن شئت، فأسف عمرو، ونزل، وضرب وجه فرسه حتى رجع» انتهى.

وعند آخرين: انه عرقب فرسه، وضرب علياً بالسيف، فاتقاه بدرقته، فقطعها، وثبت السيف على رأسه.

وقال القمي وغيره: فقال له عليه السلام: أما كفاك أني بارزتك، وأنت فارس العرب، حتى استعنت علي بطهر؟!.

فالتفت عمرو الى خلفه، فضربه على ساقيه؛ فقطعهما جميعاً.

وعبارة حذيفة هكذا: «وتسيف علي رجليه بالسيف من اسفل فوقع على قفاه»(١).

وتستمر رواية القمي فتقول: وارتفعت بينهما عجاجة، فقال المنافقون: قتل علي بن أبي طالب، ثم انكشفت العجاجة، فنظروا،

---

(١) راجع عبارة حذيفة في مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٣ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٤ و ج ٤١ ص ٩٠ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٦ و١٣٧.

فإذا أمير المؤمنين عليه السلام على صدره آخذ بلحيته، يريد أن يذبحه.

فذبحه، ثم أخذ رأسه، وأقبل الى رسول الله (ص)، والدماء تسيل على رأسه من ضربة عمرو، وسيفه يقطر منه الدم، وهو يقول والرأس بيده:

أنا علي وأنا ابن المطلب   الموت خير للفتى من الهرب

فقال له (ص): يا علي، ماكرته؟!.

قال: نعم يا رسول الله، الحرب خدعة.

وينقل المفيد عن جابر، ونقله غيره من دون تصريح باسم الراوي قوله: فثارت بينهما قترة، فما رأيتهما. فسمعت التكبير تحتها، فعلمت أن علياً عليه السلام قد قتله.

فانكشف أصحابه، حتى طفرت خيولهم الخندق.

وتبادر أصحاب النبي (ص) حين سمعوا التكبير ينظرون ما صنع القوم، فوجدوا نوفل بن عبد الله الخ[1].

---

(١) راجع فيما تقدم بتفصيل أو اجمال المصادر التالية:
سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٤ والارشاد للمفيد ص ٥٩و٦٠ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٤و٢٠٣ واعلام الورى ص ١٩٤و١٩٥ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٨١ ـ ١٨٥، والبحار ج ٢٠ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨و٢٠٣ فما بعدها و٢٥٤ ـ ٢٥٦ وج ٤١ ص ٩٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٦و٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٩، والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٠و٤٧١ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٣و٦٤ وراجع: بهجة المحافل وشرحه ج ١ ص ٢٦٦و٢٦٧ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦١ وراجع: تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦٢ والمختصر في اخبار البشر ج ١ ص ١٣٥ وراجع

وعند المعتزلي: ثارت الغبرة، وسمعوا التكبير من تحتها، فعلموا أن علياً قتل عمرواً فكبر رسول الله (ص)، وكبر المسلمون تكبيرة سمعها من وراء الخندق من عساكر المشركين[١].

وروي: أن عمرواً جرح رأس علي عليه السلام، فجاء الى رسول الله، فشده، ونفث فيه فبرىء وقال: أين اكون إذا خضب هذه من هذه[٢].

وفي القاموس وغيره: كان علي ذا شجتين في قرني رأسه، احداهما من عمرو بن ود. والثانية من ابن ملجم. ولذا يقال له: ذو القرنين[٣].

وعنه عليه السلام أنه قال عن عمرو: «وضربني هذه الضربة. وأومأ بيده الى هامته[٤]».

المصادر التالية: شواهد التنزيل ج ٢ ص ١١ سنة ١٤١١ هـ. ق وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٣ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٧ والبدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٨ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٦ وراجع: شرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٥و٢٩٦ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٩٠ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٩.

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي الشافعي ج ١٣ ص ٢٨٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ٢٢٠.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٧ وتاج العروس ج ٩ ص٣٠٧ والنهاية لابن الأثير ج ٤ ص ٥٢و٥١ والقاموس المحيط ج ٤ ص ٢٥٨ ولسان العرب ج ١٣ ص ٣٣٢و٣٣٣ وراجع مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٢٣ لتجد حديث: انك لذو قرنيها. وكذا نوادر الأصول ص ٣٠٧.

(٤) الخصال ج ٢ ص ٢٦٨و٢٦٩ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٤٤.

نص الحسكاني:

وقد ذكر لنا الحاكم الحسكاني بعض التفصيلات الهامة هنا، فقال:

«ثم ضرب وجه فرسه فأدبرت، ثم أقبل الى علي، وكان رجلاً طويلاً، يداوي دبرة البعير وهو قائم.

وكان علي في تراب دقّ، لا يثبت قدماه عليه. فجعل علي ينكص الى ورائه يطلب جلداً من الأرض يثبت قدمه، ويعلوه عمرو بالسيف. وكان في درع عمرو قصر؛ فلما تشاك بالضربة، تلقاها علي بالترس، فلحق ذباب السيف في رأس علي، حتى قطعت تسعة اكوار، حتى خط السيف في رأس علي.

وتسيف علي رجليه بالسيف من أسفل، فوقع على قفاه.

وثارت بينهما عجاجة، فسمع علي يكبر. فقال رسول الله (ص): قتله والذي نفسي بيده.

فكان أول من ابتدر العجاج عمر بن الخطاب، فإذا علي يمسح سيفه بدرع عمرو.

فكبر عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، قتله.

فحزّ علي رأسه، ثم أقبل يخطر في مشيته، فقال له رسول الله؛ يا علي، إن هذه مشية يكرهها الله عز وجل إلا في هذا الموضع الخ[1].

---

(١) شواهد التنزيل ج ٢ ص ١١و١٢ ط سنة ١٤١١ هـ. ق. ومجمع البيان

وفي نص آخر عند الحسكاني عن علي عليه السلام أنه لما برز لعمرو دعا بدعاء علمه إياه رسول الله (ص): اللهم بك أصول، وبك أجول، وبك أدرؤ في نحره[١] لكن البعض يقول: «أتى برأسه وهو يتبختر في مشيته؛ فقال عمر: ألا ترى يا رسول الله الى علي كيف يتيه في مشيته؟! فقال (ص): انها مشية لا يمقتها الله في هذا المقام[٢].

نصوص أخرى:

وذكر نص آخر: أنه احتز رأسه، وحمله، وألقاه بين يدي النبي (ص)، فقام أبو بكر وعمر فقبلا رأس علي، ووجه رسول الله (ص) يتهلل؛ فقال: هذا النصر، أو قال: هذا أول النصر[٣]. وقال له أبو بكر: المهاجرون والأنصار رهين شكرك ما بقوا[٤].

وقالوا: إن علياً عليه السلام ضرب عمرواً على حبل العاتق، فسقط وثار العجاج.

وقيل: طعنه في ترقوته حتى اخرجها من مراقه، فسقط وسمع رسول الله (ص) التكبير، فعرف أن علياً قتله[٥]. وحكى البيهقي عن

ج ٨ ص ٢٤٣ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٠٤ عنه.

(١) شواهد التنزيل ج ٢ ص ١٣ ط سنة ١٤١١ هـ. ق..

(٢) كنز الفوائد للكراجكي من ١٣٧.

(٣) راجع: شرح النهج للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٢ والارشاد للمفيد ص ٦١ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٥ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٤ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٦ وج ٤١ ص ٩١ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٢.

(٤) مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٨.

(٥) راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ من ٥٣٣و٥٣٤ والبداية والنهاية ج ٤

ابن اسحاق: أن علياً طعنه في ترقوته(١).

وقالوا أيضاً: أنه حين قتل علي عمرواً ومن معه «انصرف الى مقامه الأول، وقد كادت نفوس القوم الذين خرجوا معه الى الخندق تطير جزعاً»(٢).

وقال علي عليه السلام في هذه المناسبة أبياتاً نذكرها، ونضم ما ذكروه بعضه الى بعض، وهي:

أعلي تقتحم الفوارس هكذا ... عني وعنهم أخروا أصحابي
اليوم تمنعني الفرار حفيظتي ... ومصمم في الرأس ليس بناب
آلى ابن ود حين شد ألية ... وحلفت فاستمعوا الى الكذاب
أن لا أصد ولا يولي والتقى ... رجلان يضطربان كل ضراب
عرف ابن عبد حين ابصر صارماً ... يهتز أن الأمر غير لعاب
أرديت عمرواً إذ طغى بمهند ... صافي الحديد مجرب قضاب
نصر الحجارة من سفاهة رأيه ... ونصرت رب محمد بصواب
فصدرت حين تركته متجدلاً ... كالجذع بين دكادك وروابي
وعففت عن أثوابه ولو أنني ... كنت المقطّر بزني أثوابي
لا تحسبنّ الله خاذل دينه ... ونبيه يا معشر الأحزاب(٣)

ص ١٠٦و١٠٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٥ وخاتم النبيين ج ٢ ص ٩٣٧.

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٧ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧.

(٢) راجع: الارشاد للمفيد ص ٦٠ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٥٤.

(٣) هذه الأبيات توجد موزعة ومجتمعة في مصادر كثيرة. لكن رواية السهيلي لها تختلف جزئياً عما ذكرناه هنا.

ومهما يكن من أمر؛ فإن ما ذكرناه مذكور كله، أو بعضه في المصادر التالية وغيرها:

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعلي رضي الله تعالى عنه(١).

وستأتي لنا وقفة مع ابن هشام فيما يرتبط بكلامه هذا، وما أشبهه مما سيأتي.

وخرجت خيولهم منهزمة حتى اقتحمت الخندق.

قال ابن هشام وغيره: والقى عكرمة بن أبي جهل رمحه يومئذٍ، وهو منهزم عن عمرو؛ فقال حسان بن ثابت في ذلك:

فــرّ والقـى لنـا رمحـه   لعلـك عكـرم لـم تفعـل
ووليـت تعـدو كعـدو الظليـم   مـا إن تجـور عـن المعـدل

سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٤ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٦ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ١٩٩ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣٣ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٥ والارشاد للمفيد ص ٥٩ و٦١ واعلام الورى ط دار المعرفة ص ١٠٠و١٠١ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٣ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٩ وراجع: مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٣ / ٣٤٤ والبحار ج ٤١ ص ٩١ عن المناقب وج ٢٠ ص ٢٠٥و٢٠٦ عنه وص ٢٥٤و٢٥٧ عن الارشاد وص ٦٥ عن الديوان المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام ص ٢٣ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦١ والبدء والتاريخ ج ٤ ص ٢١٨ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٢ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٨ / ١٦٩ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٧ / ١٣٨ وشرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٦ وكنز الفوائد للكراجكي ١٣٧و١٣٨.

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٤ والسيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ٢٣٦ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٥ والسيرة النبوية لإبن كثير ج ٣ ص ٢٠٣ عن ابن هشام.

ولـم تلـق ظهـرك مستـأنسـاً   كـأن قفـاك قفـا فـرعـل[١]

وحول مبارزة علي لعمرو، وقتله على يده. راجع المصادر الموجودة في الهامش[٢] وبعضها قد صرح بأن النبي (ص) قد ردّ علياً عليه السلام مرتين، وأجازه في الثالثة[٣].

وذكرت أبيات عمرو في طلب البراز، وجواب علي له بشعر على نفس الوزن والقافية في كثير من المصادر أيضاً[٤].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٤و٥٣٥ وراجع: خاتم النبيين ج ٢ ص ٩٣٨ ونهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٤ والسيرة النبوية لإبن هشام ج ٣ ص ٢٣٧ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٤ وراجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٦ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٦ والسيرة النبوية لإبن كثير ج ٣ ص ٢٠٣و٢٠٥ وشرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٦.

(٢) راجع فيما عدا المصادر التي تقدمت في الهوامش السابقة ما يلي: مرآة الجنان ج ١ ص ١٠ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٨ وراجع: جوامع السيرة النبوية ص ١٥٠ والوفا ج ٢ ص ٦٩٣ وامتاع الاسماع ج ١ ص ٢٣٢ وانساب الاشراف ج ١ ص ٣٤٥ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٣ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠ وراجع: بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٦و٢٦٧ وراجع: اعلام الورى ط دار المعرفة ص ١٠٠ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٠ وتاريخ الاسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٣٩ وتجارب الأمم ج ٢ ص ١٥٣ والأوائل للعسكري ج ٢ ص ٢٢٣ والطرائف ص ٦٠ والبحار ج ٣٩ ص ١ عنه.

(٣) خاتم النبيين ج ٢ ص ٩٣٧ وينابيع المودة ص ٩٤ وشواهد التنزيل ط سنة ١٤١١ هـ. ق. ج ٢ ص ١٠ وينابيع المودة ص ١٣٦.

(٤) راجع عدا المصادر المتقدمة ما يلي: كشف الغمة للإربلي ج ١ ص ١٩٨و١٩٩ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٨٣ والبحار ج ٢٠ ص ٢٢٥و٢٦٦و٢٣٩ عن ديوان أمير المؤمنين ص ٦٧ وشرح نهج البلاغة

يقول أهلكت مالاً لبداً:

وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر في قوله: يقول أهلكت مالا لبداً. قال: هو عمرو بن عبد ود، حين عرض عليه علي بن أبي طالب الاسلام يوم الخندق، وقال: فأين ما أنفقت فيكم مالاً لبداً. وكان قد انفق مالا في الصد عن سبيل الله، فقتله علي(١).

ولم نجد هذه الرواية الا في تفسير القمي، فليلاحظ ذلك ولنا مع ما تقدم وقفات، هي التالية:

لماذا طلب عمرو من علي أن يرجع:

قال المعتزلي الشافعي، حين بلغ في حديثه الموضع الذي يطلب فيه عمرو من علي أن يرجع لأنه لا يحب أن يقتله:

«كان شيخنا أبو الخير مصدق بن شبيب النحوي يقول ـ إذا مررنا في القراءة عليه بهذا الموضع ـ: والله، ما أمره بالرجوع ابقاء عليه، بل خوفاً منه، فقد عرف قتلاه ببدر وأحد، وعلم أنه إن ناهضه قتله. فاستحيا أن يظهر الفشل؛ فأظهر الإبقاء والإرعاء وإنه لكاذب فيهما»(٢).

للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٣ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٣ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٧و١٦٨ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٦ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٨و٣١٩.

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ٤٢٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٤٢.

(٢) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٤ وراجع البحار ج ٢٠ ص ٢٧٤ وسيرة المصطفى ص ٥٠٢.

علي (ع) غلام حدث؟! وشيخا قريش:

وقد تقدم أن رواية الواقدي تقول: «فأنت غلام حدث، إنما أردت شيخي قريش أبا بكر وعمر»[١].

ورواية المعتزلي تقول: «إذن تتحدث نساء قريش عني: أن غلاماً خدعني»[٢].

ونقول:

ألف: أما بالنسبة لصغر سن علي عليه السلام فقد كان عمر علي حينئذٍ سبعةً وعشرين أو ثمانية وعشرين عاماً. كما هو الأصح والأقوى، بل بعض الأقوال تزيد في عمره عدة سنوات أخرى على ذلك. ولا يقال لمن هو بهذا السن: أنه غلام حدث.

ب: بالنسبة لأبي بكر وعمر، فإنهما لم يكونا شيخي قريش آنئذٍ، ولا قبل ذلك أيضاً.

ولم يكونا أيضاً معروفين بالفروسية والشجاعة ليقصدهما عمرو بالبراز، الذي يريد أن يكتسب به مجداً وشهرة عامة. فقتلهما لم يكن ليكسر شوكة المسلمين العسكرية. أما قتل علي فهو المقصود بعد النبي لهم؛ لأنه هو الذي قتل فرسانهم في بدر وأحد.

ومن جهة ثالثة: فقد تقدم أن ضرار بن الخطاب وخالد بن الوليد لم يقتلا عمر في أحد وفي الخندق، رغم تمكنهما من ذلك.

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧١.

(٢) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٤.

بل كان الموقف منه ترشح منه روائح المودة والمحبة، والإهتمام بنجاته.

وهل خلص أسرى المشركين في بدر غير أبي بكر حسبما تقدم بيانه؟.

جرح علي (ع):

وهل جرح علي حقاً بسيف عمرو؟! وكان ذا شجتين؟! أم أن المقصود هو أظهار شجاعة عمرو وفروسيته في مقابل علي عليه السلام؟!.

إن البلاذري يقول: ويقال: إن علياً لم يجرح قط[(١)].

الكبرياء والغطرسة:

ذكر الحاكم الحسكاني: أن علياً عليه السلام حينما برز لعمرو وكان عمرو طويلاً.

«جاء حتى وقف على عمرو، فقال: من أنت؟!.

فقال عمرو: ما ظننت أني أقف موقفاً أجهل فيه، أنا عمرو بن عبد ودّ، فمن أنت؟.

قال: أنا علي بن أبي طالب، فقال: الغلام الذي كنت أراك في حجر أبي طالب؟.

قال: نعم.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٤ وانساب الأشراف ج ١ ص ٣٤٥.

قال: إن أباك كان لي صديقاً، وأنا أكره أن اقتلك.

فقال له علي: لكني لا أكره أن أقتلك.

ثم ذكر تخييره بين الخصال الثلاث، فرفضها، فقال له علي: فأنت فارس وأنا راجل.

فنزل عن فرسه وقال: ما لقيت من أحد ما لقيت من هذا الغلام[1].

فعلي إذن يريد إذلال عمرو، وتحطيم كبريائه. وقد تحقق له ما أراد، حتى شكا ذلك عمرو نفسه كما ترى.

إنه عمرو:

قد اعتبر الاسكافي: أن النبي صلى الله عليه وآله قد ضن بعلي عليه السلام عن مبارزة عمرو، حين دعا عمرو الناس إلى نفسه مراراً، وفي كلها يحجمون، ويقدم علي، فيسأل الاذن له في البراز، حتى قال له رسول الله: إنه عمرو.

فقال: وأنا علي[2].

ونقول:

إننا لا نعتقد: أن هذا الكلام دقيق، فإن النبي (ص) كان يعلم قدرات علي عليه الصلاة والسلام، ومدى ما عنده من استعداد للتضحية والاقدام في سبيل الله سبحانه، ومواقفه في بدر، وصده

(١) شواهد التنزيل ط سنة ١٤١١ هـ. ق. ج ٢ ص ١١.
(٢) شرح نهج البلاغة للمعتزلي الشافعي ج ١٣ ص ٢٨٣ و ٢٨٤.

للكتائب في أحد، حتى نادى الملك بين السماء و الأرض:

لا فتـــــى إلا علـــــي لا سيـــف إلا ذو الفقـــار

وقد كانت هذه المواقف معروفة لدى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من أي شيء شخص آخر. وهو الذي ربى علياً عليه السلام، وعلمه وهذبه، ودربه. والصحيح هو ما ذكره بعض المؤرخين حسبما تقدم وهو أنه أراد أن يفسح المجال أمام الآخرين؛ فكان يأمره بالجلوس، انتظاراً منه ليتحرك غيره. وليعلم بذلك فضله، ويظهر زيف دعوى من سوف يحاول الدس والتشويه، واطلاق الدعاوى الفارغة، لأهداف سياسية، وغيرها.

إذن، فنستطيع أن نلخص الأسباب في ضمن النقاط التالية: .

١ ـ لكي يظهر للجميع: أن غير علي عليه السلام قد أحجم عن مبارزة عمرو خوفاً وجبناً. ولولا أنه (ص) أمره بالجلوس ثلاث مرات لكان من الممكن للبعض أن يدعي: أن كل واحد من المسلمين كان قادراً على مبارزة عمرو وقتله، لكن علياً سبقهم إلى الاستئذان لمبارزته، رغبة منه في الثواب، وحرصاً على الأجر. وهو أمر يشكر عليه.

٢ ـ إنه (ص) كان يريد أن يظهر للناس جميعاً: أن عليهم النظر إلى بواطن الأمور، فلا تغرهم الدعاوى العريضة والشعارات الرنانة والانتفاخات الكاذبة في حالات الأمن والرخاء. ولا يجوز أن يخططوا ويقرروا ويتخذوا المواقف استناداً إلى ذلك بل لا بد من اختبار القدرات والطاقات في الحالات الصعبة، واللحظات المصيرية..

٣ ـ وكان لا بد من التنويه بجهاد علي عليه السلام، وتعريف

الناس بمن يضحي ويبذل نفسه في سبيل الله سبحانه، وبمن يستثمر تضحيات الآخرين ويسرق جهدهم وجهادهم. لمصلحة نفسه أو من يمت إليه بصلة أو رابطة.. ويتضح ذلك من قوله (ص) لعلي: إنه عمرو[1].

وبذلك يتضح: أن عدم الإذن لعلي عليه السلام بمارزة عمرو في بادىء الأمر، لم يكن رغبة بعلي عن المخاطر، وحبا بالإبقاء عليه، وتعريض غيره لذلك.

٤ ـ وقوله (ص) له: إنه عمرو، فارس يليل أو نحو ذلك، ليفهم الناس: أن هذا الاقدام من علي عليه السلام ليس مجرد نزوة طائشة، ألقى نفسه بسببها في المهالك، دون أن يكون عارفاً بحقيقة عمرو، ومكانته في الفروسية، ثم حالفه الحظ فقتله، لأن علياً رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، كما يريد أعداؤه أن يقولوا.

بل كان هذا الاقدام منه عن علم وتثبت، واطلاع تام على شجاعة عمرو، ومكانته بين فرسان العرب.

الخصال الثلاث:

وحين عرض علي عليه السلام الخصال الثلاث على عمرو، نجد أن هذه الخصال قد جاءت من خلال الوعي والاحساس بالمسؤولية، وفي أعلى درجات السداد، وفي منتهى الموضوعية والنصفة. وتركت عمرواً يبوء بعار البغي، والعدوان، والتجني بلا

---

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٣ والبحار ج ٢٠ ص ٢٢٦ و٢٠٣ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٣.

مبرر، ولا سبب على الإطلاق.

فلم يفرض عليه أن يسلم فقط، بل هو كما عرض عليه أن يسلم من منطلق الانصاف في الدعوة، ولاعطائه فرصة أخيرة لينقذ نفسه من النار؛ فإنه أيضاً يقدم له خياراً آخر لا يتعارض مع رغائبه وطموحاته، ولا مع آرائه ومعتقداته. وهو أن يرجع عن حرب محمد والمسلمين، ثم قدم له ما يثير اهتمامه، ويقربه إلى اختيار هذه الخصلة مثيراً أمامه ما يوجب اعادة النظر في صوابية القرار الذي اتخذه في خصومته لمحمد، مستثيراً في نفسه نوازع الطموح ومستحثاً في داخله المشاعر القبلية التي ينزع إليها، ويعتمد عليها. حين ذكر له: أنه إن يكن محمد صادقاً كان أسعد الناس به. وإن يك كاذباً كفتهم ذؤبان العرب أمره. وفي كلمته الأخيرة تلويح يقرب من التصريح بما يراود النفوس عادةً من حب السلامة والراحة والابتعاد عن المشاكل والمخاطر.

ولكن ما احتج به عمرو لاتخاذه قراره برفض هذ الخصلة الثانية ما كان غير سراب خادع ينطلق من غرور وعنجهية لا مبرر لهما؛ إلا روح الاستكبار والبغي والتجني والظلم الذي جره بالتالي إلى الخزي والخسران في الدنيا وفي الآخرة، وساء للظالمين بدلاً.

ولم يبق أمام أمير المؤمنين إلا أن يبادر إلى دفع غائلة هذا الظالم المتجبر فكان النصر على يديه، وكانت ضربته له التي تعدل عبادة الثقلين.

قطع رجل عمرو:

ويقول ابن شهر آشوب: «وتبادر المسلمون يكبرون، فوجدوه على فرسه برجل واحدة، يحارب علياً عليه السلام، ورمى رجله نحو

علي. فخاف من هيبتها رجلان، ووقعا في الخندق»[1].

وهذا النص غير معقول، وذلك لأنه إذا كان على فرسه برجل واحدة، فإنه لا يستطيع أن يأخذ رجله عن الأرض ويرمي بها علياً أو غيره، لأنها حين تقطع لا بد أن يقع القسم المقطوع منها على الأرض إلا أن يكون قد فعل ذلك بعد وقوعه على الارض.

علي ودرع عمرو:

لما قتل علي عمراً، وأقبل نحو رسول الله (ص)، ووجهه يتهلل قال له عمر بن الخطاب: هلا سلبته يا علي درعه؟! فإنه ليس في العرب درع مثلها.

فقال علي عليه السلام: إني استحييت أن أكشف سوأة ابن عمي. أو قال: ضربته فاتقاني بسوأته، فاستحييت من ابن عمي أن أسلبه.

وعند الحسكاني: أن النبي (ص) سأل علياً عن سبب عدم سلبه له[2].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٧.

(٢) راجع: الارشاد للمفيد ص ٦١ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٣ وشواهد التنزيل ط سنة ١٤١١ هـ. ق ج ٢ ص ١٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٥٧ و ٢٠٤ و ج ٤١ ص ٧٣ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٤ و ٥٣٥ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣٣ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٧ والروض الأنف ج ٣ ص ٢٨٠ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٣٩ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٠ وخاتم النبيين ج ٢ ص ٩٣٨ ونهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٤.

ويقال: إنه حين جلس على صدر عمرو، يريد أن يذبحه، وهو يكبر الله ويمجده طلب منه عمرو أن لا يسلبه حلته، فقال له علي: هي علي أهون من ذلك ثم ذبحه[١].

وزعم الحلبي: أن هذا اشتباه من الرواة، وأن ذلك كان في حرب أحد مع طلحة بن أبي طلحة[٢].

ويردّ قوله: أنه في قضية أحد كان السؤال من سعد لعلي. وفي الخندق كان السؤال من عمر لعلي، فهما قضيتان.

ونعود فنذكر كلام المعتزلي، وهو يقارن بين علي وسعد بن أبي وقاص في ذلك:

«قلت: شتان بين علي وسعد، هذا يجاحش على السلب، ويتأسف على فواته (كما في قصة أحد) وذلك يقتل عمرو بن عبد ود يوم الخندق، وهو فارس قريش وصنديدها، ومبارزه فيعرض عن سلبه، فيقال له: كيف تركت سلبه، وهو أنفس سلب؟!.

فيقول: كرهت أن أبز السبي ثيابه.

فكأن حبيباً (أي أبا تمام) عناه بقوله:

إن الأسـود أسـود الغـاب همتهـا   يوم الكريهة في المسلوب لا السلب[٣]

ونقول:

إننا لا نريد أن نضيف إلى ذلك شيئاً، غير أن ما يستوقفنا هنا

---

(١) كنز الفوائد للكراجكي ص ١٣٧.
(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٠.
(٣) شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٣٧.

هو ما نجده من حرص واهتمام ظاهر لعمر بن الخطاب بأمر الدرع كي لا تفوت علياً، وكأنه يظن أنه عليه السلام إنما يحارب ليحصل على الغنائم والأسلاب. ولم يلتفت إلى أن ما يهم علياً هو الدفاع عن أساس الدين، وفتح باب الأمل على مصراعيه أمام المسلمين المهزومين نفسياً، كما أخبر الله عنهم:

﴿إذ جاؤكم من فوقكم، ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنون. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً. . إلى أن قال: وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً﴾.

أما جواب أمير المؤمنين عليه السلام لعمر، ففيه تأكيد منه على أنه عليه السلام: لم يزل ولا يزال يتصرف وفق قواعد النبل والرجولة والقيم، حتى في مثل هذا الموقف الذي هو أكثر المواقف صعوبة وخطراً، حيث تزل فيه الأقدام، وتضيع فيه المعايير والضوابط في زحمة الأهوال والمخاطر، وفي خضم ثورات النفوس والمشاعر.

فسلام الله عليك يا أبا الحسن، يوم ولدت في الكعبة، ويوم اغتالتك يد الإفك والحقد في مسجد الكوفة، ويوم تبعث حياً، حيث تقف لتسقي المؤمنين والمجاهدين من يدك على حوض الكوثر.

قتلته في الله:

ولما أدرك علي عليه السلام عمرو بن عبد ودّ لم يضربه؛ فوقعوا في علي عليه السلام؛ فردّ عنه حذيفة، فقال النبي صلى الله عليه وآله: مه يا حذيفة، فإن علياً سيذكر سبب وقفته.

ثم إنه ضربه.

فلما جاء سأله النبي صلى الله عليه وآله عن ذلك، فقال: قد كان شتم أمي، وتفل في وجهي؛ فخشيت أن أضربه لحظ نفسي؛ فتركته حتى سكن ما بي، ثم قتلته في الله[1].

نعم، هذا هو الرجل الإلهي، الذي يتعامل مع كل الأمور من موقع المعرفة، والوعي، والثبات والتثبت، ويصل كل أعماله، ما دق منها وقل، وما عظم وجل بالله سبحانه، ليقربه خطوة إليه.

إنه ذلك الجبل الأشم الشامخ، الذي لا تزله الرياح العواصف، وهو الإنسان القوي و الرصين، الذي لا يثور ولا يغضب إلا لله، ولله فقط، وحده لا شريك له.

فبارادة الله ورضاه يسل سيفه، ويقاتل الأبطال، ويسحق كل جبروتهم وكبريائهم، وهو يغمد سيفه ويستسلم لارادة الله سبحانه وامتثالاً لأمره، حين يهجمون عليه في بيته، ويضربون زوجته، ويسقطون جنينها، ويحرقون عليه بيته، أو يكادون. وهو علي هنا، وهو علي هناك، ولا أحد غيرعلي يستطيع أن يفعل ذلك.

الوسام الإلهي:

عن ابن مسعود، وعن بهز بن حكيم، عن أبيه، قال: قال رسول الله (ص) لمبارزة علي (أو قتل علي) لعمرو بن عبدود (أو ضربة علي يوم الخندق) أفضل (أو خير) من عبادة الثقلين، أو أفضل من أعمال

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ١١٥ والبحار ج ٤١ ص ٥١.

أمتي إلى يوم القيامة[1].

وفي نص آخر عن ابن مسعود: أبشر يا علي، فلو وزن عملك اليوم بعمل أمتي لرجح عملك بعملهم[2]، زاد المجلسي، والطبرسي قوله:

«وذلك أنه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلا وقد دخله وهن بقتل عمرو. ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وقد دخله عز

(١) راجع النصوص التي تشير الى ذلك في: كنز العمال ج ١٢ ص ٢١٩ وتاريخ بغداد ج ١٣ ص ١٩ ومقتل الحسين للخوارزمي ص ٤٥ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣٢ وتلخيصه للذهبي بهامشه والمناقب للخوارزمي ص ٥٨ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٨ وشرح المواقف ج ٨ ص ٣٧١ وفرائد السمطين ج ١ ص ٢٥٦ وشواهد التنزيل ج ٢ ص ١٤ ط سنة ١٤١١ هـ. و الغدير عن بعض من تقدم، وعن هداية المرتاب ص ١٤٨ والتفسير الكبير للرازي ج ٣٢ ص ٣١ وفضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٣٢٣ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٢ وينابيع المودة ص ٩٤ و٩٥ و ٩٦ وسعد السعود ص ١٣٩ والطرائف ص ٦٠ وكنز الفوائد للكراجكي ص ١٣٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٩ و ٣٢٠ وشرح المقاصد للتفتازاني ج ٥ ص ٢٩٨ وفردوس الأخبار ج ٣ ص ٤٥٥ ونفحات اللاهوت ص ٩١ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٣ والبحار ج ٤١ ص ٩١ و ٩٦ و ج ٢٠ ص ٢٠٥ واحقاق الحق (الملحقات) ج ٨ و ج ٦ ص ٥ و ج ١٦ ص ٤٠٣ عن بعض من تقدم، وعن حياة الحيوان ط القاهرة ص ٢٧٤ وعن المصادر التالية: نهاية العقول ص ١١٤ (مخطوط) وروضة الأحباب للدشتكي (مخطوط) ص ٣٢٧ وتجهيز الجيش للدهلوي (مخطوط) ص ٤٠٧ و ١٦٣ ومفتاح النجا ص ٢٦ وتاريخ آل محمد لبهجت أفندي ص ٥٧ ومناقب علي ص ٢٦ ووسيلة النجا ص ٨٤.

(٢) ينابيع المودة ص ٩٤ وشواهد التنزيل ط سنة ١٤١١ هـ ص ١٢.

بقتل عمرو»[١].

تمحلات وتعصبات ابن تيمية:

وقد اعتبر ابن تيمية حديث: قتل علي لعمرو أفضل من عبادة الثقلين، ونحوه، من الأحاديث الموضوعة، التي ليس لها سند صحيح، ولم يروه أحد من علماء المسلمين في شيء من الكتب التي يعتمد عليها. بل ولا يعرف له اسناد صحيح ولا ضعيف. وهو كذب لا يجوز نسبته إلى النبي (ص)؛ فإنه لا يجوز أن يكون قتل كافر أفضل من عبادة الجن والإنس، فإن ذلك يدخل فيه عبادة الأنبياء.

وقد قتل من الكفار من كان قتله أعظم من قتل عمرو، مثل أبي جهل وعقبة بن أبي معيط، وشيبة.

وقصته في الخندق لم تذكر في الصحاح[٢].

أما الذهبي، فقال عن حديث: ضربة علي أفضل من عبادة الثقلين إلخ: «قبح الله رافضياً افتراه»[٣].

ونقول:

قد رد الحلبي استبعاده أن تكون ضربة عمرو أفضل من عبادة

---

(١) راجع: مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٣ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٥ وشواهد التنزيل ط سنة ١٤١١ هـ ج ٢ ص ١٢ وكنز الفوائد للكراجكي ص ١٣٧.

(٢) منهاج السنة ج ٤ ص ١٧١ و ١٧٢ باختصار. والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٠ وسيرة الرسول ص ٢٢٠ ط سنة ١٩٦٨ دار الفكر للجميع.

(٣) تلخيص مستدرك الحاكم للذهبي (مطبوع بهامش المستدرك نفسه) ج ٣ ص ٣٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٠.

الثقلين بقوله: «فيه نظر، لأن قتل هذا كان فيه نصرة للدين، وخذلان للكافرين»[١].

فإنه إذا كانت قد زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وصاروا يظنون الظنون السيئة بالله سبحانه. وإذا كان المسلمون قد أحجموا عن مبارزة عمرو، خوفاً ورعباً، وكانوا كأن على رؤوسهم الطير.

وإذا كان عمرو هو فارس الأحزاب ، الذين هم ألوف كثيرة، وقد جاؤا لاستئصال المسلمين، وهم قلة، وقد جاءهم اليهود من جانب، وقريش من جانب، وغطفان من جانب. وكانوا في أشد الخوف على نسائهم وذراريهم.

وإذا كان المنافقون لا يألون جهداً في تخذيل الناس وصرفهم عن الحرب، حتى أصبح الرسول (ص) في قلة قليلة، لا تزيد على ثلاث مئة رجل. بل قيل لم يبق معه سوى اثني عشر رجلاً كما سنرى.

وإذا كان الجوع والبرد يفتكان فيهم، ويضعفان من عزائمهم. .

نعم، إذا كان ذلك، فمن الطبيعي: أن يكون قتل هذا الكافر فيه حياة الإسلام، و انتعاش المسلمين، وفيه خزي الأحزاب، وفشلهم، وسيأتي بعض الكلام حول: أن النصر كان بسبب قتل عمرو في الفصل التالي إن شاء الله.

وأما بالنسبة لضعف سنده، وعدم ذكره في الصحاح؛ فلا يقلل ذلك من قيمته واعتباره إذ ما أكثر الأحاديث الصحيحة، و المتواترة

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٠.

التي لم تذكر في كتب الصحاح.

وقد عرفنا تعصب أصحاب الصحاح على علي عليه السلام وأهل بيته، وقول ابن تيمية ليس له سند ضعيف ولا صحيح يكذبه رواية المستدرك لهذا الحديث عن بهز بن حكيم بن معاوية بن حَيَدَة عن أبيه، عن جده وقد قال أبو داود: بهز بن حكيم أحاديثه صحاح(١).

شهادة حذيفة:

قال المفيد:

«روى قيس بن الربيع، قال: حدثنا أبو هرون العبدي، عن ربيعة السعدي، قال: أتيت حذيفة بن اليمان، فقلت له: يا أبا عبدالله، إنا لنتحدث عن علي عليه السلام ومناقبه؛ فيقول لناأهل البصرة: إنكم تفرطون في علي عليه السلام. هل أنت محدثي بحديث فيه؟.

فقال حذيفة: يا ربيعة، وما تسألني عن علي عليه السلام! فوالذي نفسي بيده، لو وضع جميع أعمال أصحاب محمد (ص) في كفة الميزان، منذ بعث الله محمداً إلى يوم الناس هذا، ووضع عمل علي عليه السلام في الكفة الأخرى لرجح عمل علي (ع) على جميع أعمالهم.

فقال ربيعة: هذا الذي لا يقام له ولا يقعد.

فقال حذيفة: يا لكع: وكيف لا تحمل؟ وأين كان أبو بكر،

---

(١) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال ص ٣٨١. وراجع سائر كتب الرجال والتراجم مثل تهذيب التهذيب، وتهذيب الكمال، وغير ذلك.

وعمر، وحذيفة، وجميع أصحاب محمد صلى الله عليه وآله يوم عمرو بن عبد ودّ، وقد دعا إلى المبارزة؛ فأحجم الناس كلهم ما خلا علياً (ع)، فإنه برز إليه وقتله الله على يده. والذي نفس حذيفة بيده ـ لعمله ذلك اليوم أعظم أجراً من عمل أصحاب محمد (ص) إلى يوم القيامة[1].

شهادات، ومواقف أخرى:

شهادة أبي الهذيل والمعتزلي.

قال المعتزلي:

١ ـ «فأما الخرجة التي خرجها يوم الخندق إلى عمرو بن عبد ود، فإنها أجل من أن يقال: جليلة، وأعظم من أن يقال: عظيمة.

٢ ـ وما هي إلا كما قال شيخنا أبو الهذيل، وقد سأله سائل: أيما أعظم منزلة عند الله، علي، أم أبو بكر؟

فقال: يا ابن أخي، والله ، لمبارزة علي عمرواً يوم الخندق. تعدل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعاتهم كلها، تربي عليها، فضلاً عن أبي بكر وحده.

٣ ـ وقد روي عن حذيفة بن اليمان ما يناسب هذا، بل ما هو

---

(١) الإرشاد ص ٥٥وكشف الغمة للأربلي ج ١ ص ٢٠٥ وسيرة المصطفى ص ٥٠٤ شرح النهج للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٠ و ٦١ وإعلام الورى ط دار المعرفة ص ١٩٥ والبحار ج ٢٠ ص ٢٥٦ و ٢٥٧ ونهج الحق ص ٢٤٩/ ٢٥٠ وشرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٩/ ٣٠٠.

أبلغ منه[١] إلخ...».

وعن حذيفة: لو قسمت فضيلة علي عليه السلام بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعتهم[٢].

٤ ـ وقال أبو بكر بن عياش: لقد ضرب علي ضربة ما كان في الإسلام أعزّ منها ـ يعني ضربة عمرو بن عبد ودّ ـ. ولقد ضرب علي ضربة ما ضرب في الإسلام أشأم منها ـ يعني ضربة ابن ملجم لعنه الله[٣].

٥ ـ وقال الحافظ يحيى بن آدم ـ أو جابر بن عبدالله الأنصاري: ما شبهت قتل علي عمرواً إلا بقوله تعالى: ﴿**فهزمهوم باذن الله، وقتل داود جالوت**﴾[٤].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١٩ ص ٦٠. وعنه في احقاق الحق (الملحقات) ج ٦ ص ٨ وسيرة المصطفى ص ٥٠٣ والبحار ج ٢٠ ص ٢٧٣.

(٢) شرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٨٤.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ج ١٩ ص ٦١ والنص للمفيد في الارشاد ص ٦١ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٥ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٤ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٦ و ٢٥٨ و ج ٤١ ص ٩١ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٨.

(٤) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٥ والإرشاد للمفيد ص ٦٠ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٥ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣٤ وتلخيصه للذهبي بهامشه واعلام الورى ط دار المعرفة ص ١٩٦ والبحار ج ٢٠ ص ٢٥٦ و ج ٤١ ص ٩١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي الشافعي ج ١٩ ص ٦١ و ٦٢ والمناقب للخوارزمي ص ١٠٦ وكنز الفوائد للكراجكي ص ١٣٨ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٧.

٦ ـ وروي أن عمرواً قال لعلي: ما أكرمك قرناً[1].

لا نأكل ثمن الموتى:

قال ابن إسحاق ـ كما رواه البيهقي عنه ـ وبعث المشركون إلى رسول الله (ص) يشترون جيفة عمرو بن عبد ودّ بعشرة آلاف.

فقال رسول الله (ص): هو لكم، لا نأكل ثمن الموتى[2].

وقال أبو زهرة: «ويظهر: أنه كان عظيماً بين المشركين، يعتزونه، فأرسلوا يطلبون جثمانه[3].

وقد ذكرت نفس هذه الحادثة بالنسبة لجيفة نوفل بن عبدالله بن المغيرة، ونكاد نشك في صحة ذلك. ولعل الزبيريين قد حرفوا ما جرى لجيفة عمرو ليكون لصالح جيفة نوفل وذلك بهدف تضخيم شأن نوفل، ليصبح أهم من عمرو بن عبد ودٍ، زعماً منهم أن روايتهم المكذوبة: أن الزبير قد قتل نوفلاً قد راجت على الناس. وسيأتي أن علياً أيضاً هو الذي قتل نوفلاً وغيره.

وإن كنا نحتمل أيضاً: أن يكون بنو مخزوم قد طلبوا جيفة صاحبهم ليرفعوا من شأنه حتى لا يكون أقل من عمرو.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٦ والبحار ج ٤١ ص ٩٠.
(٢) راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٥ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٨ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٥ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٠.
(٣) خاتم النبيين ج ٢ ص ٩٣٨.

فرح الملائكة بقتل عمرو:

عن الصادق (ع): لما قتل علي عليه السلام عمرو بن عبد ودّ أعطى سيفه الحسن (ع) وقال: قل لأمك تغسل هذا الصيقل، فردّه وعلي عند النبي (ص) وفي وسطه نقطة لم تنق. قال: أليس قد غسلته الزهراء.

قال: نعم.

قال: فما هذه النقطة؟.

قال النبي: يا علي، سل ذا الفقار يخبرك.

فهزه، وقال: أليس قد غسلتك الطاهرة من دم الرجس النجس؟!.

فأنطق الله السيف فقال: بلى، ولكنك ما قتلت بي أبغض إلى الملائكة من عمرو بن عبد ود؛ فأمرني ربي فشربت هذه النقطة من دمه. وهو حظي منه، فلا تنتضيني يوماً إلا ورأته الملائكة وصلت عليك[١].

وليس لدينا ما يثبت أو ينفي صحة هذه الرواية. وحين يصعب علينا فهم بعض ما ورد فيها، فإن علينا أن نكل علم ذلك إلى أهله، ما دام أن ذلك لا يمس أساس العقيدة، ولا يؤثر على الضوابط والمرتكزات العامة للبحث العلمي الرصين.

---

(١) البحار ج ٢٠ ص ٢٤٩/ ١٥٠ والخرائج و الجرائح ج ١ ص ٢١٥/٢١٦.

قتْل عمرو هَزم بني قريظة والأحزاب

وحين أرسل النبي (ص) علياً إلى بني قريظة قال له: «إن الذي أمكنك من عمرو بن عبد ود، لا يخذلك»[١].

قال علي عليه السلام: «فاجتمع الناس إلي، وسرت حتى دنوت من سورهم؛ فأشرفوا علي، فلما رأوني صاح صائح منهم: قد جاءكم قاتل عمرو. وقال آخر: قد أقبل إليكم قاتل عمرو.

وجعل بعضهم يصيح ببعض، ويقولون ذلك. وألقى الله في قلوبهم الرعب، وسمعت راجزاً يرتجز:

قتـــل علـــي عمـــرواً ... صـــاد علـــي صقـــرا
قصـــم علـــي ظهـــراً ... أبـــرم علـــي أمـــرا
هتـك علـي ستـــرا

فقلت: الحمد الله الذي أظهر الإسلام وقمع الشرك»[٢].

وكما كان قتل عمرو سبباً لهزيمة بني قريظة فإنه كان أيضاً سبباً لهزيمة الأحزاب كما سيأتي. وقد أقنع قتله وقتل ابنه ونوفل بن عبدالله أقنع قريشاً ومن معها: أن أية مغامرة من هذا القبيل سيكون مصيرها الفشل الذريع، والخيبة القاتلة. وسيأتي في أواخر الفصل التالي نصوص تدل على أن قتل عمرو ومن معه كان سبب هزيمة الأحزاب فانتظر.

---

(١) الارشاد للمفيد ص ٥٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢٦١ و ج ٤١ من ٩٥ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٤٥.

(٢) الإرشاد للمفيد ص ٥٨ والبحار ج ٢٠ ص ٢٦٢/٢٦١ و ج ٤١ ص ٩٥ و ٩٦ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٤٥.

الخوارج وحديث قتل عمرو:

كنا نتوقع كل شيء من أعداء علي عليه الصلاة والسلام. إلا أننا لم نتوقع أبداً أن يشككوا في قتل علي عليه السلام لعمرو بن عبد ود.

وقد ألفت نظري الحاكم النيسابوري، وهو يورد في مستدركه. أحاديث صحيحة تثبت قتل علي (ع) لعمرو؛ فتساءلت في نفسي عن الداعي لإيراد أحاديث في أمر هو من أوضح الواضحات وأجلاها.

وإذا به هو نفسه يصرح بسبب ذلك. ويبين لنا: أن أعداء علي قد حاولوا التشكيك حتى بهذا الأمر. فهو يقول:

«قد ذكرت في مقتل عمرو بن عبد ود من الأحاديث المسندة، ومما عن عروة بن الزبير، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق بن يسار ما بلغني، ليتقرر عند المنصف من أهل العلم: أن عمرو بن عبد ود لم يقتله، ولم يشترك في قتله غير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وإنما حملني على هذا الاستقصاء فيه قول من قال من الخوارج: أن محمد بن مسلمة أيضاً ضربه ضربة، وأخذ بعض السلب.

ووالله، ما بلغنا هذا من أحد من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

وكيف يجوز هذا وعلي رضي الله عنه يقول ما بلغنا: إني ترفعت عن سلب ابن عمي، فتركته. وهذا جوابه لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحضرة رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم»[١] انتهى.

متى قتل عمرو؟:

أما متى قتل عمرو، فإن اليعقوبي يقول: إن قتله كان بعد مضي خمسة أيام من الحصار[٢].

لكن آخرين يقولون: إن ذلك كان بعد مضي بضع وعشرين ليلة منه[٣].

وفريق ثالث يقول: بعد مضي شهر من الحصار[٤].

ونحن نستقرب هذا الأخير، وذلك لما تقدم من أن الحصار قد دام شهراً، وقد علمنا أن قتل عمرو، كما سيأتي في أواخر الفصل التالي كان سبب هزيمة الأحزاب بالإضافة إلى الريح العاتية التي أرسلها الله تعالى عليهم.

قتل حسل بن عمرو بن عبدود:

قال ابن هشام: حدثني الثقة، أنه حدث عن ابن شهاب الزهري، أنه قال: قتل علي بن أبي طالب يومئذٍ عمرو بن عبد ود،

---

(١) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣٤.
(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ص ٥٠.
(٣) الإرشاد للمفيد ص ٥٧ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٣ وإعلام الورى ص ٩١ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٢ و ٢٥١ و ٢٥٣ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٠ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٣٦.
(٤) راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٢ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٦٥.

وابنه حسل بن عمرو. قال ابن هشام: عمرو بن عبد ود. ويقال: عمرو بن عبد[١].

قتل نوفل بن عبدالله:

قد ادعت بعض المرويات: أن الزبير بن العوام هو الذي قتل نوفل بن عبدالله فهي تقول: «رجع المشركون هاربين، وخرج في آثارهم الزبير وعمر بن الخطاب، فناوشوهم ساعة. وحمل الزبير بن العوام على نوفل بن عبدالله بالسيف، حتى شقه باثنين. وقطع ابدوج (أو اندوج) سرجه. حتى خلص إلى كاهل الفرس.

فقيل: يا أبا عبدالله، ما رأينا مثل سيفك!!.

فقال: والله، ما هو السيف، ولكنها الساعد»[٢].

وذكر البعض: أن نوفلاً سأل المبارزة، فبارزه الزبير، فشقه باثنتين، حتى فلّ في سيفه فلاًّ، وانصرف، وهو يقول:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٦٥ وراجع: سيرة المصطفى ص ٥٠٢/٥٠٣ عنه والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٢٢ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٢ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ١٩٨ و١٩٩ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩٢ وراجع: نهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٩.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٥ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧١ و ٤٧٢ لكنه ذكره بلفظ يقال، وراجع المصادر التالية: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤٨ وفيه: عثمان بن عبدالله.

إنـي امـرؤ أحمـي وأحتمـي عن النبي المصطفى الأمي[١]

لكن نصاً آخر يقول: إنه لما وقع نوفل في الخندق، وجعل المسلمون يرمونه، وطلب أن ينزل بعضهم إليه ليقاتله، فقتله الزبير بن العوام[٢].

وفي الوفاء: بارزه الزبير، فقتله، ويقال قتله علي، ورجعت بقية الخيول منهزمة[٣] قال دحلان: «ويمكن أن علياً والزبير رضي الله عنهما اشتركا في قتله»[٤].

ونقول:

إننا نشك في ذلك كثيراً، وذلك للأمور التالية:

١ ـ إن البعض ينسب قتل نوفل إلى المسلمين، فهو يقول عن عمرو:

«ودنا منه علي، فلم يكن بأسرع من أن قتله علي، فولى أصحابه الأدبار. وسقط نوفل بن عبدالله عن فرسه في الخندق، فرمي بالحجارة

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٧ وراجع: الرسول العربي وفن الحرب ص ٢٤٩ ونهـايـة الإرب ج ١٧ ص ١٧٤ ودلائـل النبـوة للبيهقـي ج ٣ ص ٤٣٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٦، وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٠.

(٢) مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٣ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٠٥.

(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٧ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٣ وراجع: فتح الباري ج ٧ ص ٣٠٧ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٣ وراجع: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧.

(٤) السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧.

حتى قتل»[١].

٢ ـ وقال البلاذري وغيره: «ونجا أصحاب عمرو إلا رجلاً سقط في الخندق، فتكسر، ورماه المسلمون حتى مات»[٢].

٣ ـ أما ابن الأثير فقد حاول أن يبهم الأمر، حيث قال:

«وقتل مع عمرو رجلان، قتل علي أحدهما، وأصاب الآخر سهم مات منه بمكة»[٣].

فإذا عرفنا: أنه مقصوده بالرجل الآخر الذي قتله علي ليس هو حسل بن عمرو، لأن كثيراً من المؤرخين سكتوا عن ذكره، وهم مجمعون على قتل نوفل بن عبدالله.

وعرفنا أيضاً: أن الذي أصابه سهم فمات منه بمكة هو ـ كما سيأتي ـ منبه بن عثمان، أو عثمان بن أمية بن منبه[٤].

فإننا نعرف أنه يقصد بالذي قتله علي هو نوفل بن عبدالله بالذات.

---

(١) امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٢ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥.

(٢) أنساب الأشراف ج ١ ص ٣٤٥ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٧ عن معالم التنزيل، وراجع: عيون الأثر ج ٢ ص ٦٠ عن ابن عائذ. وراجع أيضاً: المواهب اللدنية ج ١ ص ١١٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥و ٣٢٠. وراجع كذلك: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥. وراجع كنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٩ عن ابن أبي شيبة.

(٣) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٢.

(٤) ستأتي مصادر ذلك حين الكلام عن عدد الشهداء من المسلمين، والقتلى من المشركين، أواخر الفصل التالي إن شاء الله تعالى.

وثمة فريق آخر يقول: بصراحة إن علياً عليه السلام هو الذي قتل نوفلاً فقد.

٤ ـ قال اليعقوبي: «وكبا بنوفل بن عبدالله بن المغيرة فرسه، فلحقه علي فقتله»(١).

وقال الطبرسي، وابن كثير، والطبري: إنه لما تورط في الخندق جعل يقول: قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب؛ فنزل إليه علي فقتله، وطلب المشركون رمّته، فمكنهم من أخذه(٢) وذكرت بعض المصادر: أنه عليه السلام ضربه بالسيف فقطعه نصفين(٣).

وذكر ابن اسحاق: أن علياً طعنه في ترقوته حتى أخرجها من مراقه، فمات في الخندق(٤).

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠ وراجع: بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٦.
(٢) راجع: تاريخ الأمم والملوك ط الاستقامة ج ٢ ص ٢٤٠ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٦ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٧/٤٨٨ وراجع، مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٧ والبحار ج ٤١ ص ٩٠ وخاتم النبيين ج ٢ ص ٩٣٨ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥ وراجع ص ٣٢٠ وسيرة المصطفى ص ٥٠٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٧٤ ومحمد رسول الله، لمحمد رضا ص ٢٣١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧ و ٥ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٤ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٧ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٢ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٦ والإرشاد للمفيد ٦٠ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٤ وإعلام الورى ص ١٩٥.
(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٧ و٤٨٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥.
(٤) مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٣ ودلائل النبوة ج ٣ ص ٤٣٨ عن ابن اسحاق والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٥ و٢٥٦ و ج ٤١ ص ٩٠ والإرشاد للمفيد ص ٥٩/ ٦٠ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١٩

٥ ـ هذا كله، عدا عن أن الشعر المنسوب إلى الزبير أنه قاله في هذه المناسبة غير مستقيم الوزن، فليلاحظ ذلك.

وأخيراً..

فإننا نذكر القارىء الكريم بأن هؤلاء الناس قد عودونا أن يغيروا على فضائل علي وعلى مواقفه عليه السلام، وينسبوها لغيره، ممن لهم فيه هوى. ولو لم يستطع أن يسجل حتى موقفاً رسالياً وجهادياً واحداً طيلة حياته.

إنما هي جيفة حمار:

وأرسلت بنو مخزوم يطلبون جيفة نوفل بن عبدالله، يشترونها، وأعطوا فيها عشرة آلاف درهم. فقال (ص): إنما هي جيفة حمار، وكره ثمنه، فخلى بينهم وبينه[1].

وقال البعض: إنهم عرضوا الدية، فقال (ص): إنه خبيث الدية، فلعنه الله ولعن ديته، فلا إرب لنا في ديته، ولسنا نمنعكم أن تدفنوه[2].

ص ٦٤ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٧.

(١) امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٤ وراجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٧ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٥ وراجع: عيون الأثر ج ٢ ص ٦٠ وحديث العشرة آلاف موجود في السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٦٥ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٥.

(٢) راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٦ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٣ وراجع: عيون الأثر ج ٢ ص ٦٠ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠٤ وخاتم النبيين ج ٢ ص ٩٣٨.

وفي رواية أخرى: أنهم عرضوا اثني عشر ألفاً ثمناً لجسد رجل من المشركين يوم الأحزاب[١].

ونص آخر يقول: إن أبا سفيان هو الذي بعث بديته مئة من الإبل[٢].

ولهذا الحديث نصوص مختلفة، فلتراجع في مصادرها[٣].

وبعد هذا فلا يمكن الاعتماد على رواية الحاكم عن إبن عباس قال: قتل رجل من المشركين يوم الخندق فطلبوه أن يواروه فأبى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أعطوه الدية[٤].

فإنها رواية لا تصح بأي وجه.

الزبير و هبيرة بن وهب:

يقول القمي: إنه بعد أن قتل علي عليه السلام عمرواً «بعث رسول الله صلى الله عليه وآله الزبير إلى هبيرة بن وهب، فضربه على

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٤٠ وتاريخ الإسلام (المغازي) للذهبي ص ٢٤٧ و ٢٤٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦.

(٢) راجع: امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٤ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٩ عن ابن أبي شيبة.

(٣) راجع بالإضافة إلى جميع المصادر المتقدمة ما يلي:
تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٤٠ وتاريخ الخميس ج١ ص ٤٨٨ و ٤٩٢ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٠٦ وشرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٧ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٥٢.

(٤) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣٢ وتلخيصه للذهبي (مطبوع بهامشه) وقالا: إنه حديث صحيح.

رأسه ضربة ففلق هامته»[١].

وتقول رواية أخرى، أدرك الزبير هبيرة بن أبي وهب، فضربه، فقطع ثفر[٢] فرسه، وسقطت درع كانت عليه، فأخذها الزبير[٣].

ونص ثالث يقول: ومرّ عمر بن الخطاب في أثر القوم، فناوشهم ساعة وسقطت درع هبيرة بن أبي وهب، فأخذها الزبير[٤].

وهبيرة هو زوج أم هاني أخت علي وأبو أولادها وكان فارس قريش كما يقولون[٥].

ونحن نشك في صحة ذلك، وذلك استناداً إلى ما يلي:

١ ـ لو كان الزبير قد ضرب هبيرة بالسيف حتى فلق هامته، فاللازم أن يكون قد قتل، مع أن الجميع متفقون على أنه لم يقتل آنئذٍ.

٢ ـ قد ذكرت بعض النصوص: أن علياً لحق هبيرة فأعجزه، وضرب قربوس سرجه، فسقطت درع كانت عليه وفر عكرمة، وهرب ضرار[٦].

---

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٥ والبحار ج ٢٠ ص ٢٢٨.
(٢) الثفر: سير في مؤخر السرج.
(٣) راجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٤ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٠ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ من ٥٣٥ والرسول العربي وفن الحرب ص ٢٤٩ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٢ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧.
(٤) امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٢.
(٥) راجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣١٨ و ٣٢٠ و ٣٢١.
(٦) راجع: الإرشاد للمفيد ص ٦٠ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٤

٣ ـ ويفصل ذلك نص آخر، فيقول: ثم حمل ضرار بن الخطاب وهبيرة على علي، فأقبل علي عليهما. فأما ضرار فولى هارباً ولم يثبت، وأما هبيرة فثبت أولاً، ثم ألقى درعه وهرب. وكان فارس قريش وشاعرها(١) وسئل ضرار عن سبب فراره، فقال: خيل إليّ أن الموت يريني صورته(٢).

٤ ـ قد اعتذر هبيرة بن أبي وهب عن فراره من وجه علي عليه السلام، فقال.

لعمرك ما وليت ظهراً محمداً وأصحابه جنباً ولا خيفة القتل
ولكنني قلبت أمري فلم أجد لسيفي غناءً إن وقفت ولا نبلي

إلخ.

ويؤيد قولهم بأن الفرسان قد هاجموا علياً بعد قتله عمرواً قوله عليه السلام.

أعلي تقتحم الفوراس هكذا عني وعنهم أخروا أصحابي

ولعل مواجهته لعلي عليه السلام ولو للحظات جعلته يستحق وسام فارس قريش وشاعرها.

٥ ـ ثم إننا لم نفهم السبب في أن الذين خرجوا في أثر الهاربين هما الزبير وعمر فقط؟! وأين كان عنهم سائر فرسان المسلمين؟ ولماذا لم

والبحار ج ٢٠ ص ٢٥٤ و ٢٥٦ وراجع: إعلام الورى ص ١٩٥ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٧ و ٤٨٨ عن روضة الأحباب.

(١) راجع: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢١ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٢. وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٧.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٧.

يتبعهم علي نفسه.

واحدي يا رسول الله:

وروى ابن أبي شيبة من مرسل عكرمة: أن رجلاً من المشركين قال يوم الخندق: من يبارز.

فقال النبي (ص): قم يا زبير.

فقالت صفية بنت عبد المطلب: واحدي يا رسول الله.

فقال: قم يا زبير.

فقام الزبير فقتله. ثم جاء بسلبه إلى النبي (ص) فنفله إياه[١].

ونقول:

إننا نشك في صحة هذه الرواية.

أولاً: لأن صفية كانت مع النساء في حصن حسان حسبما تقدم، فما الذي جاء بها إلى ساحة القتال، في هذه الساعة الحساسة والحاسمة بالذات. وهل كان (ص) يسمح للنساء بالتردد إلى ساحة الحرب؟!.

وثانياً: إن هذا الحديث مرسل، وهو ينتهي أيضاً إلى عكرمة المعروف بالكذب والوضع، وقد تحدثنا عن بعض حاله في كتابنا: أهل البيت في آية التطهير فليراجع.

---

(١) فتح الباري ج ٧ ص ٣١٢ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٩.

وثالثاً: إننا نستبعد أن يكون (ص) قد خص الزبير بالطلب إليه أن يبارز ذلك الرجل، وهو قبل قليل قد طلب التطوع من المسلمين بمبارزة عمرو. فما هذه السياسة، وما هي مبرراتها يا ترى؟!

عمر وضرار بن الخطاب:

قال المعتزلي: «وناوش عمر بن الخطاب ضرار بن عمرو، فحمل عليه ضرار حتى إذا وجد مسّ الرمح رفعه عنه. وقال: إنها لنعمة مشكورة، فاحفظها يا ابن الخطاب، إني كنت آليت أن لا تمكنني يداي من قتل قرشي، فأقتله.

وانصرف ضرار راجعاً إلى أصحابه»[1] وهم عند جبل أبي عبيد.

وفي نص آخر ذكر حملة الزبير وعمر على بقية أصحاب عمرو، وقد كان ضرار يفر، وعمر يشتد في أثره. فكرّ ضرار راجعاً، وحمل على عمر بالرمح ليطعنه ثم أمسك وقال:

«يا عمر، هذه نعمة مشكورة أثبتها عليك، ويد لي عندك غير مجزي بها فاحفظها»[2].

لكن القمّيَ ذكر للرواية نصاً آخر، فقال: «أمر رسول الله صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب أن يبارز ضرار بن الخطاب، فلما برز إليه ضرار انتزع له عمر سهماً. فقال ضرار: ويحك يا بن صهاك،

---

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٤ والبحار ج ٢٠ ص ٢٧٤ عنه والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧.

(٢) راجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧.

أترميني في مبارزة؟ والله، لئن رميتني لا تركت عدوياً بمكة إلا قتلته.

فانهزم عنه عمر، ومر نحوه ضرار. وضربه على رأسه بالقناة، ثم قال: احفظها يا عمر، فإنني آليت أن لا أقتل قرشياً ما قدرت عليه.

فكان عمر يحفظ له ذلك بعد ما ولي، فولاه[1].

ونشير نحن هنا إلى ما يلي.

ألف ـ إن من الممكن أن يكون (ص) قد أمر عمر بمبارزة ضرار، أثناء مبارزة علي عليه السلام لعمرو، فحمل عليه ضرار، حتى إذا وجد مس الرمح رفعه وقال له مقالته تلك. ثم لما قتل عمرو وحسل وهجم علي على ضرار وهبيرة ونوفل فهربوا، عاد وقتل نوفلا.

ب ـ إننا لا نصدق أن يكون ضرار قد فرّ من عمر، لأن ضراراً يعرف عمر ومدى شجاعته، إلا أن يكون فرّ من السهم الذي حاول عمر أن يرميه به، ثم عاد فهاجم عمر، وجرى بينهما ما جرى.

ج ـ إن هذه القضية قد حدثت أيضاً بين ضرار وبين عمر في غزوة أحد، وقال له نفس هذه المقالة المذكورة عنه آنفاً، وقد ذكرهما الواقدي في كتاب المغازي. وحسب نص الحلبي: إنه ضرب عمر بالقناة ثم رفعها وقال: ما كنت لأقتلك يا ابن الخطاب[2].

د: إننا نجد عمر يهتم بأمر ضرار بصورة ملفتة للنظر، فقد ذكر

---

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٥ والبحار ج ٢٠ ص ٢٢٨ عنه.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢١ وراجع: شرح النهج للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٤ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٧٤ عنه والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ص ٧ و ٨.

القمي: أنه ولاه ـ وقد تقدم ـ كما أنه حين قال عبد الرحمان بن عوف لرباح وهم في طريق مكة: غنّنا.

قال له عمر: إن كنت آخذاً فعليك بشعر ضرار بن الخطاب[1].

وهذا التعظيم لضرار قد سرى إلى الآخرين حتى قالوا عنه: إنه فارس قريش وشاعرهم[2] ولعلهم أعطوه هذا الوسام لأنه أراد أن يقدم على علي ثم هرب.

عمر ليس أخا ضرار:

وقد قال البعض: إن ضرار بن الخطاب كان أخا لعمر بن الخطاب[3].

وهذا غير صحيح، فإن عمر بن الخطاب كان من بني عدي، أما ضرار فكان من بني فهر، وشتان ما بينهما.

والذي أوجب الغلط لدى هؤلاء هو أن أبويهما كان اسمهما الخطاب، فتخيلوا أن الخطاب رجل واحد.

الآن نغزوهم ولا يغزوننا:

قال المفيد رحمه الله: «فتوجه العتب إليهم، والتوبيخ والتقريع والخطاب، ولم ينج من ذلك أحد بالاتفاق إلا أمير المؤمنين عليه

---

(١) الإصابة ج ٢ ص ٢٠٩.
(٢) الاستيعاب مطبوع بهامش الاصابة ج ٢ ص ٢١٠.
(٣) السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢١.

السلام، إذ كان الفتح له وعلى يديه، وكان قتله عمرواً ونوفل بن عبدالله سبب هزيمة المشركين.

وقال رسول الله (ص) بعد قتله هؤلاء النفر: الآن نغزوهم ولا يغزونا»[1].

الأشعار في غزوة الخندق

هناك أشعار كثيرة في مناسبة غزوة الخندق نختار باقة منها وهي التالية:

عن علي عليه السلام أنه قال:

وكانوا على الإسلام إلباً ثلاثة ... فقد خر من تلك الثلاثة واحد
وفر أبو عمرو هبيرة لم يعد ... ولكن أخو الحرب المجرب عائد
نهتهم سيوف الهند أن يقفوا لنا ... غداة التقينا والرماح مصائد

وعنه عليه السلام:

الحمد لله الجميل المفضل ... المسبغ المولى العطاء المجزل
شكراً على تمكينه لرسوله ... بالنصر منه على الغواة الجهل
كم نعمة لا أستطيع بلوغها ... جهداً ولو أعملت طاقة مقول
لله أصبح فضله متظاهراً ... منه علي سألت أم لم أسأل

---

(١) الإرشاد للمفيد ص ٦٢. وستأتي فقرة: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، مع مالها من مصادر في أواخر الفصل التالي إن شاء الله تعالى.

قد عاين الأحزاب من تأييده   جند النبي وذي البيان المرسل
ما فيه موعظة لكل مفكر   إن كان ذا عقل وإن لم يعقل

وعنه عليه السلام مخاطباً لعمرو بن عبد ود:

يا عمرو قد لاقيت فارس بهمة   عند اللقاء معاود الأقدام
من آل هاشم من سناء باهرٍ   ومهذبين متوجين كرام
يدعو إلى دين الإله ونصره   وإلى الهدى وشرائع الإسلام
بمهند عضب رقيق حده   ذي رونق يقري الفقار حسام
ومحمد فينا كأن جبينه   شمس تجلت من خلال غمام
والله ناصر دينه ونبيه   ومعين كل موحد مقدام
شهدت قريش والقبائل كلها   أن ليس فيها من يقوم مقامي[1]

وروي أنه لما قتل عمرواً أنشد:

ضربته بالسيف فوق الهامة   بضربة صارمة هدامة
أنا علي صاحب الصمصامة   وصاحب الحوض لدى القيامة
أخو رسول الله ذي العلامة   قد قال إذ عممني عمامة
أنت الذي بعدي له الإمامة[2]

---

(١) المقطوعات الثلاثة المتقدمة في البحار ج ٢٠ ص ٢٧٩ و ٢٨٠ و ج ٤١ ص ٨٩ و ٩١ و ٩٠ عن ديوان علي أمير المؤمنين عليه السلام ص ٤٦ و ١٠٩/١١٠ و ١٢٦/١٢٧ والمناقب لابن شهر آشوب ج٣ ص ١٣٦ و ١٣٧.

(٢) البحار ج ٤١ ص ٨٨.

وقال حسان بن ثابت:

أمسى (الفتى) عمرو بن عبدٍ يبتغي بجنوب يثرب عادة لم تنظر
ولقد وجدت سيوفنا مشهورة ولقد وجدت جيادنا لم تقصر
ولقد رأيت غداة بدر عصبة ضربوك ضرباً غير ضرب المحسر
أصبحت لا تدعى ليوم عظيمة يا عمرو أو لجسيم أمر منكر(١)

قال ابن هشام: وبعض أهل العلم ينكرها لحسان فأجابه فتى من بني عامر:

كذبتم وبيت الله لا تقتلوننا ولكن بسيف الهاشميين فافخروا
بسيف ابن عبدالله أحمد في الوغا بكف علي نلتم ذاك فاقصروا
ولم تقتلوا عمرو بن عبد بأسكم ولكنه الكفؤ الهزبر الغضنفر
علي الذي في الفخر طال بناؤه ولا تكثروا الدعوى علينا فتحقروا
ببدر خرجتم للبراز فردكم شيوخ قريش جهرة وتأخروا
فلما أتاهم حمزة وعبيدة وجاء علي بالمهند يخطر
فقالوا: نعم اكفاء صدق فاقبلوا إليهم سراعاً إذ بغووا وتجبروا
فجال علي جولة هاشمية فدمرهم لما عتوا وتكبروا

---

(١) الإرشاد للمفيد ص ٥٦ والبحار ج ٢٠ ص ٢٥٩ و ج ٤١ ص ٩٨ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٣٨١ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٦ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٩٠ والبيت الأول فيه وفي البحار عن الإرشاد هكذا.
أمسى الفتى عمرو بن عبد ناظراً كيف العبور وليته لم ينظر

فليس لكم فخر علينا بغيرنا وليس لكم فخر نعدّ ونذكر[١]

وروي أن علياً لما قتل عمرواً لم يسلبه، وجاءت أخت عمرو حتى قامت عليه فلما رأته غير مسلوب سلبه قالت: ما قتله إلا كفؤ كريم، ثم سألت عن قاتله، قالوا: علي بن أبي طالب؛ فأنشأت هذين البيتين[٢]: ولكن نصاً آخر يقول:

لما نعي عمرو إلى أخته قالت: من ذا الذي اجترأ عليه؟!

فقالوا: ابن أبي طالب.

فقالت: لم يعد موته إلا على يد كفؤ كريم. لارقأت دمعتي إن هرقتها عليه. قتل الأبطال، وبارز الأقران، وكانت منيته على يد كفؤ كريم من قومه. [وفي لفظ آخر: على يد كريم قومه] ما سمعت بأفخر من هذا يا بني عامر. ثم أنشأت تقول:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله لكنت أبكي عليه آخر الأبد
لكن قاتل عمرو لا يعاب به من كان يدعى قديماً بيضة البلد[٣]

وقال المعتزلي: «فأما قتلاه، فافتخار رهطهم بأنه عليه السلام قتلهم أظهر وأكثر، قالت أخت عمرو بن عبد ود ترثيه:

---

(١) الإرشاد للمفيد ص ٥٦ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٦ والبحار ج ٢٠ ص ٢٥٩ و ج ٤١ ص ٩٩.

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٨ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٢.

(٣) الإرشاد للمفيد ص ٥٧ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٩ وكشف الغمة ج ١ ص ٢٠٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢٦٠ و ج ٤١ ص ٧٣ و ٩٧.

لـو كـان قـاتـل عمـرو غيـر قـاتلـه بكيتـه أبـداً مـا دمـت فـي الأبـد
لكـن قـاتلـه مـن لا نظيـر لـه وكـان يـدعـى أبـوه بيضـة البلـد[1]

وقالت أيضاً في ذلك:

أسـدان فـي ضيـق المكـرّ تصـاولا وكـلاهمـا كفـؤ كـريـم بـاسـل
فتخـالسـا مهـج النفـوس كـلاهمـا وسـط المـدار مخـاتـل ومقـاتـل
وكـلاهمـا حضـر القـراع حفيظـة لـم يثنـه عـن ذاك شغـل شـاغـل
فـاذهـب علـي فمـا ظفـرت بمثلـه قـول سـديـد ليـس فيـه تحـامـل
والثـار عنـدي يـا علـي فليتنـي أدركتـه والعقـل منـي كـامـل
ذلـت قـريـش بعـد مقتـل فـارس فـالـذل مهلكهـا وخـزي شـامـل

ثم قالت: والله، لاثأرت قريش بأخي ما حنت النيب[2].

وقال مسافع بن عبد مناف يبكي عمرو بن ود. لمّا جزع المذاد، أي قطع الخندق:

عمـرو بـن عبـد كـان أول فـارس جـزع المـذاد وكـان فـارس مليـل[3]

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١ ص ٢٠ والبيتان في لسان العرب أيضاً ج ٨ ص ١٩٥ وفيه: بكيته ما أقام الروح في جسدي.
وراجع مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣٣ وتلخيصه للذهبي مطبوع بهامشه.
(٢) الإرشاد للمفيد ص ٥٧ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٩ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢٦٠ وج٤١ ص ٩٨.
(٣) الصحيح: يليل، وهو واد ببدر.

إلى أن قال:

سأل النزال هناك فارس غالب ... بجنوب سلع ليته لم ينزل
فاذهب علي ما ظفرت بمثلها ... فخرا ولو لاقيت مثل المعضل
نفسي الفداء لفارس من غالب ... لاقى حمام الموت الخ[1]

وعند ابن هشام: تسل النزال علي فارس غالب.

وقال هبيرة بن أبي وهب المخزومي، يعتذر من فراره عن علي بن أبي طالب وتركه عمرواً يوم الخندق. ويبكيه:

لعمرك ما وليت ظهراً محمداً ... وأصحابه جبناً ولا خيفة القتل
ولكنني قلبت أمري فلم أجد ... لسيفي غناء إن وقفت و لا نبلي

إلى أن يقول:

كفتك علي لن ترى مثل موقف ... وقفت على شلو المقدم كالفحل
فما ظفرت كفاك يوماً بمثلها ... أمنت بها ما عشت من زلة النعل[2]

وقال هبيرة بن أبي وهب يرثي عمرواً ويبكيه:

لقد علمت عليا لؤى بن غالب ... لفارسها عمرو إذا ناب نائب

---

(١) راجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٨٨ وذكرها في آخر العثمانية ص ٣٣٦ عنه.
وراجع: مجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٢ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٠٣ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٧٨/٢٧٩.

(٢) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ٣ ص ٢٨٩ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٧ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٨٠ والملحق بالعثمانية ص ٣٣٦.

وفارسها عمرو إذا ما يسوقه (يسومه) علي، وإن الموت لا شك طالب
عشية يدعوه علي وإنه لفارسها إذ خام عنه الكتائب
فيا لهف نفسي إن عمرواً لكائن بيثرب لا زالت هناك المصائب
لقد أحرز العليا علي بقتله وللخير يوماً لا محالة جالب(١)

وقال حسان:

لقد شقيت بنو جمح ابن عمرو ومخزوم وتيم ما نقيل
وعمرو كالحسام فتى قريش كأن جبينه سيف صقيل
فتى من نسل عامر أريحي تطاوله الأسنة والنصول
دعاه الفارس المقدام لما تكشفت المقانب والخيول
أبو حسن فقنعه حساماً جرازاً لا أفل ولا نكول
فغادره مكباً مسلحبّاً على عفراء لا بعد القتيل(٢)

وقال مسافع يؤنب الفرسان الذين كانوا مع عمرو، فأجلوا عنه وتركوه:

عمرو بن عبد والجياد يقودها خيل تقاد له وخيل تنعل
أجلت فوراسه وغادر رهطه ركناً عظيماً كان فيها أول
عجباً وإن أعجب فقد أبصرته مهما تسوم علي عمرواً ينزل
لا تبعدن فقد أصبت بقتله ولقيت قبل الموت أمراً يثقل

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨٩ و ٢٩٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٨١ والملحق بالعثمانية ص ٣٣٧.
(٢) مسلحبّ: منبطح. والأبيات في شرح نهج البلاغة للمعتزلي، ج ١٣ ص ٢٩٠ والملحق بالعثمانية ص ٣٣٧.

وهبيرة المسلوب ولى مدبراً عند القتال مخافة أن يقتلوا
وضرار كان الباس منه محضراً ولى كما ولى اللئيم الأعزل[١]

قال ابن هشام: بعض أهل العلم بالشعر ينكرها له.

وقال حسان بن ثابت يفتخر بقتل عمرو بن عبد ود:

بقيتكم عمرو أبحناه بالقنا بيثرب نحمي والحماة قليل
ونحن قتلنا كم بكل مهندا إلخ . . .

قال ابن هشام: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان[٢].

وروى المعتزلي عن بعض شعراء الإمامية قوله:

إذا كنتم ممن يروم لحاقه فهلا برزتم نحو عمرو ومرحب[٣]

ولا ننسى هنا قول الأزري رحمه الله:

فانتضى مشرفيه فتلقى ساق عمرو بضربة فبراها
وإلى الحشر رنة السيف منه يملأ الخافقين رجع صداها
يا لها ضربة حوت مكرمات لم يزن ثقل أجرها ثقلاها
هذه من علاه إحدى المعالي وعلى هذه فقس ماسواها

المكر المفضوح:

إن من يلاحظ سيرة ابن هشام التي ادعى أنها تلخيص لسيرة ابن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٨٠.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٣٨١.
(٣) شرح النهج للمعتزلي ج ٥ ص ٧.

اسحاق، ويقارن بينها وبين ما وصل إلينا من سيرة ابن اسحاق، من طرق الآخرين يجد: أن ابن هشام لم يكن يريد مجرد تلخيص سيرة ذلك الرجل العلامة الخبير والمعتمد في شأن السيرة النبوية الشريفة. بل أراد أيضاً: أن يستبعد نصوصاً ذات طابع معين رأى أن الاحتفاظ بها يضر ببعض الاتجاهات أو يضع علامة استفهام كبيرة عليها. وهذا الأمر يضع عمل ابن هشام في السيرة في عداد الأعمال الخيانية بالنسبة للحق وللحقيقة. من منطلق تعصب مذهبي بغيض ومقيت.

والذي يلاحظ تعليقات ابن هشام على الأشعار المتقدمة يجد: أنه يحاول التشكيك في خصوص ذلك النوع من الشعر الذي يمقته ويبغضه، ولا يطيقه؛ فيدعي أن أكثر أهل العلم ينكره لحسان، أو لعلي، أو لمسافع. إلخ.. رغم أننا لم نعثر ولو على رجل واحد قد أنكر أياً من تلك المقطوعات، أو شكك في نسبتها لأصحابها. ما عدا أولئك الذين لا جود لهم إلا في مخيلة ابن هشام.

ولا نريد بعد هذا أن نسأل ابن هشام ولا غيره عن سبب تشكيكهم ذاك فاننا لن نسمع منه جواباً مقنعاً ولا مقبولاً، مهما طال بنا الانتظار.

تعصب يثير الغثيان:

كنا نتوقع كل شيء من التجني، والإفتراء، والتحريف للحقائق الثابتة، بدافع من الحقد والتعصب ضد علي وأهل بيته عليهم السلام، إلا أننا لم نتوقع أن يتجاهل هؤلاء الحاقدون الاغبياء مواقف وبطولات، وأثر علي في حرب الخندق، خصوصاً قتله كبش كتيبة

جيش الشرك وعمرو بن عبد ود العامري؛ لأن تجاهل مثل هذا الحدث المصيري، الذي شاع وذاع، يحتاج إلى درجة كبيرة من الشجاعة النادرة، أو فقل إلى درجة عالية من الوقاحة الفاجرة.

وهذا ما حصل بالفعل، حيث نجد بعضهم ليس فقط لا يذكر لعلي عليه السلام خبراً، ولا يورد في مواقفه أثراً. بل هو يكاد يجهر بإنكار تلك المواقف الرسالية الرائدة، حيث يقول أحدهم.

«ولم يكن بين القوم قتال إلا الرمي بالنبل والحصا؛ فأوقع الله بينهم التخاذل، ثم أرسل الله عليهم في ظلمة شديدة من الليل ريح الصبا الشديدة في برد شديد، فأسقطت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وزلزلتهم. حتى جالت خيولهم بعضها في بعض في تلك الظلمة فارتحلوا خائبين»[١] ثم يذكر إرسال الزبير بن العوام لكشف خبر القوم.

بينما نجد رجلاً مسيحياً، لا يرغب بالإعتراف للمسلمين بشيء ذي بال، يعتبر قتل علي لعمرو ولصاحبه «سبب هزيمة الأحزاب على كثرة عَدَدهم، ووفرة عُدَدِهم[٢]».

فشتان ما بين هذا الرجل، وبين أولئك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

من تشكيكات الجاحظ وتعصباته:

قد ادعى ابن تيمية: أن عمرو بن عبد ود لم يعرف له ذكر إلا

---

(١) حدائق الانوار ج ٢ ص ٥٩٠ وراجع أيضاً الزمخشري في الكشاف ج ٣ ص ٥٢٦ وقد تعجب منه في سعد السعود ص ١٣٨/١٣٩.

(٢) تاريخ مختصر الدول ص ٩٥.

في هذه الغزوة[١] وقد حاول الجاحظ أن يدعي: أن شهرة عمرو بن عبد ود بالشجاعة مصنوعة، من قبل محبي علي، حتى تركوه أشجع من عامر بن الطفيل، وعتيبة بن الحارث، وبسطام بن قيس، مع أنه لم يسمع لعمرو ذكر في حرب الفجار، ولا في الحروب بين قريش ودوس.

وقد رد عليه الإسكافي بما حاصله: إن أمر عمرو بن عبد ودّ أشهر من أن يذكر، ولينظر ما رثته به شعراء قريش لما قتل. ثم ذكر شعر مسافع بن عبد مناف، وشعر هبيرة بن أبي وهب في اعتذاره من تركه عمرواً، وشعره الآخر في رثائه له. وليس أحد يذكر عمرواً إلا قال: كان فارس قريش وشجاعها. وقد شهد بدراً، وجرح فيها، وقتل قوماً من المسلمين. وكان عاهد الله عند الكعبة أن لا يدعوه أحد إلى احدى ثلاث خصال إلا قبلها.

وآثاره في أيام الفجار مشهورة.

كما أنه لما جزع الخندق في ستة فرسان هو أحدهم، جبن المسلمون كلهم عنه، وهو يوبخهم ويقرعهم، وملكهم الرعب والوهل؛ فإما أن يكون هذا أشجع الناس كما قيل عنه، أو يكون المسلمون كلهم أجبن العرب وأذلهم وأفشلهم.

وإنما لم يذكر مع الفرسان الثلاثة لأنهم كانوا أصحاب غارات ونهب، وأهل بادية، وقريش أهل مدينة، وساكنوا مدر وحجر، لا

---

(١) منهاج السنة ج ٤ ص ١٧٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢ وسيرة الرسول ص ٢٢٠.

يرون الغارات، ولا ينهبون غيرهم من العرب، وهم مقيمون ببلدتهم، فلم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء[١].

هذا كله، بالاضافة إلى أنه كان قد نذر في بدر أن لا يُمِسَّ رأسه دهناً حتى يقتل محمداً. وكان أيضاً معروفاً بفارس يليل، وقد ذكر ذلك مسافع بن عمرو في شعره الذي يرثيه فيه.

وقد وصفه النبي (ص) لعلي بأنه فارس يليل أيضاً.

هذا وقد قتل عمرو في بدر عمير بن أبي وقاص، وسعد بن خيثمة[٢] وكان على ميسرة قريش في بدر[٣].

المعركة، التي لا حقيقة لها:

قالوا: ولما قتل عمرو، ورجع المنهزمون إلى أبي سفيان قال: هذا يوم لم يكن لنا فيه شيء. ارجعوا.

فنفرت قريش إلى العقيق، ورجعت غطفان إلى منازلها، واتّعدوا يغدون جميعاً، ولا يتخلف منهم أحد، فباتت قريش يعبئون أصحابهم، وكذلك غطفان. ووافوا رسول الله (ص) بالخندق، قبل طلوع الشمس، ولم يتخلف منهم أحد. وعبأ (ص) أصحابه، وحضهم على القتال، ووعدهم النصر إن صبروا. و المشركون قد جعلوا

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٩١ وراجع الملحق آخر العثمانية ص ٣٣٥ ـ ٣٣٩.

(٢) قد تقدمت مصادر كثير مما ذكرناه. وراجع أيضاً: شرح النهج للمعتزلي ج ١٤ ص ٢٠٧ وراجع أيضاً السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٠.

(٣) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج ١٤ ص ١٢٠.

المسلمين في مثل الحصن من كتائبهم. فأحدقوا بكل وجه من الخندق، ووجهوا نحو خيمة رسول الله (ص) كتيبة غليظة، فيها خالد بن الوليد، فقاتلوهم إلى الليل. وكان القتال من وراء الخندق.

فلما حان وقت صلاة العصر دنت الكتيبة فلم يقدر النبي، ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا الصلاة على نحو ما أرادوا.

فانكفأت الكتيبة مع الليل، فزعموا أنه (ص) قال: شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم (أو قبورهم) ناراً.

وفي نص آخر: أنه (ص)ما قدر على صلاة ظهر، ولا عصر، ولا مغرب، ولا عشاء. فجعل أصحابه يقولون: ما صلينا.

فيقول: ولا أنا ـ والله ـ ما صليت.

حتى كشف الله المشركين، فرجعوا متفرقين، ورجع كل من الفريقين إلى منزله.

وقام أسيد بن حضير في ماءتين على شفير الخندق؛ فكرت خيل المشركين يطلبون غرة، وعليها خالد بن الوليد، فناوشهم ساعة، فزرق وحشي الطفيل بن النعمان (وقيل: الطفيل بن مالك بن النعمان) بن خنساء الأنصاري السلمي بمزراقه، فقتله، كما قتل حمزة رضي الله عنه بأحد.

فلما صار رسول الله (ص) إلى موضع قبته أمر بلالاً؛ فأذن وأقام للظهر، وأقام بعد لكل صلاة إقامة؛ فصلى كل صلاة كأحسن ما كان يصليها في وقتها. وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف.

(أضاف البعض هنا قوله (ص): ما على وجه الأرض قوم

يذكرون الله تعالى في هذه الساعة غيركم).

وقال يومئذٍ رسول الله (ص): شغلنا المشركون عن صلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً.

«ولم يكن لديهم بعد ذلك قتال جميعاً حتى انصرفوا، إلا أنهم لا يدعون الطلائع بالليل طمعاً بالغرة»[1].

ونحن نشك في صحة ذلك، لما يلي: .

أولاً: صرح بعض المؤرخين بأنه بعد قتل عمرو ورفاقه لم يحصل أي قتال، فقال: «ولم يكن لهم بعد ذلك قتال جميعاً، حتى انصرفوا، إلا أنهم لا يدعون الطلائع بالليل، يطمعون بالغارة»[2].

وثانياً: إنه إذا كان القتال بهذا العنف؛ فأين القتلى والجرحى، لاسيما مع اجتماع ألوف من الناس؟ أم يعقل أن تكون جميع تلك السهام والحجارة، والحصى، كانت تذهب سدى ولا تصيب أحداً؟!.

---

(١) راجع هذه النصوص باختصار تارة، وبتطويل أخرى في المصادر التالية: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٦ ـ ٥٣٩ وامتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٣ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٢ و ٤٧٤ ونهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٤ و ١٧٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢١ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٨ والوفا ص ٦٩٤ وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢٢ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٣ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠١ و ٤٠٢ وبهجة المحافل وشرحه ج ١ ص ٢٦٨ وراجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٩ و ١١٠ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٠ ـ ٢١٢ وراجع: المواهب اللدنية ج ١ ص ١١٤ وراجع: أنساب الأشراف ج ١ ص ٣٤٥.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٦ عن ابن سعد ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٤ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٨.

وثالثاً: إن القتال لا يمنع من الصلاة بصورة نهائية، فقد كان من الممكن أن يصلوا منفردين، أو أفواجاً. وقد ذكر الفقهاء: أن الصلاة لا تسقط حتى عن الغريق. فكيف بالمقاتلين، وصلاة المطاردة حال القتال مذكورة في الكتب الفقهية، وإذا كان المسلمون لا يعرفونها، فالنبي (ص) كان يعرفها، فلماذا لم يصلها؟!.

ورابعاً: إن تناقض الروايات في كثير من خصوصياتها يفقدنا الثقة بها، وبالمراجعة والمقارنة يتضح ذلك بجلاء.

ويكفي أن ننبه إلى اختلاف الروايات في الصلاة أو الصلوات التي فاتت النبي والمسلمين.

فهل فاتتهم صلاة العصر فقط كما في حديث جابر(١) وعلي(٢)

---

(١) راجع المصادر المتقدمة، وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢٢ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٠ وتاريخ الإسلام (المغازي) للذهبي ص ٢٤٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٢ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٤٤ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٩ عن الشيخين، والترمذي والنسائي وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٨ وامتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٣ وراجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٤ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨ وراجع: بهجة المحافل وشرحه ج ١ ص ٢٦٨.

(٢) المصنف للصنعاني ج ٥ ص ٥٧٦ وراجع مسند أحمد ج ١ ص ٨١ و ٨٢ وراجع: امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٩ عن الخمسة إلا ابن ماجة والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٠ ومسند أحمد ج ١ ص ٨١ و ٧٩ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٨ وعن فتح الباري ج ٦ ص ١٠٥ و ج ٧ ص ٤٠٥ والدر المنثور ج ١ ص ٣٠٣ عن الستة وعن عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي وابن أبي حاتم وراجع: مسند الطيالسي ص ١٦ وكنز العمال ج ٢ ص ٢٤٠ عن البخاري والبيهقي، وعبد الرزاق، وأحمد، وأبي

وابن عباس[1] وحذيفة وأم حبيبة[2].

أم أنهم شغلوا عن الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، كما عن جابر أيضاً، وأبي سعيد وابن مسعود[3].

أو عن الظهر والعصر، كما عن سعيد بن المسيب وابن عباس وعمر وعلي عليه السلام[4].

أو الظهر والعصر والمغرب كما في رواية أبي هريرة، وأبي سعيد[5].

عبيد في فضائله والعدني، ومسلم والنسائي وابن جرير، وابن خزيمة، وأبي عوانة وابن زنجويه، وعبد بن حميد وغير ذلك.

(١) كنز العمال ج ١ ص ٢٤٠ عن الطبراني و ص ٢٨٦ عن البيهقي.

(٢) كنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٣ و٢٨٨.

(٣) راجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢١ و ٣٢٢ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٨ عن أحمد، والنسائي وأحمد عن ابن مسعود، وعن البزار عن جابر وراجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ١١٠ و ١١١ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٤٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٢ و ٢١٣ وشرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٨ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٤ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٥ عن مصادر عديدة و ص ٢٨٨ عن ابن أبي شيبة.

(٤) المصنف للصنعاني ج ٥ ص ٥٧٦ وامتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٣ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٣ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٤ عن الموطأ وكنز العمال ج ٢ ص ٢٤٠ ومجمع الزوائد ج ١ ص ٣٠٩ عن الطبراني والدر المنثور ج ١ ص ٣٠٤ و ٣٠٣ عن الطبراني، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد، ومسلم والنسائي والبيهقي وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٠.

(٥) البداية والنهاية ج ٤ ص ١١٠ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٢.

وفي الموطأ: أن الفائتة هي الظهر[١]. وكذا عن جابر وأم سلمة وعلي وابن مسعود[٢].

وبعض الروايات عن ابن عباس وحذيفة، لم تعين الصلاة أو لم تعين العدو.

قال المقريزي: «فاحتمل أن يكون كله صحيحاً، لأنهم حوصروا في الخندق، وشغلوا بالأحزاب أياماً»[٣].

وقد جمع النووي بين هذه الروايات بأن فوات الصلاة قد حصل مرتين لأن الحرب استمرت في الخندق عدة أيام[٤].

استفادات غير موفقة:

وقد حاول البعض أن يستفيد من هذا الحديث المشكوك أحكاماً شرعية وغيرها، فقال بعضهم:

«إن هذا يدل على جواز الجمع بين الصلاتين جمع تأخير لعذر الحرب، واجازه أحمد لعذر الحرب وغيره» وقال: «وتكون الصلاة

---

(١) شرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٨.

(٢) راجع: مجمع الزوائد ج ١ ص ٣٠٩ و ٣١٠ والدر المنثور ج ١ ص ٣٠٤ عن البزار و ص ٣٠٣ عن مصادر أخرى.
وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٣٩ عن مصادر كثيرة وكشف الأستار عن مسند البزار ج ١ ص ١٩٦ و ١٩٧.

(٣) امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٣.

(٤) راجع: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢١ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٤ ومحمد رسول الله (ص) لمحمد رضا ص ٢٣ .

المؤخرة أداءً لا قضاءً»[١].

واستدلوا على ذلك أيضاً أي على جواز التأخير لعذر القتال بقوله (ص): لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فمنهم من صلاها في الطريق، ومنهم صلاها بعد الغروب في بني قريظة، ولم يعنف واحداً من الفريقين.

وقالوا: إن هذا قد نسخ بتشريع صلاة الخوف، ولو كانت مشرعة لم يؤخروها[٢].

لكن هذا الكلام لا يصح إذا كان (ص) والمسلمين قد أجبروا على تأخير الصلاة بحيث لم يكن لديهم أي خيار في ذلك، ولا يصح بناءً على قول من قال: إن تأخير الصلاة يوم الخندق كان نسياناً[٣] وقد صرحت بذلك رواية عن ابن عباس، قال: إن رسول الله (ص) نسي الظهر والعصر يوم الأحزاب فذكر بعد المغرب، فقال: اللهم من حبسنا عن الصلاة الوسطى فاملأ بيوتهم ناراً[٤].

وعن أبي جمعة: إن النبي (ص) صلى المغرب، فلما فرغ قال: هل أحد منكم علم أني صليت العصر؟! فقالوا: يا رسول الله ما صليت، فأمر المؤذن فأقام الصلاة، فصلى العصر، ثم أعاد

---

(١) خاتم النبيين ج ٢ ص ٩٤٠ وراجع ص ٩٥١ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١٠ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١١ وشرح بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٨ وفقه السيرة ص ٣٠٣.
(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١١٠ و السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١١ و ٢١٢ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٤.
(٣) راجع المصادر المتقدمة.
(٤) الدر المنثور ج ١ ص ٣٠٤ عن الطبراني.

المغرب[١].

أضاف الحلبي: «أقول: يحتاج إلى الجواب عن اعادة المغرب. وقد يقال: أعادها مع الجماعة»[٢].

الصحيح في القضية:

وأخيراً، فنحن لا نمانع من أن يكون قد حصل تأخير في أداء الصلاة إلى حد يصدق معه الاضطرار ليمكن للمكلف أن يصلي صلاة المضطر، أو صلاة المطاردة. فإن قوله تعالى: ﴿وإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾[٣] قد ورد في سورة البقرة، النازلة في أوائل الهجرة. وقد روي أن النبي (ص) صلى يوم الأحزاب ايماء[٤] ومعنى ذلك: هو أن الآية المذكورة قد نزلت قبل غزوة الخندق.

وهذه الآية هي غير الآية التي تحدثت عن صلاة الخوف جماعة فراجع.

السر والسبب:

١ ـ إننا بعد أن استظهرنا عدم صحة ما ذكروه نرى: أن السبب الذي يدعو البعض لاشاعة أمور كهذه هو الرغبة في تبرير تهاون الحكام بصلاتهم، وتأخيرهم لها عن أوقاتها ـ كما ذكرناه في الجزء

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٣٩ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٢.
(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٣.
(٣) البقرة/ ٢٣٩.
(٤) تفسير نور الثقلين ج ١ ص ١٩٩ ومجمع البيان ج ١ ص ٣٤٤.

الأول من هذا الكتاب؛ ولا يهمهم أن يكون ذلك على حساب كرامة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، والنيل من عصمته، وعقله وحكمته.

٢ ـ قد يكون السبب هو ما جرى لعمر بن الخطاب حيث فاتته الصلاة في غزوة الخندق، حيث قال: يا رسول الله، ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب. قال النبي (ص): والله ما صليتها، فنزلنا مع رسول الله (ص) إلى بطحان. فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها. فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[1].

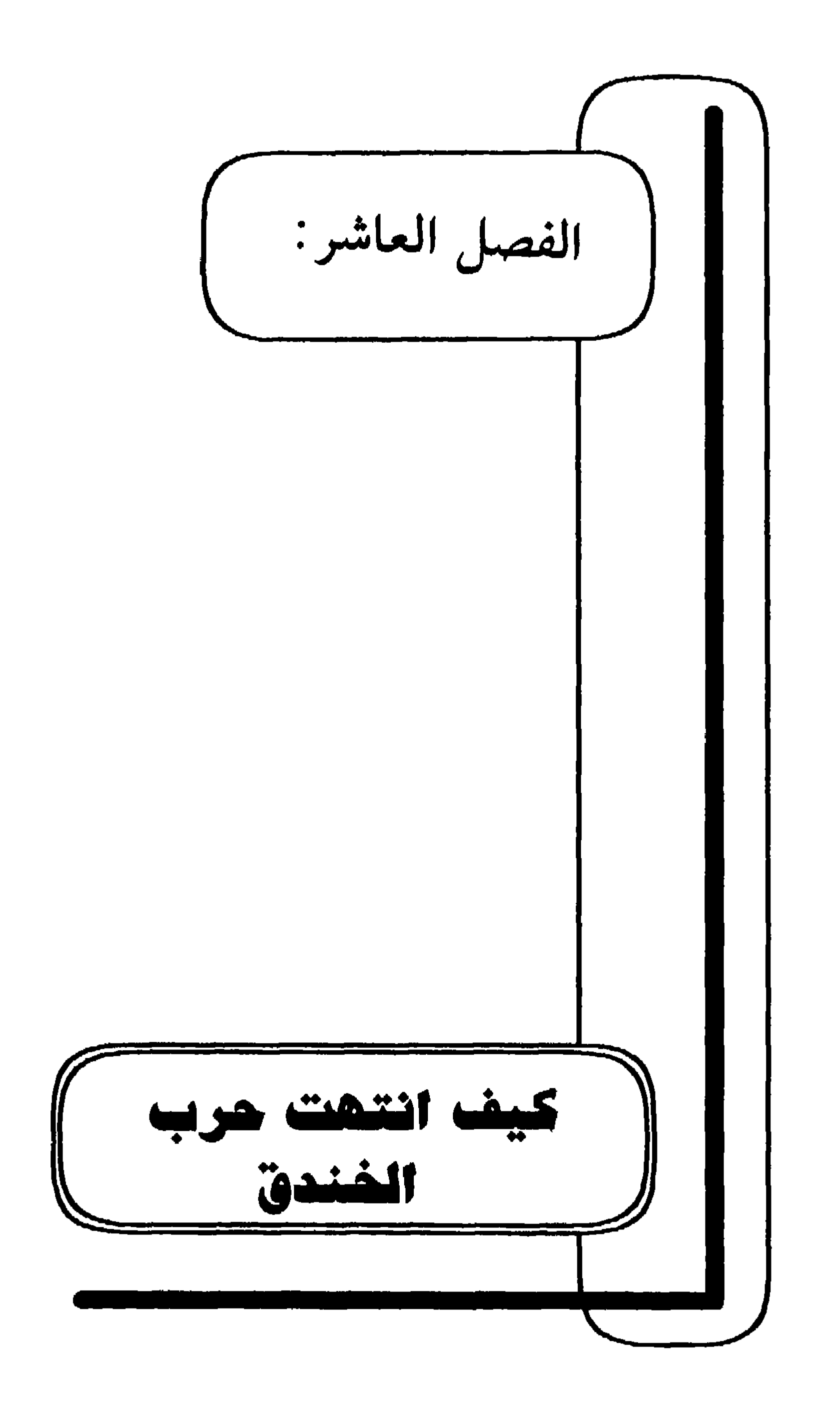
٣ ـ إن دعوى وجود قتال ضار استمر ثلاثة أيام، أو أكثر أو أقل قد يكون الهدف منها هو التضخيم والتهويل في قوة المشركين، والتأكيد على شوكتهم وعلى ارتفاع معنوياتهم بعد قتل عمرو بن عبد ود ورفاقه؛ الأمر الذي ينتج عنه أن لا يكون علي عليه السلام قد حقق إنجازاً ذا بال، فضلاً عن أن يكون ما جرى قد أسهم في هزيمة المشركين بطريقة أو بأخرى.

٤ ـ إن ذلك أيضاً سوف يحدث ترديداً وتشكيكاً في قيمة الأوسمة التي حباه بها رسول الله، وفي استحقاقه عليه السلام لها، وفي جدارته لحملها.

---

(١) راجع: صحيح البخاري ج ٣ ص ٢٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٢ وتاريخ الإسلام (المغازي) للذهبي ص ٢٤٨ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٤٤، والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٠ عن الشيخين، والترمذي، والنسائي.





الفصل العاشر:

كيف انتهت حرب الخندق



ما فعله نعيم بن مسعود:

لقد حاول المؤرخون، والمحدثون الذين توجههم التيارات والقوى والتعصبات السياسية، والمذهبية، والأحقاد ـ حاولوا ـ التعتيم على النصر المؤزر الذي سجله علي أمير المؤمنين في حرب الأحزاب بطريقة أخرى غير طريقة تضخيم الأمور، وادعاء حصول قتال شغلهم عن صلاة العصر، وغيرها.

فادعوا: أن نعيم بن مسعود قد قام بدور فاعلٍ وأساس في تخذيل القوم، والقاء الريب والشك ببعضهم البعض فيما بينهم.

فيدعي المؤرخون: أن نعيم بن مسعود الغطفاني جاء إلى رسول الله (ص) مسلماً ـ وكان من دواهي العرب ـ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فأمرني بما شئت أنته إليه[١].

فقال له صلى الله عليه وآله: إنما أنت رجل واحد فينا، وإنما غناؤك أن تخذل عنا ما استطعت. وعليك بالخداع، فإن الحرب

---

(١) يقول القمي في تفسيره ج ٢ ص ١٨١ والبحار ج ٢٠ ص ٢٢٣ عنه: إن قريظة قد نقضوا العهد نهاراً، فلما كان في جوف الليل جاء نعيم بن مسعود إلى النبي، وكان قد أسلم قبل قدوم قريش بثلاثة أيام.
ونقول: لماذا أخر نعيم مجيئه إلى النبي (ص) ليعلن إسلامه هذه المدة الطويلة؟! وآثر البقاء في صفوف أهل الشرك.

خدعة. وحسب نص المقدسي أنه (ص) قال له: إن الحرب خدعة، فاحتل لنا.

فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة، وكان نديماً لهم، فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودّي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم.

قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم.

فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ومن التف معهم جاؤا لحرب محمد، فإن ظاهرتموهم عليه، فليسوا كهيئتكم. وذاك أن البلد بلدكم، به أموالكم، وأولادكم، ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا إلى غيره. فأما قريش وغطفان، فإن أموالهم، وأبناءهم، ونساءهم ببلادٍ غير بلادكم؛ فإن رأوا نهبة وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل. والرجل ببلادكم لا طاقة لكم به، وإن خلا لكم. [زاد الواقدي.. وقد كبر عليهم جانب محمد، أجلبوا عليه بالأمس إلى الليل، فقتل رأسهم عمرو بن عبد ود وهربوا منه مجرحين]. فلا تقاتلوا القوم حتى تأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم، ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى يناجزوه.

قالوا: لقد أشرت علينا برأي ونصح.

ثم خرج حتى أتى قريشاً. فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه: يا معشر قريش: قد عرفتم ودّي إياكم، وفراقي محمداً، وقد بلغني أمر رأيت حقاً علي أن أبلغكم؛ نصحاً لكم، فاكتموا علي.

قالوا: نفعل.

قال: اعلموا: أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا ـ وأنا عندهم ـ أن قد ندمنا على ما صنعنا؛ فهل يرضيك عنا: أن نأخذ من القبيلتين (مئة رجل، كما عند المقدسي) من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، وكبرائهم، ونعطيكهم، فتضرب أعناقهم. ثم نكون معك على من بقي منهم (أضافت بعض المصادر: وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم ـ يعنون بني النضير)؛ فإن بعثت إليك يهود، يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً.

فوقع ذلك من القوم.

وخرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان، أنتم أصلي وعشيرتي، وأحب الناس إلي، ولا أراكم تتهموني.

قالوا: صدقت.

قال: فاكتموا علي.

قالوا: نفعل.

ثم قال لهم مثلما قال لقريش، وحذرهم مثل ما حذرهم.

فأرسل أبو سفيان[1]، ورؤس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن

---

(١) وذكرت بعض المصادر: أن اليهود هم الذين أرسلوا عزال بن سموأل، يطلبون التواعد على الزحف بشرط اعطائهم رهائن من أشرافهم سبعين رجلاً؛ فلم يرجعوا إليهم بجواب.

أضافت بعض المصادر: أن نعيماً عاد إلى بني قريظة وأخبرهم: أن أبا سفيان قال بعد أن ولّى عزال: لو طلبوا مني عناقاً ما رهنتها.

راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤٣ وامتاع الأسماع ج ١

أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، فقال لهم: إنا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر؛ فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه.

فأرسلوا إليه: أن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً (وكان قد أحدث فيه بعض الناس شيئاً فأصابه ما لم يخف عليكم) ومع ذلك فلسنا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُناً من رجالكم (سبعين رجلاً)، يكونون بأيدينا ثقة حتى نناجز محمداً؛ فإننا نخشى ـ إن ضرستكم الحرب، واشتد عليكم القتال ـ أن تشمروا إلى بلادكم، وتتركونا والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك من محمد. وأرسلت غطفان مسعود بن رخيلة في رجال بمثل ما راسلهم به أبو سفيان..

فلما رجعت الرسل بالذي قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله، إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق.

فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله ما ندفع إليكم رجلاً واحداً، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا[1].

ص ٢٣٧ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٨٢و ٤٨٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٥ و ٣٢٦.

(١) ويذكر الواقدي: أن الزبير بن باطا قد نصحهم بعدم طلب الرهن من قريش، لأنها لا تعطيهم إياه، وهم أكثر عدداً ومعهم كراع ولا كراع مع بني قريظة «وهم يقدرون على الهرب ونحن لا نقدر عليه. وهذه غطفان تطلب إلى محمد أن يعطيها بعض ثمار المدينة، فأبى أن يعطيهم إلا السيف» فلم يوافق الزبير أحد من قومه؛ فلما كان ليلة السبت أرسل أبو سفيان إلخ

فقالت بنو قريظة حين ادت إليهم الرسل: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا؛ فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل.

فأرسلوا إلى القوم: إنا ـ والله ـ لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً.

[قالوا: وتكررت رسل قريش وغطفان إلى بني قريظة، وهم يردون عليهم بما تقدم، فيئس هؤلاء من نصر هؤلاء].

وتخاذل القوم، واتهم بعضهم بعضاً.

وذلك في زمن شات، وليال باردة، كثيرة الرياح، تطرح أبنيتهم، وتكفأ قدورهم إلخ..

ولما طالب أبو سفيان حيي بن أخطب بالأمر، حاول حيي أن يقنع بني قريظة بالعدول عن ذلك، فلم يفلح[1] ورواية القمي تختلف

راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤٣ و٥٤٤.

(١) تجارب الأمم ج ١ ص ١٥٠ ـ ١٥٢ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٨١ ـ ٤٨٤ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤١ ـ ٥٤٥. وتجد هذه القضية بتلخيص أو بدونه في المصادر التالية:
الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٢ وامتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١١ و ١١٢ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٤٢ و ٢٤٣ وتاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦٢ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٥ و ١٨٦ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٣ و ٢٢٤ و ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٠٧ و ٢٠٨ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٤ ونهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٥ ـ ١٧٧ وتاريخ

عن هذه الرواية فلتراجع[١].

ونقول

كان ما تقدم هو النص الذي يذكره أكثر المؤرخين مطولاً أو ملخصاً، لهذه القضية. وتساورنا شكوك حول صحة ذلك. ونرى أن ما جرى لم يكن بهذا الشكل، وذلك بالنظر إلى الأمور التالية:

أولاً: يقول البعض عن دور نعيم: «يمكن أن يكون في ذلك مبالغة، لأن القصة تروى عن نعيم نفسه، بواسطة رواة أشجع»[٢].

ثانياً: بالنسبة لطلب الرهائن تقول رواية نعيم بن مسعود: ان ذلك قد كان بعد نقض بني قريظة للعهد مع النبي. وبعد أن طال الحصار على قريش. وبإيحاء من نعيم بن مسعود بالذات.

لكن هناك نص يقول: إنهم قد طلبوا الرهائن حين كلمهم حيي

الخميس ج ١ ص ٤٩٠ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٠ و ٣١ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٤ و ٦٥ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٣ وجوامع السيرة النبوية ص ١٥١ و ١٥٢ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٧٢ ـ ١٧٤ وشرح الأخبار ج ١ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٤ ـ ٢١٦ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤١ و ٢٤٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٤ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٩ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٤ ـ ١٩٦ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٤٦ ـ ٢١٩ و ٢٢٠ وزاد المعاد ج ٢ ص ١١٨ وبهجة المحافل وشرحه ج ١ ص ٢٦٧ ـ ٢٧١.

(١) راجع: تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٢٤ ففيه أن نعيم بن مسعود حرض أبا سفيان على طلب الرهن من بني قريظة، عشرة رجال من أشرافهم.

(٢) محمد في المدينة ص ١٣٩.

بن أخطب في نقض العهد. فإنهم طلبوا منه: أن يأخذ لهم رهائن من قريش وغطفان تكون عندهم. تسعين رجلاً من أشرافهم[١] وذلك قبل إسلام نعيم.

وقد حاول البعض أن يحل هذا الإشكال؛ فقال: «قد يحتمل أن تكون قريظة لما يئسوا من انتظام أمرهم مع قريش وغطفان بعثوا إلى رسول الله (ص) يريدون منه الصلح على أن يرد بني النضير إلى المدينة»[٢].

وهو حلّ غير مقبول لأنهم بعد أن يئسوا من انتظام أمرهم مع المشركين، وصيرورتهم في الموقف الأضعف، وأصبحوا يخشون على أنفسهم من مغبة غدرهم، وعواقب خيانتهم وماجنته أيديهم، لم يكونوا ليجرؤا على اشتراط إرجاع بني النضير إلى أراضيهم.

أضف إلى ذلك: أن هذا الاحتمال الذي ذكره ابن كثير لا يحل اشكال أن يكون طلب الرهائن قبل إسلام نعيم. حسبما أوضحناه.

وثالثاً: إننا لا نكاد نصدق دعوى نعيم: أن قريظة قد أرسلت بحضوره إلى النبي (ص) تعده بأخذ سبعين، أو تسعين رهينة من أشراف قريش وغطفان ليقتلهم. إذا أن نعيم بن مسعود نفسه كان من غطفان، فهل يجهر بنو قريظة أمام غطفاني ـ مهما كانت درجة إخلاصه لهم ـ بأنهم يريدون أخذ أشراف قومه ليسلموهم إلى القتل؟!.

وهل يمكن أن يصدقه المشركون: أنه قد سمع ذلك حقاً من بني

---

(١) راجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٢٧ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١٣ و ١٠٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠١.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١١٣.

قريظة؟!.

ورابعاً: لو صحت قصة نعيم على النحو المذكور آنفاً، لكان يجب أن نتوقع من حيي بن أخطب موقفاً آخر من بني قريظة. فيتملص من تعهداته لهم، ولا يسلم نفسه إلى القتل بدخوله معهم في حصنهم بعد رحيل قريش، لأن لديه حجة واضحة، وهي أن الإخلال وإفشال ما جمعه من كيد إنما جاء من قِبَل بني قريظة أنفسهم، فإنهم هم الذين أخلّوا بتعهداتهم تجاه قريش، وليس العكس.

وخامساً: هناك العديد من الروايات التي تؤكد على أن النبي الأعظم صلى الله وآله وسلم نفسه هو الذي أفسد العلاقة بين قريش والمشركين من جهة، وبين بني قريظة من جهة أخرى. وليس نعيم بن مسعود بل كان هو الآخر غافلاً عن حقيقة التدبير النبوي في هذا المجال. والنصوص المشار إليها هي التالية:

١ ـ قال ابن عقبة: إن نعيم بن مسعود كان يذيع ما يسمعه من الحديث. فاتفق أنه مرّ بالقرب من رسول الله (ص) ذات يوم عشاءً، فأشار إليه (ص) أن تعال. فجاء، فقال: ما وراءك؟!.

فقال: إنه قد بعثت قريش وغطفان إلى بني قريظة يطلبون منهم أن يخرجوا إليهم فيناجزوك. فقالت قريظة: نعم، فأرسلوا إلينا بالرهن.

قال: فقال له رسول الله (ص): إني مسرٌّ إليك شيئاً فلا تذكره. قال: «إنهم قد أرسلوا إلي يدعونني إلى الصلح، وأرد بني النضير إلى دورهم وأموالهم».

فخرج نعيم بن مسعود عامداً إلى غطفان.

وقال رسول الله (ص): الحرب خدعة. وعسى أن يصنع لنا.

فأتى نعيم غطفان وقريشاً فأعلمهم. فبادر القوم وأرسلوا إلى بني قريظة عكرمة وجماعة معه. فاتفق ذلك ليلة السبت، يطلبون منهم أن يخرجوا للقتال معهم؛ فاعتلت اليهود بالسبت. ثم أيضاً طلبوا الرهن توثقة، فأوقع الله بينهم واختلفوا.[1]

ونعتقد أن هذه الرواية هي الأقرب إلى الصواب. ويشهد لذلك ما يلي.

٢ ـ قال القمي: إنه لما بلغ النبي (ص) نقض بني قريظة للعهد، قال «لعناء، نحن أمرناهم بذلك. وذلك أنه كان على عهد رسول الله (ص) عيون لقريش، يتجسسون خبره»[2].

٣ ـ عن علي عليه السلام قال: الحرب خدعة. إذا حدثتكم عن رسول الله (ص) حديثاً؛ فوالله، لأن أخرّ من السماء أو تخطفني الطير أحب إلي من أن أكذب على رسول الله (ص). وإذا حدثتكم عني، فإن الحرب خدعة.

فإن رسول الله (ص) بلغه: أن بني قريظة بعثوا إلى أبي سفيان: إنكم إذا التقيتم أنتم ومحمد (ص) أمددناكم وأعناكم.

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١١٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٦ و٢١٧ وراجع: الأمالي للشيخ الطوسي ص ٢٦٧ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠٤ و ٤٠٥ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٠.

(٢) تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٦ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٢٣ عنه.

فقام النبي (ص)، فخطبنا فقال: إن بني قريظة بعثوا إلينا: إنا إذا التقينا نحن وأبو سفيان أمددونا وأعانونا.

فبلغ ذلك أبا سفيان، فقال: غدرت يهود، فارتحل عنهم[1].

٤ ـ عن عائشة: كان نعيم رجلاً نموماً، فدعاه (ص)، فقال: إن يهود قد بعثت إلي: إن كان يرضيك عنا: أن نأخذ رجالاً رهناً من قريش وغطفان، من أشرافهم؛ فندفعهم إليك فتقتلهم. فخرج من عند رسول الله (ص)، فأتاهم، فأخبرهم بذلك.

فلما ولى نعيم، قال رسول الله (ص): إنما الحرب خدعة[2].

٥ ـ ويروي الواقدي عن أبي كعب القرظي: أنه لما جاء حيي بن أخطب إلى كعب بن أسد يريده على نقض العهد قال له: لا تقاتل حتى تأخذ سبعين رجلاً من قريش وغطفان رهاناً عندكم.

وذلك من حيي خديعة لكعب حتى ينقض العهد. وعرف أنه إذا نقض العهد لحم الأمر. ولم يخبر حيي قريشاً بالذي قال لبني قريظة، فلما جاءهم عكرمة يطلب منهم أن يخرجوا معه السبت قالوا: لا نكسر السبت، ولكن يوم الأحد. ولا نخرج حتى تعطونا الرهان.

فقال عكرمة: أي رهان؟!

قال كعب: الذي شرطتم لنا.

قال: ومن شرطها لكم؟.

---

(١) راجع: قرب الإسناد ص ٦٣ والبحار ج ٢٠ ص ٢٤٦ عنه وج ١٠٠ ص ٣١ والوسائل ج ١١ ص ١٠٢ و ١٠٣.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٤٧ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٩.

قالوا: حيي بن أخطب.

فأخبر أبا سفيان ذلك، فقال: يا يهودي، نحن قلنا لك كذا وكذا.

قال: لا، والتوراة ما قلت ذلك.

قال أبو سفيان: بل هو الغدر من حيي.

فجعل حيي يحلف بالتوراة ما قال ذلك[١].

وفي نص آخر: قال كعب: يا حيي، لا نخرج حتى نأخذ من كل أصحابك من كل بطن سبعين رجلا رهنا في أيدينا.

فذكر ذلك حيي لقريش ولغطفان، وقيس. ففعلوا، وعقدوا بينهم عقداً بذلك حتى شق كعب الكتاب.

فلما أرسلت إليه قريش تستنصره قال: الرهن. فأنكروا ذلك واختلفوا[٢].

٦ ـ قال نص آخر ما ملخصه: .

حدثني معمر، عن الزهري: أرسلت بنو قريظة إلى أبي سفيان: أن ائتوا فإنا سنغير على بيضة المسلمين من ورائهم، فسمع ذلك نعيم بن مسعود، وكان موادعاً للنبي (ص) فأقبل إلى النبي (ص) فأخبره. فقال (ص): فلعلّنا أمرناهم بذلك.

فقام نعيم بكلمة رسول الله (ص)، وكان نعيم رجلاً لا يكتم

---

(١) المغازي ج ٢ ص ٤٨٥/٤٨٦ وذكر ابن عقبة أيضاً ما فعله عكرمة راجع السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٩.

(٢) المغازي ج ٢ ص ٤٨٦ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٠١

الحديث فلما ولّى من عند رسول الله (ص) ذاهباً إلى غطفان قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ما هذا الذي قلت؟ إن كان أمر من الله تعالى فأمضه، وإن كان هذا رأياً من قبل نفسك، فإن شأن بني قريظة هو أهون من أن تقول شيئاً يؤثر عنك.

فقال (ص): بل هو رأي رأيته؛ الحرب خدعة. ثم أرسل (ص) في أثر نعيم فدعاه، فقال (ص) له: أرأيت الذي سمعتني قلت آنفاً؟ اسكت عنه؛ فلا تذكره فإنما أغراه. فانصرف من عند رسول الله (ص) إلى عيينة ومن معه من غطفان، فقال لهم: هل علمتم محمداً قال شيئاً قط إلا كان حقاً؟! قالوا: لا. قال: فإنه قال لي فيما أرسلت به إليكم بنو قريظة: «فلعلنا نحن أمرناهم بذلك» ثم نهاني أذكره لكم.

فأخبر عيينة بن حصن أبا سفيان بذلك، فقال: إنما أنتم في مكر بني قريظة.

فقال أبو سفيان: نرسل إليهم الآن فنسألهم الرهن؛ فإن دفعوا الرهن إلينا، فقد صدقونا، وإن أبو ذلك فنحن منهم في مكر.

فأرسلوا إليهم يطلبون الرهن ليلة السبت، فامتنعوا من اعطائه لأجل السبت. فقال أبو سفيان ورؤس الأحزاب: هذا مكر بني قريظة؛ فارتحلوا فقد طالت اقامتكم؛ فآذنوا بالرحيل، وبعث الله تعالى عليهم الريح، حتى ما يكاد أحدهم يهتدي لموضع رحله.

فارتحلوا، فولوا منهزمين.

ويقال: إن حيي بن أخطب قال لأبي سفيان: أنا آخذ لك من بني قريظة سبعين رجلاً رهناً عندك حتى يخرجوا فيقاتلوا، فهم أعرف بقتال محمد وأصحابه. فكان هذا الذي قال: إن أبا سفيان طلب الرهن.

قال ابن واقد: وأثبت الأشياء عندنا قول نعيم الأول[1].

ونقول:

إننا نلاحظ: أن هذه الرواية، وكذلك رواية جعل ثلث ثمار المدينة لعيينة بن حصن تظهر: أن سعد بن معاذ وعمر بن الخطاب، يعتقدون أن النبي (ص) يتصرف أحياناً انطلاقاً من هدى الوحي، ووفق التدبير والتسديد الإلهي. ويتصرف أحياناً أخرى، انطلاقاً من رأيه الشخصي، ووفقاً لهواه الذي قد يصيب وقد يخطىء. وهذا بالذات هو ما عبر عنه عمر بن الخطاب هنا.

ثم أظهرت هذه الرواية وتلك: أنه (ص) قد اعترف هو نفسه بهذا الأمر وقرره بصراحة ووضوح.

مع أن نبينا الأكرم أجل من أن يتصرف أو يتكلم بوحي من الهوى وبغير إذن من الله سبحانه. ولا يخرج من بين شفتيه إلا الحق والصدق، والهدى، ولا شيء غير ذلك.

وملاحظة أخرى نسجلها على هذه الرواية وهي: أن نعيم بن مسعود قد أخبر عيينة بن حصن ومن معه من غطفان بمقالة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالطريقة التي لا بد أن يعرفوا منها: أن نعيما هو الذي أخبر النبي (ص) بما أرسلت به قريظة إليهم. وهو ينطوي على مخاطرة واضحة حين يكتشف عيينة وغطفان أن نعيماً قد خانهم وأفشى سرهم، ولن يسكتوا عن هذا الأمر أبداً.

---

(١) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٨٦ و ٤٨٧ والمصنف ج ٥ ص ٣٦٨ و ٣٦٩ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٩٢ و ٢٩٣ عن ابن جرير.

إلا أن يكون الراوي قد نقل أصل الحدث ذاهلاً عن الصياغة الحقيقية التي أظهرها نعيم لقومه.

اللمحات الأخيرة:

١ ـ قد يظهر من بعض النصوص المتقدمة: أن نعيم بن مسعود كان يتجسس للمشركين. وأن رسول الله (ص) كان عارفاً بأمره، فاختاره (ص) ليلقي إليه قوله ذاك الذي انتهى بتخذيل الأحزاب، وشكهم ببعضهم البعض.

٢ ـ ثم إن لنا تحفظا آخر هنا، وهو أن تسليم سبعين رهينة من أشراف قريش وغطفان إلى النبي (ص) ليقتلهم، إنما يعني أن يستقل اليهود من بني قريظة بعداوة الأحزاب وكل من له بهم صلة أو هوى في المنطقة بأسرها، ولا طاقة لليهود بهؤلاء جميعاً. بل إن ذلك يحمل معه أخطار ابادتهم عن بكرة أبيهم. فكيف يمكن أن يصدق المشركون أن يقدم اليهود على أمر كهذا؟!.

وهذا يعني أن ما ذكرته النصوص الأخرى المتقدمة أقرب إلى الصواب. وأولى بالإعتبار.

٣ ـ وقد تقدم في الجزء الثامن: أن نعيم بن مسعود وحسان بن ثابت قد أظهرا تعاطفاً واضحاً مع بني النضير حينما أجلاهم رسول الله (ص) فتصدى لهما أبو عبس وردّ عليهم بقوة[1]، فراجع.

وقد يستفيد البعض من ذلك: أن نعيم بن مسعود كان حينئذٍ مسلماً. فما معنى قولهم هنا: إنه قد أسلم في غزوة الخندق؟!.

---

(١) راجع: المغازي للواقدي ج١ ص ٣٧٥.

التبرير بلا مبرر:

ويقول البعض: «كان لوحدة الصف الإسلامي، وانضباط المسلمين ووقوفهم صفاً واحداً خلف قائدهم أثر كبير في تطور الموقف ونتائجه، سيما وأن خصومهم كانوا على نقيض ذلك. وهذا ما سهل كثيراً مهمة الدبلوماسية الإسلامية، التي اعتمدت اعتماداً رئيسياً على هذه الناحية، فنجحت في تفريق صفوف الأحزاب، وتشتيت شملهم»[1].

ونقول:

إن هذا الكاتب قد نسي المتخاذلين والمنافقين، الذين كانوا يتسللون لواذاً، ويتركون النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويحتجون لانسحابهم من المعركة بحجج واهية. وكان لهم دور رئيس في تخذيل الناس، وبث الرعب والخوف في نفوس الكثيرين منهم. ونسي أيضاً تخاذلهم عن عمرو بن عبد ود ورفاقه، وهم أقل عدداً من أصابع اليد الواحدة. نعم لقد نسي ذلك، وجاء ليدعي أن الصف الإسلامي كان على غاية من القوة والتماسك خلف قائده. مع أنهم يذكرون ـ كما تقدم وسيأتي إن شاء الله ـ أنه صلى الله عليه وآله قد بقي في ثلاث مئة من أصحابه، بل ذكرت بعض النصوص: أنه لم يبق معه سوى اثني عشر رجلاً فقط.

كما أن هذا الكاتب لم يعرف: أن نعيم بن مسعود لم يكن هو بطل القصة. بل كان المحرك و المحور الأساس فيها هو

---

(١) الرسول العربي وفن الحرب ص ٢٥٦.

رسول الله (ص) نفسه حسبما أوضحناه آنفاً.

الشائعات والحرب النفسية:

قد روي عن علي عليه السلام، أنه قال: سمعت رسول الله (ص) يقول يوم الخندق: الحرب خدعة ويقول: تكلموا بما أردتم[١].

وقد اتضح مما تقدم أيضاً: أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يعمل على ايقاع الشك والريب فيما بين الأحزاب بالطريقة الإعلامية الذكية والواعية، حتى تحقق له صلى الله عليه وآله ما أراد، واستطاع من خلال ذلك أن يفشل كل مخططاتهم، ويبطل كل ما بذلوه من جهد وكيد.

وقد تجلت لنا من خلال ذلك أهمية الإعلام الحربي الموجه، وأنه قد يهزم الجيوش، ويثل العروش. إذا كان هادفاً وواعياً وذكياً.

الدعاء والابتهال:

لقد دعا النبي صلى الله عليه وآله على الأحزاب، فاستجاب الله تعالى له. يقول المؤرخون والمحدثون: إنه (ص) أتى مسجد الأحزاب يوم الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء. فدعا عليهم يوم الأربعاء بين الصلاتين، قال جابر: فعرفنا البشر في وجهه[٢].

---

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ١٠٢ وفي هامشه عن التهذيب ج ٢ ص ٥٣.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤٠ وراجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩٠ و ٤٩١ وإعلام الورى ط دار المعرفة ص ١٠٠ والكافي ط دار الأضواء ج ٨

وفي نص آخر: انتظر (ص) حتى زالت الشمس، ثم قام في الناس، فقال: يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية؛ فإن لقيتم العدو، فاصبروا، واعلموا: أن الجنة تحت ظلال السيوف[1].

ثم قال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم، وانصرنا عليهم وزلزلهم[2].

وعن ابن المسيب أنه (ص): لما اشتد عليهم الحصار قال: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تعبد»[3].

ص ٢٣٣ والبحار ج ٢٠ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٢ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٨٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٤ وفيه: «الأحاديث التي جاءت بذم يوم الأربعاء محمولة على آخر أربعاء في الشهر».

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٣.

(٢) راجع المصادر التالية: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤١ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١١ عن الصحيحين، وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢٢ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٣ ومستدرك الوسائل ج ١١ ص ١٠٩ و ١١٠ ط مؤسسة آل البيت، والجعفريات ص ٢١٨ وتيسير المطالب ص ٢٤٦ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٧٢ وراجع: بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٨ وصحيح مسلم ج ٥ ص ١٤٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٤ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٤ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٥٠ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٨٧ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩٠، ودلائل النبوة للبيقهي ج ٣ ص ٤٥٦ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨ و ١٢ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٥.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤١ وراجع: دلائل النبوة للبيهقي ج ٣

وعند الراوندي: أنه (ص) صعد مسجد الفتح، فصلى ركعتين، ثم قال: اللهم إن تهلك هذه العصابةِ لم تعبد في الأرض بعدها، فبعث الله ريحاً قلعت خيم المشركين إلخ.. إلى أن قال: ثم رجع من مسجد الفتح إلى معسكره، فصاح بحذيفة بن اليمان، وكان قد ناداه قريباً ثلاثا إلخ... ثم ذكر إرساله لكشف خبرهم[١].

وقد ذكرت أدعية أخرى عديدة له (ص) في يوم الأحزاب فلتراجع في مصادرها[٢].

ولعله صلى الله عليه وآله قد دعا بذلك كله في مواقف مختلفة.

وآخر ما نذكره نحن هنا:

ما عن الخدري قال: قلنا: يا رسول الله، هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر.

قال: نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا.

قال: فصرف الله تعالى ذلك[٣].

ص ٤٠٣ و ٤٠٤ وأنساب الأشراف ج ١ ص ٣٤٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٠٠ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٧٧ والمصنف للصنعاني ج ٥ ص ٣٦٧.

(١) الخرائج والجرائح ج ١ ص ١٥٦ والبحار ج ٢٠ ص ٢٤٨ وراجع ص ٢٣٠ وتفسير القمي، ح ٢ ص ١٨٦ وغير ذلك.

(٢) راجع بحار الأنوار ج ٩١ ص ٢١٢ و ٢١٣ ومهج الدعوات ص ٧٠ و ٧١ والوسائل ج ١٠ ص ٢٧٦ و٢٧٧.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤١ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١١ عن أحمد، وابن أبي حاتم وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨ و ١٢ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٣ وفتح الباري ج ٧

ونقول:

إن لنا هنا وقفات:

احداها: إن رواية عبدالله بن أبي أوفى المتقدمة موضع ريب وشك؛ لأن المسلمين لم يتمنوا لقاء العدو آنئذٍ، بل كان الحال يزداد شدة وصعوبة عليهم يوماً بعد يوم، وكان الخوف مسيطراً على الكثيرين؛ فإن كان النبي (ص) قد قال كلاماً من هذا النوع، فلا بد أن يكون قد قاله في مناسبة أخرى، غير مناسبة الخندق.

أضف إلى ذلك: أننا نستبعد كثيراً: أن يقول النبي (ص) كلاماً من هذا النوع؛ وذلك لما يحمل في طياته من تضعيف وتخذيل لم يكن النبي (ص) ليقدم عليه في حالات الحرب.

الثانية: إننا نجد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يلتجىء للصلاة وللدعاء، ويوجه الناس إلى الله سبحانه في هذه الظروف الحرجة، التي يكون فيها الإنسان أكثر من أي وقت مضى مؤهلاً للتفاعل مع الحالات الروحية.

يساعد على ذلك أنه في هذه الظروف بالذات تكون نظرته إلى الأمور واقعية وسليمة، لا تشوبها نوازع نفسية، ولا أهواء ولا غيرها مما من شأنه أن يضخم الأمور له، أو يمنعه من رؤيتها على حقيقتها.

وذلك لأنه حين تصبح القضية لها مساس بمصيره وبحياته، فإنه لا بد له من أن يحدق بها، ويكتشف كل خباياها وخفاياها، وتتبلور فيه حساسية خاصة تجاه أية بادرة يلاحظها؛ إذا كانت تصب في نفس

ص ٣٠٩.

الإتجاه الذي يسير فيه، أو تؤثر على الواقع الذي يتعامل معه، سلباً كان ذلك التأثير أو ايجاباً.

وإذا كان ثمة ارتباط في هذه الناحية بالذات بالغيب، وبالله سبحانه على الخصوص؛ فإن التأثير يصبح أكثر عمقاً وأصالة وشمولية، لأنه يرتكز على الناحية العقيدية والإيمانية والشعورية، ومداها، قبل أن يدخل في الحسابات المادية وفي نطاقها.

فإذا كانت الناحية الإيمانية تقوم على أساس فكري راسخ وتستند إلى القناعة العقيدية من خلال الدليل الصحيح والقاطع، فإنها تستمد حينئذ من اللامحدود، وتستند إلى المطلق، الذي يملك القدرة على استيعاب المحدود، مهما كانت قوته، ومهما اشتد وتعاظم خطره.

الثالثة: من الواضح: أن التربية الروحية بحاجة إلى القول وإلى العمل، فإن ذلك يفيد في نيل درجات القرب، ويؤثر أيضاً في التصفية والتزكية، بما توحي به الكلمة عن معانٍ، وتنشره من ظلال روحية، وتثيره من نسمات ايمانية أنيسة ودافئة.

كما أن العمل العبادي بما يمثله من تجسيد للحالة الروحية والنفسية يستطيع أن يرسخ الوعي في المشاعر وفي الخواطر، فتثير لديه وعياً جديداً، وأملاً وليداً.

الريح والملائكة:

قد عرفنا فيما تقدم: أن رسول الله (ص) قد دعا على الأحزاب، في مسجد الأحزاب، يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء، فاستجيب له يوم الأربعاء.

١ ـ قالوا: فلما كان ليلة السبت بعث الله الريح على الأحزاب، حتى ما يكاد أحدهم يهتدي لموضع رحله، ولا يقر لهم قدر ولا بناء.

وقام رسول الله (ص) يصلي إلى أن ذهب ثلث الليل. وكذلك فعل ليلة قتل كعب بن الأشرف، وكان إذا حَزَبه أمر أكثر من الصلاة[١].

وكان ذلك في أيام شاتية[٢] وبرد شديد[٣].

وقال البعض: أرسل الله تعالى عليهم الريح، فهتكت القباب، وكفأت القدور، ودفنت الرجال، وقطعت الأوتاد، فانطلقوا لايلوي أحد على أحد، وأنزل الله إلخ»[٤].

وكانت الريح التي أرسلها الله سبحانه عليهم هي ريح الصبا؛ فأكفأت قدورهم، وطرحت آنيتهم، ونزعت فساطيطهم[٥].

وفي نص آخر؛ بعث الله عليهم ريحاً وظلمة، فانصرفوا هاربين لا يلوون على شيء، حتى ركب أبو سفيان ناقته وهي معقولة. فلما

---

(١) امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٨ وراجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٨٨ وراجع: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٨ و ١٢ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٤.

(٢) تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦٢ والمختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٣٥.

(٣) الجامع للقيرواني ص ٢٨١.

(٤) سبل الهدى والرشاد ٤ ص ٥٤٥ وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٦ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٠ و ١٢.

(٥) راجع: البحار ج ٢٠ ص ١٩٢ عن مجمع البيان ج ٨ ص ٣٣٩ وراجع: تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩١ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٢.

بلغ رسول الله (ص) ذلك قال: عوجل الشيخ[١].

ويقول نص آخر: «كان الله عز وجل قبل رحيلهم قد بعث عليهم بالريح بضع عشرة ليلة، حتى ما خلق الله لهم بيتاً يقوم، ولا رمحاً، حتى ما كان في الأرض منزل أشد عليهم ولا أكره إليهم من منزلهم ذلك، فأقشعوا والريح أشد ما كانت، معها جنود الله لا ترى. كما قال الله عز وجل إلخ.»[٢].

ولكن هذا النص الأخير لا ينسجم ما تقدم، وما سيأتي في حديث حذيفة أيضاً: من أن إرسال الريح عليهم إنما كان بعد دعاء النبي (ص) عليهم، وذلك بعد قتل عمرو بن عبد ود. وأن ذلك لم يدم إلا مدةً يسيرة انتهت بفرارهم. بل لقد أخبرهم النبي (ص) ليلة الأحزاب بالريح، كما صرحت به النصوص.

كما أننا لا نرى مبرراً لأن يصمدوا أمام هذه الريح العاتية هذه المدة الطويلة.

والنصوص التاريخية حول ما صنعته الريح بهم كثيرة، وسيأتي في حديث حذيفة المزيد.

أما بالنسبة لارسال الملائكة، فإن النصوص فيه أيضاً كثيرة.

ويذكر المفسرون أن آية قرآنية قد ذكرت إرسال الريح والملائكة على الأحزاب، وهي قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود؛

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠ وراجع الخرائج والجرائح منشورات مصطفوي ص ١٥٢ والبحار. ج ٢٠ ص ٢٤٩.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠٦.

فأرسلنا عليهم ريحاً، وجنوداً لم تروها. وكان الله بما تعملون بصيراً﴾[١].

ويظهر من بعض النصوص: أن ما فعلته الريح هو نفس ما فعلته الملائكة، وأن حركة الريح هي حركة الملائكة بالذات، فهو يقول:

وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم، وكانوا ألفاً. ولم تقاتل يومئذٍ، وسمعوا قعقعة السلاح، ولكن قلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، واطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فارتحلوا، وتركوا ما استثقلوه من متاعهم[٢].

١ ـ وقيل: إن الملائكة لم يقاتلوا يومئذٍ، بل كانوا يشجعون المؤمنين، ويجبنون الكافرين[٣].

٢ ـ في رواية: أن الملائكة قطعت أوتاد الخيام، وأطفأت نيرانهم، ورأى الجيش أنه لا خلاص لهم إلا بالفرار[٤].

٣ ـ قال البعض: وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم حتى كان سيد كل حي يقول: يا بني فلان هلم، حتى إذا اجتمعوا عنده

---

(١) سورة الأحزاب / ٩.

(٢) راجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٨ عن ابن ظفر في الينبوع، والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٠ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٤ وراجع، سعد السعود ص ١٣٨.

(٣) مجمع البيان ج ٨ ص ٣٣٩ والبحار ج ٢٠ ص ١٩٢ وراجع: تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩١.

(٤) حبيب السير ج ١ ص ٣٦٤.

قال: النجاة النجاة، أتيتم[١]، لما بعث الله عليهم من الرعب.

٤ ـ قال البلاذري: «وغشيتهم الملائكة تطمس أبصارهم»[٢].

٥ ـ قيل: إنما بعث الله الملائكة تزجر خيل العدو وابلهم؛ فقطعوا مدة ثلاثة أيام في يوم واحد فارين منهزمين[٣].

٦ ـ جاءت الملائكة، فقالت: يا رسول الله، إن الله قد أمرنا بالطاعة لك، فمرنا بما شئت.

فقال: زعزعي المشركين وأرعبيهم، وكونوا من ورائهم.. أي فهي قد نفثت الرعب في قلوبهم[٤].

٧ ـ وقالوا إن الملائكة لم تقاتل يومئذٍ[٥].

مهمة حذيفة بن اليمان:

وبعد أن بقي النبي (ص) في اثني عشر رجلاً[٦]، أو في ثلاث

---

(١) راجع: بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٩ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤٦ ولم يذكر الملائكة. والسيرة الحلبية ج٢ ص ٣٢٨ وسعد السعود ص ١٣٨.

(٢) أنساب الأشراف ص ٣٤٥ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤٦.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤٦.

(٤) راجع الخرائج والجرائح ج ١ ص ١٥٦ و ١٥٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢٤٨ وراجع ص ٢٣٠ وراجع تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٦ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٦.

(٥) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤٥ عن البيهقي، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٦ وراجع السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٠.

(٦) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣١ وتلخيصه للذهبي بهامشه.

مئة رجل ـ كما في روايات أخرى عن حذيفة ـ، يحدثنا حذيفة عن تلك الليلة التي قام الرسول فيها على التل، الذي عليه مسجد الفتح في ليلة ظلماء ذات قرة[١].

وكان المسلمون صافين قعود، والأحزاب فوقهم، وقريظة أسفل منهم، يخافونهم على ذراريهم، ونحن نلخص كلامه هنا؛ فقد قال:

ما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة، ولا أشد ريحاً منها، في أصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه.

فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله، ويقولون: «إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة» فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، فيتسللون، ونحن ثلاث مئة، أو نحو ذلـك.

فطلب النبي أن يأتيه أحدهم بخبر القوم، ثلاث مرات، فلم يجبه أحد من شدة الجوع والقر والخوف، فقال أبو بكر: يا رسول الله، ابعث حذيفة.

فلما كلم النبي حذيفة تقاصر إلى الأرض، كراهية أن يقوم فأمره (ص) بالقيام، فقام، فقال له (ص): إنه كائن في القوم خبر، فأتني بخبر القوم. وفي نص آخر: إن الله قد أخبرني: أنه قد أرسل الرياح على قريش فهزمهم.

فشكى إليه البرد، فقال له (ص): لابأس عليك من حر ولا برد حتى ترجع إلي. فذكر له أنه يخاف الأسر والتمثيل به فقال: إنك لن تؤسر، فخرج حذيفة، فدعا له النبي (ص)، فذهب الفزع، والبرد عنه.

---

(١) إعلام الورى ط دار المعرفة ص ١٠١ والكافي ج ٨ ص ٢٧٨ والبحار ج ٢٠ ص ٢٦٨ وراجع ص ٢٣٠ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٨٦.

قال حذيفة: فمضيت كأنما أمشي في حمام[١]. فلما وليت دعاني، فقال: يا حذيفة، لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني.

وفي رواية: أنه (ص) قال له: إئت قريشاً، فقل: يا معشر قريش، إنما يريد الناس إذا كان غداً، أن يقولوا: أين قريش؟ أين قادة الناس؟ أين رؤوس الناس، فيقدموكم، فتصلوا القتال، فيكون القتل فيكم.

ثم ائت بني كنانة، فقل: (وعلمه ما يشبه الكلام السابق لقريش، وكذا الحال بالنسبة لقيس).

فذهب حذيفة فلما دنا منهم رأى أدهم ضخماً عند نار توقد، وحوله عصبة، وقد تفرق الأحزاب عنه، وهو يقول: الرحيل الرحيل.

ولم يكن حذيفة يعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزع سهماً ليرميه. فذكر وصية النبي (ص) له، فأمسك.

قال: فلما جلست فيهم أحس أبو سفيان أنه قد دخل فيهم غيرهم، فقال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه.

فضربت بيدي على يد الذي عن يمني، فأخذت بيده، فقلت: من أنت؟! قال: معاوية بن أبي سفيان. ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص. وفي نص آخر: سهيل بن عمرو وفي آخر: سبحان الله أما تعرفني؟! أنا فلان بن

---

(١) في تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢٣١: أنه بعد أن اجتاز الخندق شعر كأنه يمشي في حمام وراجع: الخرائج والجرائح ج ١ ص ١٥٧.

فلان؛ فإذا رجل من هوازن. وعند الراوندي: خالد بن الوليد. فعلت ذلك خشية أن يفطن بي، فبدرتهم بالمسألة.

ثم تلبثت فيهم هنيهة، وأتيت بني كنانة وقيساً، وقلت ما أمرني به رسول الله (ص).

ثم دخلت في العسكر؛ فإذا أدنى الناس مني بنو عامر. ونادى عامر بن علقمة: يا بني عامر، إن الريح قاتلي وأنا على ظهر، وأخذتهم ريح شديدة. وصاح بأصحابه. فلما رأى ذلك أصحابه جعلوا يقولون: يا بني عامر، الرحيل الرحيل، لا مقام لكم.

وإذا الريح في عسكر المشركين ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم، وفرشهم، والريح تضربها، فلما دنا الصبح نادوا أين قريش؟ أين رؤس الناس؟.

فقالوا: أيهات، هذا الذي أتينا به البارحة.

فقالوا: أين كنانة؟.

فقالوا: أيهات هذا الذي أتينا به البارحة.

أين قيس؟ أين أحلاس الخيل؟.

فقالوا: أيهات، هذا الذي أتينا به البارحة.

فلما رأى ذلك أبو سفيان، أمرهم بأن تحملوا. فتحملوا، وإن الريح لتغلبهم على بعض أمتعتهم. حتى رأيت أبا سفيان وثب على جمل له معقول فجعل يستحثه ولا يستطيع أن يقوم حتى حل بعد.

فعاد إلى النبي، فلما انتصف به الطريق التقى بعشرين فارساً، أو بفارسين فقط، فقالا: أخبر صاحبك: أن الله تعالى كفاه القوم بالجنود

والريح. فرجع إلى النبي (ص) فوجده يصلي، وعاد إليه البرد والقر، فسدل عليه فضل شملته فنام، ثم أخبره: أنه تركهم يرحلون.

وذكر ابن سعد: أن عمرو بن العاص وخالد بن الوليد أقاما في ماءتي فارس ساقة للعسكر، ورداءاً لهم، مخافة الطلب[١].

نص آخر لقضية حذيفة:

إننا نذكر نصاً مختصراً آخر لقضية حذيفة، ثم نحيل القارىء إلى المصادر التي ذكرت هذه القضية بتفصيل أو بإجمال ليراجعها من اراد الاستقصاء والمقارنة.

فنقول:

بعد أن ذكر المؤرخون ما قام به نعيم بن مسعود من كيد بين قريظة، وقريش وغطفان ـ وإن كنا نحن قد سجلنا فيما سبق تحفظات قوية عليه ـ قالوا:

«وتخاذل القوم، واتهم بعضهم بعضاً، وذلك في زمن شات، وليال باردة كثيرة الرياح، تطرح أبنيتهم، وتكفأ قدورهم. وضاق ذرع القوم، وبلغ رسول الله (ص) اختلاف القوم، وما هم فيه من الجهد، فدعا حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم، لينظر ما فعل القوم ليلاً.

قال حذيفة: فذهبت فرأيت من الرياح أمراً هائلاً، لا يقر لهم

---

(١) راجع هذا النص الذي حاولنا تلخيصه في سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤٧ ـ ٥٤٩ عن الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، وأبي نعيم في دلائلهما، ومسلم، وابن عساكر، وابن إسحاق، وستأتي بقية المصادر في الهامش الذي بعد التالي وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٢ و ٢٨٣.

ناراً ولا بناءً.

فقام أبو سفيان بن حرب، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ جليسه.

قال: فبادرت وأخذت بيد الرجل الذي إلى جانبي، فقلت: من أنت؟!.

قال: أنا فلان بن فلان.

ثم قال أبو سفيان: إنكم يا قوم ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم ما نكره، ولقينا من الجهد والشدة، وهذه الريح ما ترون، فارتحلوا؛ فإني مرتحل[١].

ثم قام إلى جمله، وقام الناس معه. (في نص آخر: قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم).

وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانصرفوا إلى بلادهم.

وتفرق ذلك الجمع من غير قتال، إلا ما كان من عدة يسيرة، اتفقوا على الهجوم إلخ. ثم ذكر قتل علي عليه السلام لعمرو.. ثم قال: وانتقض ذلك الجمع والتدبير كله[٢].

---

(١) وفي نص آخر أنه قال: «إن كنا نقاتل أهل الأرض فنحن بالقدرة عليه، وإن كنا نقاتل أهل السماء كما يقول محمد؛ فلا طاقة لنا بأهل السماء إلخ» الخرائج والجرائح ص ١٥٧ والبحار ج ٢ ص ٢٤٨ عنه.

(٢) تجارب الأمم ج ٢ ص ١٥٢ و ١٥٣.

وحديث حذيفة هذا موجود بايجاز أو بتفصيل في المصادر التالية: امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٩ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٤ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٤٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١٣ ـ ١١٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٧ ـ ٢٢١ وإعلام الورى ط دار المعرفة

وذكرت المصادر: أنه (ص) نادى حذيفة مرتين، فلم يجبه، وأجابه في الثالثة. فقال له: تسمع صوتي ولا تجيبني؟! فاعتذر عن عدم اجابته بالخوف والبرد والجوع[1].

ص ١٠١ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٥ و ٦٦ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٤٣ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٤ و ٣٤٥ ونهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٧ و ١٧٨ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٨٩ و ٤٩٠ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩١ و ٤٩٢ والوفا ج ٢ ص ٦٩٤ ودلائل النبوة لأبي نعيم ص ٤٣٣ ـ ٤٣٥ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٩٥ ـ ١٩٧ وبحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢٦٨ و ٢٣٠ و ٢٣١ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٤٩ ـ ٤٥٥ وفتح الباري ج ٧ ص ٣٠٧ و ٣٠٨ و ٣١٢ والكافي ج ٨ ص ٢٧٨ و ٢٧٩ وتفسير القمي ج ٢ ص ١٨٧ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣١ وتلخيصه بهامشه وصححاه، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد باب غزوة الأحزاب والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤٣ و ٢٤٩/ ٢٥٠ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٠ ـ ١٢ وبهجة المحافل وشرحه ج ١ ص ٢٧٠ و ٢٧١ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٣ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٧٤ و ١٧٥ والسنن الكبرى للبيهقي ج ٩ ص ١٤٨/ ١٤٩ وكنز العمال ج ١٠ ص ٢٨٥.

(١) راجع: تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢٣٠ والخرايج والجرائح ج ١ ص ١٥٧ وراجع: السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٦ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٨٩ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٠ و ١١ ولم تصرح المصادر الثلاثة الأخيرة بأنه (ص) ناداه باسمه ثلاث مرات وكذا في المصادر التالية: السنن الكبرى للبيهقي ج ٩ ص ١٤٨/ ١٤٩ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٤٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١٣ و ١١٤ وراجع: مجمع البيان ج ٨ ص ٢٤٤ و ٢٤٥ وتاريخ الخميس ١ ص ٤٩١ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٨ و ٢٠٩ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٥ والاكتفاء للكلاعي ج ٢ ص ١٧٤ و ١٧٥ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤٢ و ٢٤٣ و ٢٤٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٧ ـ ٢١٩.

وثمة نص آخر يقول: إنه (ص) أراد أن يبعث رجلاً من أصحابه يعبر الخندق فيعلم ما خبر القوم، فأتى رجلاً فطلب منه ذلك فاعتل، فتركه. وأتى آخر، فاعتل أيضاً فتركه، وحذيفة، يسمع، ولكنه صامت لا يتكلم، فأتاه (ص) وهو لا يدري من هو، فسأله إن كان قد سمع ما جرى، فأجاب بالإيجاب، ثم اعتذر عن عدم مبادرته لإجابة طلبه (ص) بالجوع والضر. ثم أمره (ص) بالذهاب إلخ.[1]

ونقول:

إننا لا نستطيع أن نؤكد صحة قضية حذيفة بما لها من خصوصيات وتفاصيل مذكورة آنفاً، وإن كنا لا نمنع من أن يكون النبي (ص) قد أرسله لكشف خبر الأحزاب، فعاد إليه فأخبره بأنهم بدأوا بالرحيل..

وشكنا فيما عدا ذلك من تفاصيل وأحداث مزعومة، يستند إلى عدة أمور، نذكر منها.

أولاً: إننا نجد حذيفة يذكر أنه رأى أبا سفيان في ضوء النار الموقدة، وهو يستدفىء بها مع أصحابه، وأراد أن يرميه بسهم، لولا أنه ذكر وصية النبي (ص) له. وقد رآه رجلاً ضخماً أدهما.. فكان من الوضوح له أنه استطاع أن يميز لونه، ويعرف أنه أدهم.

ولكنه يأتي ويجلس بين نفس تلك العصبة التي حول أبي سفيان. ولا يستطيع أن يراه أحد من تلك العصبة، ولا أحس به. رغم وجود النار والنور. ورغم احساس أبي سفيان بأن رجلاً غريباً دخل بينهم. وإذا كانت الظلمة شديدة إلى هذا الحد، فكيف استطاع حذيفة

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٠٦ و ٤٠٧.

أن يجد مكانه بينهم دون أن يصطدم ولو جزئياً بواحد منهم؟!.

وكيف استطاع حذيفة أن يرى العصبة وأبا سفيان، ويرى تفرق الأحزاب عنه. ثم لا يراه أحد، ولا يحس به أي منهم على الاطلاق؟.

وثانياً: إذا كان أبو سفيان حين ورود حذيفة ينادي: الرحيل الرحيل، وكذلك كان عامر بن علقمة بن علاثة ينادي الرحيل الرحيل، لا مقام لكم، فما معنى أن يقوم حذيفة بدوره في تخذيلهم، وفق ما علمه الرسول إياه.

وثالثاً: هناك اختلاف في نصوص الرواية. ونذكر تناقضاً صريحاً واحداً هنا وهو واقع في الرواية التي ذكرناها أولاً نفسها، فهي تقول: إن الريح كانت في عسكر المشركين، ما تجاوز عسكرهم شبراً. مع أنه قد جاء في بداية الرواية نفسها قوله: «ما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة، ولا أشد ريحاً منها، في أصوات ريحها مثل الصواعق؛ فجعل المنافقون يستأذنون إلخ..».

ورابعاً: تقول الرواية التي ذكرناها أولاً: إن النبي (ص) قد أمر حذيفة بأن يأتي قريشاً فيقول: يا معشر قريش، إنما يريد الناس إلخ... ثم يأتي كنانة فيقول كذا وكذا، ثم يأتي قيساً فيقول كذا وكذا..

وهذا لا ينسجم مع عنصر السرية الذي كان مطلوباً لحذيفة في ظروف كهذه. كما لا ينسجم مع ما جرى بينه وبين جليسيه حين طلب أبو سفيان أن يعرف كل منهم جليسه.

وخامساً: ألف: إن بعض المصادر ذكرت: أنه لما سأل حذيفة

جليسه عن اسمه. قال: سبحان الله، أما تعرفني؟! أنا فلان بن فلان، فإذا رجل من هوازن.

فما معنى تعجب هذا الرجل؟ فهل رأى حذيفة وجهه في ذلك الظلام الدامس ولم يعرفه، فأثار ذلك تعجبه؟!

ب: كما أننا نعرف أن حذيفة قد حضر حرب أحد، وكان أبو سفيان قائد جيش المشركين في أحد، فهل لم يكن قد رآه آنئذٍ، ليقول هنا: إنه لم يكن يعرف أبا سفيان حتى ذلك الوقت؟!.

وحين رآه واقفاً يوقد النار ويستدفيء بها كيف عرف أنه أبو سفيان، فلعله رجل آخر من هذا الجيش الكثيف.

ج - تذكر رواية الراوندي: أن حذيفة قال: «فصرت إلى معسكرهم فلم أجد هناك إلا خيمة أبي سفيان، وعنده جماعة من وجوه قريش، وبين أيديهم نار تشتعل مرة، وتخبو أخرى، فانسللت فجلست بينهم»[(١)].

والسؤال هو: لماذا لم يجد إلا خيمة أبي سفيان، فهل استعصت هذه الخيمة فقط على الريح التي أرسلها الله سبحانه عليهم؟!. ودمرت خيام جيش يعد بالألوف؟!

وسادساً: إن البعض قد أورد ما يشبه هذه الرواية، لكنه يجعل بطلها الزبير بن العوام، فهو يقول:

قال رسول الله (ص) يوم الأحزاب: من يأتينا بخبر القوم؟!.

فقال الزبير: أنا.

---

(١) الخرائج والجرائح ج ١ ص ١٥٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢٤٨ عنه.

ثم قال: من يأتينا بخبر القوم؟!

فقال الزبير: أنا.

ثم قال: من يأتينا بخبر القوم؟

فقال الزبير: أنا.

ثم قال: إن لكل نبي حواري، وإن حواريي الزبير[١].

ونقول: إذا كان هذا صحيحاً فلماذا ترك الزبير، ولم يرسله. وأرسل حذيفة؟!.

فأجاب البعض: بأن حذيفة إنما ذهب ليأتيه بخبر المشركين. أما الزبير فقد كشف خبر بني قريظة[٢].

ولكنه كلام لا يصح. لأن ابن الديبع قد صرح بأن الزبير هو الذي سمع أبا سفيان ينادي، ويأمرهم بسؤال جلسائهم عن أنفسهم. قال الزبير: فبدأت بجليسي وقلت: من أنت؟[٣].

وقد حاول دحلان أن يجيب على ذلك التساؤل بطريقة أخرى، فقال: .

---

(١) حدائق الأنوار ج ٢ ص ٥٩٠ و ٥٩١ والسنن الكبرى للبيهقي ج ٩ ص ١٤٨ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٥ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٣١ وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢٢ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٣ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٤٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٦ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٠ وبهجة المحافل وشرحه ج ١ ص ٢٧٠ عن البخاري ومسلم، وسنن الترمذي، وابن ماجة، وفي الأخير عن علي.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٦٢ و ٥٦٣ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٣ وفتح الباري ج ٧ ص ٣١٢.

(٣) حدائق الأنوار ج ٢ ص ٥٩٠ و ٥٩١.

«فدعا حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما وأرسله كما سيأتي، ولم يرسل الزبير (رض) مع سؤاله ذلك ثلاثاً؛ لأن له حدة وشدة، لا يملك معها نفسه أن يحدث بالقوم شيئاً مما نهى عنه حذيفة فيما يأتي؛ فاختار ارسال حذيفة لذلك. هذا هو التحقيق عند ائمة السير. وهو أن المرسل إنما هو حذيفة (رض). ونسب بعضهم الارسال إلى الزبير، وهو اشتباه. وإنما إرسال الزبير (رض) في كشف خبر بني قريظة لما نقضوا العهد»[1] انتهى.

ونقول:

قد تقدم: أن ارسال الزبير إلى بني قريظة لا يصح أيضاً، فراجع.

وأما أنه (ص) عدل عن الزبير إلى حذيفة لأجل حدة كانت في الزبير، فإنما هو على فرض تسليم أصل القصة. وهي مردودة جملة وتفصيلاً؛ لأن حذيفة يصرح بأنه (ص) ناداهم ثلاثاً فلم يجب منهم أحد، وهذا يكذب أن يكون الزبير قد أجاب ثلاث مرات.

حقيقة القضية:

ونعتقد: أن ما يذكر للزبير هنا إنما هو من مجعولات محبيه، لينال وساماً عن غير جدارة ولا استحقاق.

أما حذيفة، فقد يكون النبي صلى الله عليه وآله أرسله لكشف خبر المشركين. فراقبهم عن بعد، أو عن قرب، وسمع بعض

---

(١) السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٨.

أقوالهم. ثم زاد الرواة على ذلك ما شاؤا حتى أخرجوا القضية عن حدود المعقول والمقبول.

رسالة أبي سفيان للنبي (ص) قبل الرحيل:

وكتب أبو سفيان إلى النبي (ص) رسالة يقول فيها: لقد سرت إليك في جمعنا. وإنا نريد ألاّ نعود إليك أبداً حتى نستأصلك، فرأيتك قد كرهت لقاءنا وجعلت مضايق وخنادق، فليت شعري من علمك هذا؟.

فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد، تبقر فيه النساء.

وبعث بالكتاب مع أبي أسامة الجشمي. فقرأه له أبي بن كعب. فكتب إليه (ص):

أما بعد، فقديماً غرك بالله الغرور، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا في جمعكم، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى.

وأما قولك: من علمك الذي صنعنا من الخندق، فإن الله تعالى ألهمني ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك. وليأتين عليك يوم تدافعني بالراح. وليأتين عليك يوم اكسر فيه اللات والعزى، واساف، ونائلة، وهبل حتى أذكرك ذلك[1].

---

(١) المغازي ج ٢ ص ٤٩٢ والامتاع ج ١ ص ٢٤٠ وخاتم النبيين ج ٢ ص ٩٤٢ وراجع: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٢ وراجع أنساب الأشراف ج ١ ص ٣٤٤ وراجع النزاع والتخاصم ص ١٧ و ١٨ والغدير ج ٣ ص ٢٥٢ عنه.

وثمة نص آخر لكتاب كتبه أبو سفيان فليراجع[١].

الرحيل الذليل:

وذكر الواقدي: أن أبا سفيان جلس على بعيره وهو معقول، ثم ضربه، فوثب على ثلاث قوائم، فما أطلق عقاله إلا بعد ما قام. فناداه عكرمة: إنك رأس القوم وقائدهم، تقشع؟ وتترك الناس؟.

فاستحيا، فأناخ جمله ونزل عنه، وأخذ بزمامه وهو يقوده. وقالوا: ارحلوا قال، فجعل الناس يرتحلون وهو قائم حتى خف العسكر.

ثم قال لعمرو بن العاص: يا أبا عبدالله، لا بد لي ولك أن نقيم في جريدة من خيل بازاء محمد وأصحابه؛ فإنا لا نأمن أن نطلب حتى ينفذ العسكر.

فقال عمرو: أنا أقيم.

وقال لخالد بن الوليد: ما ترى يا أبا سليمان؟.

فقال: أنا أيضاً أقيم.

فأقام عمر وخالد في ماءتي فارس وسار العسكر إلا هذه الجريدة على متون الخيل.

وأقامت الخيل حتى السحر، ثم مضوا فلحقوا الأثقال والعسكر مع ارتفاع النهار بملل.

ولما ارتحلت غطفان وقف مسعود بن رخيلة في خيل من

---

(١) راجع: المغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٩٣ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٣١.

أصحابه، ووقف الحارث بن عوف في خيل من أصحابه، ووقف فرسان من بني سليم في أصحابهم، ثم تحملوا في طريق واحدة، وكرهوا أن يتفرقوا حتى أتوا على المراض (موضع على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة) ثم تفرقوا إلى محالهم[1].

لكن الراوندي يقول: إن أبا سفيان قال لخالد:

إما أن تتقدم أنت فتجمع إلي الناس، ليلحق بعضهم ببعض، فأكون على الساقة، وإما أن أتقدم أنا وتكون على الساقة.

قال بل أتقدم أنا وتتأخر أنت.

فقاموا جميعاً، فتقدموا، وتأخر أبو سفيان فخرج من الخيمة، وأنا اختفيت في ظلها، فركب راحلته وهي معقولة من الدهش الذي كان به، فنزل يحل العقال، فأمكنني قتله، فلما هممت بذلك تذكرت إلخ[2].

فالرواية المتقدمة تقول: إن خالداً قد بقي هو وعمرو بن العاص في جريدة من مائتي فارس، وهذه تقول: إن خالداً تقدم على أبي سفيان، وإبن العاص حيث بقي أبو سفيان على ساقة العسكر، وابن العاص في الجريدة؛ التي تأخرت.

ومهما يكن من أمر، فقد روي عن قتادة: أن سيد كل حي كان يقول: يا بني فلان هلمّ إلي، حتى إذا اجتمعوا عنده قال: النجاة،

---

(١) المغازي ج ٢ ص ٤٩٠ وأشار إلى ذلك في عيون الأثر ج ٢ ص ٦٦، وراجع: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١١ و ١٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٧ وراجع: امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٩.

(٢) الخرائج والجرائح ج ١ ص ١٥٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢٤٨ عنه.

النجاة أتيتم. لما بعث الله عليهم من الرعب، وتركوا ما استثقلوه من متاعهم[١].

ويقول البلاذري: بعد أن ذكر: أن الله سبحانه قد أرسل عليهم ريحاً صفراء، فملأت عيونهم فداخلهم الفشل والوهن، وانهزم المشركون وانصرفوا إلى معسكرهم، ودامت عليهم الريح..

«وقالت غطفان وسليم: والله، لمحمد أحب إلينا، وأولى بنا من يهود؛ فما بالنا نؤذيه وأنفسنا، وكانت تلك السنة مجدبة، فجهدوا، وأضر مقامهم بكراعهم، فانصرفوا، وانصرف الناس»[٢].

وكفى الله المؤمنين القتال (بعلي) (ع):

إن ملاحظة أقوال معظم المؤخرين تعطينا:

١ ـ إن ما فعله نعيم بن مسعود ـ حسب زعمهم ـ من الفتنة بين بني قريظة والمشركين، ثم إرسال الريح عليهم. كان هو السبب في هزيمة الأحزاب[٣].

٢ ـ وبعضهم يرى: أن السبب هو الريح فقط، أو الريح والجنود[٤].

---

(١) راجع: بهجة المحافل ج ١ ص ٢٦٩ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤٦ عن ابن جرير، وابن أبي حاتم والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٨ وراجع: السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٢.

(٢) أنساب الأشراف ج ١ ص ٣٤٥.

(٣) راجع على سبيل المثال: فتح الباري ج ٧ ص ٣٠٢.

(٤) راجع سيرة مغلطاي ص ٥٦ والدر المنثور ج ٥ ص ١٩٢ عن ابن أبي حاتم وابن جرير عن السدي وقتادة.

٣ ـ والبعض يرى: أن ما فعله نعيم هو السبب[١].

بل يقول البعض:

إن دور الريح والملائكة كان صورياً. والسبب الحقيقي هو الفرقة التي بثها رسول الله (ص) بين صفوف المهاجمين، فأصبح بعضهم لا يأمن بعضاً قبل المعركة، فكيف يأمنه إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق؟!.

ولذلك ما إن هبت عليهم الرياح التي أرسلها الله حتى اتخذوها ذريعة للانسحاب من ميدان القتال يحملون في قلوبهم الضغائن على بعضهم[٢].

وهو كلام عجيب لما فيه من الجرأة والوقاحة على نفي كلام القرآن، الذي يصرح بالدور القوي للملائكة وللريح في حسم الموقف، كما تقدم في قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم، إذا جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾**.

فهل يرى هذا الكاتب أن ما أرسله الله سبحانه لم يكن له أي أثر أو دور إلا أنه اتخذ ذريعة للفرار من قبل المشركين؟!.

وقد ورد أنه صلى الله عليه وآله كان يقول: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب (أو وهزم) الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»[٣].

---

(١) الدر المنثور ج ٢ ص ١٩٥ عن ابن سعد عن سعيد بن المسيب.
(٢) التفسير السياسي للسيرة ص ٢٦٢/ ٢٦٣.
(٣) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٥٠ عن البخاري والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١١ و ١١٥ عن الصحيحين ومجمع البيان ج ٨ ص ٢٤٥ وتاريخ

ونقول:

إن النصوص المختلفة تلمح وتصرح: بأن هزيمة الأحزاب كانت لأسباب ثلاثة:

الأول: وهن أمر المشركين بسبب تضعضع ثقتهم ببعضهم البعض، مع طول الحصار، ثم مع ما واجهوه من مصاعب فيما يرتبط بالناحية المعيشية لهم ولكراعهم.

وذلك لأن خروجهم إلى حرب النبي بعد انقضاء زمن الحصاد، وفي سنة مجدبة، قد تسبب لهم بنكسة قوية. وهو يدل على أنهم لم يدرسوا الموقف من جميع جوانبه، ولعل ذلك لأجل أنهم كانوا مطمئنين إلى أنهم سيحسمون الموقف لصالحهم في فترة وجيزة ففاجأهم الرسول بخطته الحربية التي كانت قاصمة الظهر بالنسبة إليهم.

الثاني: ما أرسله الله سبحانه عليهم من الريح والجنود التي لا ترى؛ فإن الآية وإن لم تصرح بأن هزيمتهم كانت بسبب ذلك إلا أن عدم التصريح هذا لأن ذلك لم يكن هو تمام السبب في الهزيمة، بل كان من المؤثرات فيها.

الثالث: ما قذفه في قلوبهم من الرعب، بسبب قتل فرسانهم وكبش كتيبتهم، حتى يئسوا من أن يلجوا الخندق مرة أخرى قال ابن

الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٥٠ وعن مسلم كتاب الذكر ج ٨ ص ٨٣ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٤٥٦ وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢٢ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٧١ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢١٤ و ٢٢١ وعن فتح الباري ج ٧ ص ٤٠٦.

العبري: «وبقوا بضعة وعشرين يوماً لم يكن بينهم حرب. ثم جعل واحد من المشركين يدعو إلى البراز، فسعى نحوه علي بن أبي طالب، فقتله وقتل بعده صاحباً له، وكان قتلهما سبب هزيمة الأحزاب، على كثرة عَددهم، ووفرة عُددهم»[(١)].

ب: وقال المعتزلي: «الذي هزم الأحزاب هو علي بن أبي طالب؛ لأنه قتل شجاعهم وفارسهم عمرواً لما اقتحموا الخندق، فأصبحوا صبيحة تلك الليلة هاربين مفلولين، من غير حرب سوى قتل فارسهم»[(٢)].

ج: وقال الشيخ المفيد: «فتوجه العتب إليهم، والتوبيخ والتقريع، والخطاب. ولم ينج من ذلك أحد بالاتفاق إلا أمير المؤمنين عليه السلام؛ إذ كان الفتح له، وعلى يديه. وكان قتله عمرواً ونوفل بن عبدالله سبب هزيمة المشركين»[(٣)].

د: ويقولون أيضاً: «وفر عكرمة، وهبيرة، ومرداس، وضرار، حتى انتهوا إلى جيشهم، فأخبروهم بقتل عمرو ونوفل؛ فتوهن من ذلك قريش، وخاف أبو سفيان. وكادت أن تهرب فزارة، وتفرقت غطفان»[(٤)].

هـ: تقدم عن علي عليه الصلاة والسلام أنه قال عن قتله لعمرو بن عبد ودّ يوم الأحزاب.

---

(١) تاريخ مختصر الدول ص ٩٥.
(٢) شرح نهج البلاغة للمعتزلي الشافعي ج ٥ ص ٧.
(٣) الارشاد ص ٦٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٥٨.
(٤) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٨٧/٤٨٨ عن روضة الأحباب.

«فهزم الله قريشاً والعرب بذلك، وبما كان مني فيهم من النكاية»[١].

و: ثم هناك ما روي عن ابن مسعود من أنه كان يقرأ ـ على سبيل التفسير والبيان طبعاً ـ: وكفى الله المؤمنين القتال بعلي[٢].

فكلمة: بعلي ليست من القرآن، وإنما هي زيادة تفسيرية للآية، للتأكيد على نزولها في أمير المؤمنين عليه السلام.

وما أكثر القراءات التفسيرية هذه. فراجع كتابنا: حقائق هامة حول القرآن الكريم.

ز: عن ابن عباس: كفاهم الله القتال يوم الخندق، بعلي بن أبي

---

(١) الخصال للشيخ الصدوق ج ٢ ص ٣٦٩ والبحار ج ٢٠ ص ٢٤٤.

(٢) راجع: الدر المنثور ج ٥ ص ١٩٢ عن ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر وينابيع المودة ص ٩٤ و ٩٦ و ١٣٧ عن المناقب وأبي نعيم وميزان الاعتدال ج ٢ ص ٣٨٠ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٤ والارشاد للمفيد ص ٦٢ وكشف الغمة للإربلي ج ١ ص ٢٠٦ وفضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ ص ٣٢٣ والبحر المحيط ج ٧ ص ٢٢٤ وروح المعاني ج ٢١ ص ١٧٥ وكفاية الطالب ص ٢٣٤ ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٥٠ و ٣٤٣ والبحار ج ٢٠ ص ١٩٦ و ٢٠٥ و ٢٥٩ و ج ٤١ ص ٨٨ وشواهد التنزيل ط وزارة الثقافة والإرشاد الإيرانية ص ٧ و ٨ و ٩ ج ٢ ونهج الحق ص ١٩٩ وترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق ج ٢ ص ٤٢٠.

وملحقات إحقاق الحق للمرعشي النجفي ج ٣ ص ٣٧٦ ـ ٣٨٠ و ج ١٤ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٩ و ج ٢٠ عن مصادر تقدمت وعن المصادر التالية: معارج النبوة للكاشفي ج ١ ص ١٦٣ ومناقب مرتضوي ص ٥٥ ومفتاح النجا للبدخشي ص ٤١ مخطوط وتجهيز الجيش ص ٨١ مخطوط ودر بحر المناقب ص ٨٥ مخطوط. وارجح المطالب ص ٧٥ و ١٨٦.

طالب، حين قتل عمرو بن عبد ود[١].

وذكر القمي أيضاً نزول الآية في علي فراجع[٢] وكذا روي عن الإمام الصادق[٣].

ح: تقدم في الفصل السابق قول الحافظ يحيى بن آدم، أو جابر بن عبدالله الأنصاري: ما شبهت قتل علي عمرواً إلا بقوله تعالى:

فهزموهم باذن الله، وقتل داود جالوت.

ط: قال الشيخ المفيد: «وقال رسول الله بعد قتله هؤلاء النفر (يعني: عمرواً وأصحابه): «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»[٤].

وعند المعتزلي الشافعي: أنه صلى الله عليه وآله قال عند قتل عمرو: «ذهبت ريحهم، ولا يغزوننا بعد اليوم، ونحن نغزوهم إن شاء الله»[٥].

اشجع الأمة:

قال المحقق التستري: تدل الآية بناء على قراءة ابن مسعود: «على كون علي أشجع من كل الأمة. وأنه تعالى به عليه السلام كفى

---

(١) شواهد التنزيل ط وزراة الثقافة والإرشاد الإيرانية ج ٢ ص ١٠ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي الشافعي ج ١٣ ص ٢٨٤ عن الاسكافي.
(٢) تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٩ والبحار ج ٢٠ ص ٢٣٣.
(٣) ينابيع المودة ص ٩٦ ومناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ١٣٤ والبحار ج ٤١ ص ٨٨.
(٤) الإرشاد ص ٦٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٥٨.
(٥) شرح النهج للمعتزلي الشافعي ج ١٩ ص ٦٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٧٣ عنه.

شر العدو عنهم يوم الأحزاب؛ فيكون أفضل منهم، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً»[١].

وقال المظفر: «... فمنه حياة الإسلام والمسلمين، ولولا أن يكفيهم الله تعالى القتال بعلي لاندرست معالم الإسلام؛ لضعف المسلمين ذلك اليوم، وظهور الوهن عليهم إلخ...»[٢].

مفارقة في الموقف:

وقد ذكرت إحدى الروايات: أن هند بنت عمرو بن حزام، حين قتل زوجها عمرو بن الجموح وأخوها عبدالله، وابنها في حرب أحد. قالت لعائشة:

أما رسول الله (ص) فصالح، وكل مصيبة بعده جلل. واتخذ الله من المؤمنين شهداء. «وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لما ينالوا خيراً. وكفى الله المؤمنين القتال. وكان الله قوياً عزيزاً».

قال المعتزلي: قلت: هكذا وردت الرواية. وعندي أنها لم تقل كل ذلك. ولعلها قالت: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم» لا غير، وإلا فكيف يواطىء كلامها آيةً من كلام الله تعالى، أنزلت بعد الخندق. والخندق بعد أحد. هذا من البعيد جداً[٣].

ونقول:

إننا نوافق المعتزلي على ما قاله. ولكننا نقول له: كيف صار

---

(١) احقاق الحق ج ٣ ص ٣٨١. والآية في سورة النساء/٩٥.
(٢) دلائل الصدق ج ٢ ص ١٧٥.
(٣) شرح نهج البلاغة للمعتزلي الشافعي ج ١٤ ص ٢٦٢.

هذا من البعيد جداً، ولم تكن موافقات عمر للقرآن[(١)] على اختلافها وتنوعها، من البعيد جداً أيضاً؟!.

أم أن عبقرية عمر ليست لغيره من البشر، حتى الأنبياء وأوصيائهم، فضلاً عن النساء؟ أم أن حق التأليف القرآني محفوظ لعمر بن الخطاب بالاشتراك مع العزة الإلهية؟! تعالى الله عما يقول الجاهلون والوضاعون لفضائل عمر وغيره علواً كبيراً.

الآن نغزوهم، ولا يغزوننا:

وذكروا: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد قال يوم الأحزاب، حين أجلاهم الله سبحانه: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم.

أو قال: لن تغزوكم قريش بعد عامهم (أو عامكم) هذا.

أو نحو ذلك[(٢)] فلم تغز كفار قريش المسلمين بعد

---

(١) راجع: على سبيل المثال تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٣٢ ـ ٣٤ وراجع: الغدير للعلامة الأميني ج ٥ ص ٤٣ ـ ٦٥.

(٢) راجع المصادر التالية: سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤٩ عن أحمد، والبخاري، والبزار، والبيهقي، وأبي نعيم. وفتح الباري ج ٧ ص ٣١٢ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٥ ودلائل النبوة للبيهقي ج ٣ ص ٣٩٤، و ٤٥٧ و ٤٥٨ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٦٦ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٠٧ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٢ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٥ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٩ ص ٦٢ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٥١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٨ وصحيح البخاري ج ٣ ص ٢٢ والبحار ج ٢٠ ص ٢٥٨ و ٢٧٣ و ٢٠٩ والإرشاد للمفيد ص ٦٢ ونهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٨ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٦ وراجع ص ٧٦

الخندق[1].

متى قال النبي كلمته:

وقد صرح المفيد والمعتزلي بأنه صلى الله عليه وآله وسلم قد قال ذلك حين قُتِلَ عمرو وأصحابه. لكن المؤرخين الآخرين. يذكرون ذلك بعد جلاء الأحزاب والظاهر هو أنه لا فرق بين القولين، لأن جلاء الأحزاب. كان في اليوم الثاني، أو الثالث، من قتل الفرسان. فلم يكن هناك فاصل زماني يعتد به. ولا حدثت بعد قتلهم أحداث متميزة ومهمة سوى ما أرسله الله سبحانه على الأحزاب من الريح.

ولعل البعض قد حاول تعمية الأمر هنا، لأجل أن يقلل من أهمية الانجاز الكبير الذي حققه علي عليه السلام، الذي ابتلي بأناسٍ لا يزالون يحاولون انكار فضائله، واطفاء نور جهاده الرسالي الرائد.

وحدائق الأنوار ج ٢ ص ٥٩٢ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٤ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١٥ عن ابن اسحاق ومجمع البيان ج ٨ ص ٣٤٤ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٧١ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٢١ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩٢.

(١) امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٤١ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٢ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٤٩ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١٥ ومجمع البيان ج ٢ ص ٣٤٥ والبحار ج ٢٠ ص ٢٠٩ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩٢ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٢ ودلائل النبوة للبيقهي ج ٣ ص ٤٥٨ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٦٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٢١ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٥ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٠٧ والبحر المحيط ج ٧ ص ٢٢٤.

لماذا لن تغزوهم قريش بعد اليوم:

لقد أشاع المشركون بعد حرب أحد: أن المسلمين قد هزموا، وتكبدوا خسائر فادحة، رغم أن نهايات حرب أحد كانت كبداياتها قد أرعبت جيش الشرك، وهزمته روحياً وعسكرياً. وإن كانت قد حصلت نكسة في أواسط المعركة، تكبد المسلمون بسببها خسارة كبيرة.

ولكنهم بفضل جهاد علي عليه السلام، ثم عودة الخلَّص من المسلمين للقتال قد استعادوا زمام المبادرة، وانتهت الحرب بهزيمة المشركين وكسر عنفوانهم، وتكبدوا هم أيضاً خسائر كبيرة على مستوى القيادات وغيرها.

ولكن الخسارة التي مني بها المسلمون كانت أكبر ـ كما قلنا ـ فكان أن أشاع المشركون أنهم قد انتصروا في حرب أحد، كمحاولة دعائية فارغة لرد الإعتبار.

ثم حزبوا الأحزاب، وجمعوا الجموع، واتفقوا مع يهود بني قريظة، فانتعشت آمالهم من جديد. وبدا واضحاً لهم: أن أمر المسلمين قد انتهى. وأصبحت المسألة مسألة وقت لا أكثر ولا أقل.

وقد كانت المشاركة الشاملة للقبائل الفاعلة في المنطقة تطمئن زعماء قريش، الذين حشدوا كل ما لديهم من قوى بشرية ومادية لحسم هذا الأمر، والتخلص من هذا الكابوس الجاثم على صدورهم.

ولكن وجود الخندق، وحسن ادارة الرسول لأمر الحرب معهم، قد هيأ للمسلمين فرصة للمطاولة في أمر الحرب، حتى ملّ الأحزاب طول الحصار، وأصبحوا يواجهون مشكلات على مستوى التموين وغيره. ثم ظهرت خلافات زعزعت الثقة فيما بين الفرقاء المؤتلفين،

حيث فسد الأمر بينهم وبين بني قريظة وكان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم السبب في ظهورها، حسبما أوضحناه.

ثم كان قتل علي عليه السلام لعمرو، فارس الأحزاب وكبش كتيبتهم، ولمن معه، وفرار الباقين، هو الضربة القاصمة لهم؛ والمرعبة لقلوبهم.

وجاءت الريح لتثير في نفوسهم المزيد من الخوف والرهبة، والاحساس بالوحشة والوحدة. حيث يجد كل منهم نفسه مسؤولاً عن حفظ نفسه في مواجهة طغيان هذه الريح. ولا أحد يستطيع مساعدته والدفع عنه.

فآثروا الفرار على القرار، خوفاً من أن يبطش بهم سيف الإسلام من جديد؛ دون أن يتمكنوا من لم شعثهم، وتسوية صفوفهم. بل وحتى دون أن يتمكنوا من رؤية ما حولهم، لأنهم أصبحوا في ظلمة شديدة، وحالة مزرية إلى أبعد الحدود.

فكانت الهزيمة، وكان الخزي والعار لهم، دون أن يتمكنوا من تحقيق أي شيء سوى أنهم قتلوا أفراداً قليلين، قد لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة وقد خسروا في المقابل ما يعادل نفس هذا العدد، إلا أن من بينهم فارس قريش والعرب عمرو بن عبد ود العامري لعنه الله.

فإذا كان هذا أكبر حشد يمكن لقوى الشرك والكفر في المنطقة كلها أن تقوم به، وقد طار صيت هذا الحشد في مختلف البلاد، وشدت إليه الأنظار، وانتظر الناس أخباره في الليل والنهار، وتوقعت القبائل نتائجه في مختلف أرجاء الجزيرة العربية بفارغ الصبر لا سيما وأن الهدف الذي أعلنوه لهذه الحرب، هو استئصال محمد ومن معه،

حسبما تقدم[١].

فإن النتائج التي قدمها هذا الحشد كله، قد جاءت بمثابة زلزال هز المنطقة من الأعماق. وبث روح الفشل والوهن في كل قلب، وزرع الخوف والرعب في كل بيت.

وحدثت الهزيمة الساحقة والماحقة لكل عنفوان الشرك، وجبروت الكفر حيث فهم الجميع أن أقصى ما يمكن لهم أن يفعلوه ضد الإسلام ونبي الإسلام قد فعلته قريش والأحزاب ولم ينته إلى نتيجة.

وكانت النتيجة كذلك هي أن قريشاً قد فقدت الكثير من نفوذها ومكانتها، ولم تعد الكثير من القبائل تجد نفسها ملزمة بالخط أو الموقف الذي تريد قريش الزامها به.

ولم يعد بالامكان اقناع الكثير من القبائل بالمخاطرة بمستقبلها، والدخول في حرب جديدة مع الإسلام ومع المسلمين.

أضف إلى ذلك: أنه لم يعد بالامكان تحصيل درجة كافية من الوثوق بالآخرين، الذين لا بد من ضمان مشاركتهم الفاعلة حتى النهاية. بعدما أثبتت التجربة مع بني قريظة، بل وفيما بين فئات المشركين أنفسهم أن الرهان على ذلك رهان فاشل، بل هو رهان على يباب وسراب.

وهكذا، فإن القبائل التي باتت على يقين من عجزها عن مواجهة

---

(١) راجع: امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٤١ وخاتم النبيين ج ٢ ص ٩٤٢ والمغازي للواقدي ج ٢ وبقية المصادر، وهي كثيرة جداً ـ تجدها في فصل: الأحزاب إلى المدينة. وفي فصل: غدر بني قريظة.

الإسلام تسير باتجاه ترميم علاقاتها، وتحسينها مع التيار الإسلامي الجديد، الذي لا يزال يتنامى ويتعاظم في المنطقة بصورة مطردة.

وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وآله وسلم: الآن نغزوهم ولا يغزوننا أو ما هو قريب من هذا.

وأصبح زمام المبادرة والمبادأة العسكرية على الخصوص بيد المسلمين. منذ هزيمة الأحزاب واليهود في حرب الخندق.

وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً.

غلط حسابات المعتزلي:

وقد ادعى المعتزلي: أن النبي «انتصر يوم بدر، وانتصر المشركون عليه يوم أحد وكان يوم الخندق كفافاً، خرج هو وهم سواء، لا عليه ولا له؛ لأنهم قتلوا رئيس الأوس، وهو سعد بن معاذ. وقتل منهم فارس قريش، وهو عمرو بن عبد ود. وانصرفوا عنه بغير حرب بعد تلك الساعة التي كانت»[١].

وقد اشتبه الأمر على المعتزلي في موضعين.

أحدهما: قوله: إن المشركين انتصروا على النبي (ص) يوم أحد. وقد بينا في غزوة أحد: أن النصر فيها كان للمسلمين، وأن المشركين قد فروا من ساحة الحرب، خوفاً من أن يدال المسلمون منهم بصورة أشد وأعنف. نعم قد حصلت نكسة للمسلمين في وسط المعركة، ثم تجاوزوها بفضل جهاد علي. وقتله العديد من قادة

(١) شرح النهج للمعتزلي ج ١٠ ص ٢٢٠.

كتائب المشركين، فراجع.

الثاني: دعواه: أنه يوم الأحزاب لم يكن النصر لأحد، مع أن النصر فيها كان للمسلمين، وذلك أمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان. وقد أوضحنا ذلك فيما تقدم من نصوص وبحوث.

إلا أن يكون محط نظر المعتزلي هو عدد القتلى الذين سقطوا من الفريقين في هذه المعارك. ولكن من الواضح: أن تعبيره بالنصر والهزيمة ـ والحالة هذه ـ يصبح بلا مبرر.

الشهداء، والقتلى:

١ ـ الشهداء من المسلمين:

قال مالك: لم يستشهد يوم الخندق إلا أربعة، أو خمسة[١]. وقال أبو زهرة: خمسة[٢].

وقيل: كان الشهداء ستة، منهم سعد بن معاذ. وزاد الكازروني: أنهم من الأنصار[٣].

---

(١) وفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٤ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩٢ عن الوفاء والجامع للقيرواني ص ٢٨١.

(٢) خاتم النبيين ج ٢ ص ٩٣٨.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠ وتاريخ ابن الوردي ج ١ ص ١٦٣ وراجع: البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٢٠ ومختصر التاريخ ص ٤٣ والوفاء ص ٦٩٤ وامتاع الأسماع ج ١ ص ٢٤٠ و ٢٤١، ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ١٩٨ وبهجة المحافل وشرحه ج ١ ص ٢٧٢ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٤ ووفاء الوفاء ج ١ ص ٣٠٤ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٥٠ و ٥٥١ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٩٥ و ٤٩٦ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٧

وقال البعض: استشهد سعد في سبعة من الأنصار[١].

وقال البعض: قتل من المسلمين ثمانية، مضيفاً الرجلين اللذين قيل: إنهما كانا طليعة للمسلمين فقتلا[٢] وقد تقدم عدم صحة ذلك.

٢ ـ القتلى من المشركين:

وقتل من المشركين ثمانية[٣] وقيل ثلاثة[٤]. وقيل: أربعة جميعهم من قريش[٥].

وقد سمت بعض المصادر الشهداء والقتلى.

أما الشهداء، فهم: ثلاثة من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ. رمي بسهم وأنس بن أوس، قتله خالد بن الوليد. وعبدالله بن سعد. رماه رجل من بني عويف فقتله. واثنان من بني جشم، هم: الطفيل بن النعمان. قتله وحشي. وثعلبة بن عنمة. قتله هبيرة بن أبي وهب.

والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٦٤ و ٢٦٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١٥ و ١١٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٢٢ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٥٢ وراجع: تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ونهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٨ و ١٧٩ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩٢ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٠٦ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٣.

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٢.

(٢) الرسول العربي، وفن الحرب.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠.

(٤) راجع المصادر التي تقدمت للقول بأن شهداء المسلمين ستة.

(٥) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ق ٢ ص ٣٢ والرسول العربي وفن الحرب ص ٢٥٤ وروح المعاني ج ٢١ ص ١٧٥.

وواحد من بني النجار (أو دينار) هو كعب بن زيد. أصابه سهم غرب فقتله. وقيل: قتله ضرار بن الخطاب.

والثلاثة الذين من المشركين هم: منبه بن عثمان (أو عثمان بن أمية بن منبه) أصابه سهم فمات منه بمكة. ونوفل بن عبدالله. وعمرو بن عبد ود[١]. وعبيد بن السباق[٢] فليتأمل في هذا الأخير وليراجع كلام ابن اسحاق.

وتقدم أن حسل بن عمرو بن عبد ود قد قتل هو الآخر مع أبيه. فراجع الفصل السابق.

وقال ابن شهر آشوب: أن علياً عليه السلام قتل يوم الأحزاب: عمرو بن عبد ود وولده، ونوفل بن عبدالله بن المغيرة، ومنبه بن عثمان العبدري، وهبيرة بن أبي هبيرة المخزومي[٣].

وزاد الدمياطي في الشهداء من المسلمين: قيس بن زيد بن عامر، وعبدالله بن أبي خالد، وأبا سنان بن صيفي بن صخر. ذكر

---

(١) راجع: امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٤٠ و ٢٤١ وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٥٠ و ٥٥١ والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٩٥ و ٤٩٦ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٧ والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٦٤ و ٢٦٥ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١١٥ و ١١٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٢٢٢ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص ٢٥٢ وتاريخ الأمم والملوك ج ٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩٢ ونهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٨ و ١٧٩ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٠٦ وحبيب السير ج ١ ص ٣٦٤ وبهجة المحافل ج ١ ص ٢٧٢ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٣ والبحر المحيط ج ٧ ص ٢٢٤ وروح المعاني ج ٢١ ص ١٧٥.

(٢) البحر المحيط ج ٧ ص ٢٢٤.

(٣) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ٨٣.

الحافظ في الكنى: أنه شهد بدراً، واستشهد في الخندق[١].

العودة إلى المدينة:

قالوا: «وأصبح رسول الله (ص) بالخندق، وليس بحضرته أحد من عساكر المشركين. قد هربوا وانقشعوا إلى بلادهم. فأذن للمسلمين في الإنصراف إلى منازلهم. فخرجوا مبادرين مسرورين بذلك. فكره رسول الله (ص) أن تعلم بنو قريظة حب رجعتهم إلى منازلهم. فأمر بردّهم؛ فبعث من ينادي في أثرهم، فما رجع منهم رجل واحد»[٢].

زاد في نص آخر قوله: «من القرّ والجوع. قالا: وكره رسول الله (ص) سرعتهم، وكره أن يكون لقريش عيون.

قال جابر: فرجعت إلى رسول الله (ص) فلقيته في بني حرام منصرفاً، فأخبرته؛ فضحك (ص)»[٣].

ويقول القمي عن الأحزاب: «ففروا منهزمين. فلما أصبح رسول الله (ص) قال لأصحابه: لا تبرحوا. فلما طلعت الشمس دخلوا

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٥١ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٧ و ٦٨ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٣.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٥٠ والمغازي ج ٢ ض ٤٩١. وفي امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٩ اكتفى بالقول: «وأصبح (ص)، فأذن للمسلمين بالانصراف؛ فلحقوا بمنازلهم».

(٣) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٥٠ عن الطبراني، والواقدي. والمغازي للواقدي ج ٢ ص ٤٩٢.

المدينة، وبقي رسول الله (ص) في نفر يسير[١]».

ويقول الراوندي: «إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «صلى بالناس الفجر، ونادى مناديه: لا يبرحن أحد مكانه إلى أن تطلع الشمس.

فما أصبح إلا وقد تفرق عنه الجماعة إلا نفراً يسيراً.

فلما طلعت الشمس انصرف رسول الله (ص)، ومن كان معه، فلما دخل منزله إلخ»[٢].

وكان انصرافه (ص) من غزوة الخندق لسبع ليال بقين من ذي القعدة[٣].

وكان المنافقون بناحية المدينة يتحدثون بنبي الله (ص) وأصحابه، ويقولون: ما هلكوا بعد؟!.

ولم يعلموا بذهاب الأحزاب. وسرّهم أن جاءهم الأحزاب، وهم بادون في الأعراب[٤].

---

(١) تفسير القمي ج ٢ ص ١٨٧ والبحار ج ٢٠ ص ٢٣١.
(٢) الخرائج والجرائح ج ١ ص ١٥٨ والبحار ج ٢٠ ص ٢٤٨ عنه.
(٣) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٩٢ وعيون الأثر ج ٢ ص ٦٦ وراجع: نهاية الإرب ج ١٧ ص ١٧٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٨ والسيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ١٢ والمواهب اللدنية ج ١ ص ١١٥ وفتح الباري ج ٧ ص ٣١١.
(٤) سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٥٠.

عثمان وبنت النبي في الخندق:

وقد روى قطب الدين الراوندي قصة المغيرة بن أبي العاص في غزوة الخندق وملخص ما هو محط نظرنا منها:

أن المغيرة بن أبي العاص ادعى: أنه رمى رسول الله (ص) فكسر رباعيته، وشق شفتيه وكذب، وادعى أنه قتل حمزة وكذب.

فلما كان يوم الخندق ضرب الله على أذنيه، فنام ولم يستيقظ حتى أصبح، فخشي أن يجيء الطلب فيأخذوه، فتنكر، وجاء إلى منزل عثمان، وتسمى باسم رجل من بني سليم كان يجلب إلى عثمان الخيل والغنم والسمن.

فأدخله عثمان منزله، فلما علمت امرأة عثمان ما صنع بأبيها وعمها صاحت، فأسكتها عثمان. ثم خرج إلى رسول الله، فطلب منه الأمان للمغيرة ثلاث مرات، والنبي يحول وجهه عنه حتى آمنه في الثالثة. وأجله ثلاثاً، ولعن من أعطاه راحلة، أو رحلاً، أو قتباً، أو سقاءً، أو قربة، أو إداوة، أو خفاً، أو نعلاً، أو زاداً أو ماءً. فأعطاه عثمان هذه الأشياء. ولم يوفق للخروج من محيط المدينة فأعلم جرائيل النبي بمكانه، فأرسل زيد بن حارثة والزبير، فقتله زيد لأن النبي كان قد آخى بين زيد وحمزة.

فرجع عثمان إلى امرأته، واتهمها بأنها كانت قد أخبرت أباها بمكان عمه، فحلفت له بالله ما فعلت، فضربها بخشبة القتب ضرباً مبرحاً ـ كان سبب وفاتها في اليوم الثاني، وقد منع النبي (ص) عثمان

ـ الذي كان قد ألمّ بجاريته ليلة وفاتها ـ من حضور جنازتها[١].

ولكن قد تقدم بعد غزوة حمراء الأسد: أن هذه القضية قد حصلت بعد واقعة أحد. وربما تكون رواية الراوندي أقرب والله هو العالم.

(١) الخرائج والجرائح ج ١ ص ٩٤ ـ ٩٦ والبحار ج ٢٢ ص ١٥٨. وقال في هامش الخرائج: ورواه: بنحو آخر في الكافي ج ٣ ص ٢٥١ والتهذيب ج ٣ ص ٣٣٣ وأخرجه في الوسائل ج ٢ ص ٨١٨.

فهارس الكتاب

١ ـ الدليل الإجمالي للكتاب.

٢ ـ الدليل التفصيلي للكتاب.



الدليل الإجمالي للكتاب

الدليل التفصيلي للكتاب







